أوجين والخريف وقصص أخـــرى

مجموعة قصصية لأكوتاجاوا

obeikandl.com

هذه الترجمة الكاملة لكتاب

Akutagawa Ryunosuke

Short Stories Of Akutagawa

أكوتاجاوا ريونوسوكي

أوجين والخريف وقصص أخـــرى

مجموعة قصصية لأكوتاجاوا

ترجمة / آيه وائل
اشراف ترجمة / خالد طوبار

الغـلاف / هنيبال ـ هيبو

سلسلة من كل بلد كتاب - كتاب من النرويج
الطبعة الأولى/ القاهرة ٢٠١٤

ISBN: 978 - 199 - 3280 - 50 - 1

وكالة سفنكس
٧ شارع معروف الدور السابع
وسط البلد – القاهرة
ت/ف: ٠٠ ٢ ٠٢ ٢٥٧٩٢٨٦٥
www.sphinxagency.com
info@sphinxagency.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر، ويحظر نشر أو اقتباس هذا العمل أو أي جزء منه بأي وسيلة تصويرية أو إليكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات دون إذن كتابي من الناشر، ومن يخالف ذلك يتعرض للمساءلة القانونية

Sphinx Agency © 2014

This translation has been published with the financial support of Japan Foundation

obeikandl.com

ترجمة / آيــه وائــل

أوجين والـخريـف وقـصص أخـــرى

مجموعة قصصية لأكوتاجاوا

وكـالـة سـفنـكس

obeikandl.com

obeikandl.com

العجوز

كانت موسيقى الشاميسن تجري بشكل دائم في المطعم الذي يُدعى جيوكو سن كن في هاشيبا، في الصباح كان الجو غائمًا، وبحلول الظهيرة تساقطت الثلوج، وبحلول الوقت الذي تُضاء فيه المصابيح كانت الثلوج قد تراكمت لدرجة أنها أضعفت الحبال الموضوعة لمقاومة الثلوج على أشجار الصنوبر، ولكن بفضل المدفئة كانت الغرفة ذات البابين الزجاجي والورقي دافئة لدرجة تُشعر بالدوار، ولكنّ الجنرال سيء الخلق ناكازو ورفاقه الذين كانوا يرتدون معاطفًا رصاصية بلون الحديد عثروا على روكّين بعد أن أنهوا طعامهم وأخذوا يسخرون منه، وإلى جانب روكّين كان هناك ثلاثة أشخاص من ياناجي باشي، وامرأة سيئة

obeikandl.com

السمعة تنتظر مكانًا خاليًا وغيرهم حيث كان المكان يضم أكثر من أربعين شخصًا، كما كان سيدٌ من أسياد أوجاوا متواجدًا أيضًا، ضِفْ إلى هذا زوجة ناكازو ونحو ستة أشخاص متقاعدين ورفقة من معلمين منحنية ظهورهم بصحبة تلاميذهم بلغ عددهم جميعًا ثمانية وسبعين شخصًا، ولأنّ ثلاثة منهم كانوا تجارًا يعرفون عروض مهرجان كاميران ساي دار بينهم حوارات مثل التدريب الذي يتلقونه في مساكن الشاميسن في توبايا بفوكاجاوا، كما تحدثوا عن تاجر ثري بياما شيرة جاشي عقد اجتماعا لأصحاب الطاقات التي تُحمل عند الذهاب إلى معبد سنجا.

كانوا يجلسون في أوسع مكان بالمطعم بلغت مساحته نحو خمسين لوحًا من التاتامي، وكانت المصابيح الكهربائية الموضوعة وسط أوراق محاطة بالخيزران تعكس ضوئها على السقف المصنوع من خشب الأرز، أما الأرضية فقد زينت بآنية للزهور مملؤة بالمشمش الشتوي وأزهار النرجس، كان المكان يمتلئ بما يشعرك بأنك في فصل الشتاء فقد كانت هناك لوحة كُتب عليها بخط أسود نحيف "الثمار الحمراء والغربان والكاميليا المتفتحة في أوائل الشتاء"، كما كانت بخور السيلادون تفيض بعطر خشب الورد.

فُرشت سجادتين على الأرض، وكان رمز الأسرة المكون من أربع بتلات حمراء مصفوفة في شكل معين ظاهرًا على جلد الشاميسن، وعلى يد عازفه، وعلى مسند الكتب الأنيق المصنوع من الشجر الصيني عطر الزهر. كان الجميع

يجلسون ووجوههم إلى المسرح، يعتلى الكرسي الرئيسي المعلم شيجوو، يليه الجنرال ناكازو ثم سيد أوجاوا، وكان الرجال يجلسون جهة اليمين والنساء يجلسن جهة اليسار، وكان الرجال المتقاعدون هم مَنْ يجلسون في نهاية صف الرجال على الجهة اليُمنى.

كان من ضمنهم رجل يُدعى فوسا بلغ الستين عامًا من عمره العام الماضي، ومازال يذكر طعم الخمر في غرفة الشاي منذ خمسة عشر عامًا، ومنذ نحو خمسة وعشرين عامًا مـرّ به عام نحس، أُتلف فيه أرزه الذي زرعه في الأرض التي ورثها عن أبويه، وأدمن الخمر، وتلقى نقدًا سيئـًا من معلم الشاميسن، وأخذت معاناته من نقص الأموال تزيد شيئـًا فشيئـًا حتى ساقته المقادير إلى أن يعزف في مطعم. كان الجنرال ناكازو يقول: "إنه لم ينسَ في طفولته كيف كان فوسا هذا في أوج مجده، وكيف كان يغني والمطر الغزير يتساقط على طريق وسط الحقول أثناء مهرجان كاندا، ولكنـّه الآن قد هرم ولم يعد باستطاعته الغناء كما يحلو له، بل لعله يكون أيضًا قـد فـقـدَ اسم الشهرة الذي كان يشتهر به على المسرح، وإذا ما رأيته الآن يجلس في نهاية الصف مرتديًا ثيابًا من تشيتشيبو يستمع إلى تشاهاكاتا ما اعتقدت أنه رجل قد كرّسَ حياته للفن". قام كلٌ من ناكازو وسيد أوجاوا بتوجيه الحديث إلى فوسا.

"سيد فوسا، هلاّ أسمعتنا... ماذا كانت تدعى... نعم نعم زهور الأقحوان؟".

أجابهما فوسا وهو يربت على رأسه الصلعاء وجسده يصبح أكثر انكماشـًا مما هو عليه في الأصل:

"لا لا، لم أعد استطيع".

وللعجب فإنه عندما بدأ يستمع للكلمات الأنيقة المصاحبة لعزف الشاميسن فتح عينيه، وعدّلَ من جلسته وعندما بدأ روكّين يعلو بصوته بشكل واضح أغمض عينيه وأخذ يهز كتفيه الصغيرين مع صوت الأوتار، وكأنه يرى حلمه القديم يتحقق أمامه. حاول أن يخفي البريق الذي ظهر في عينيه ولكنه لم يستطع أن يمنع الدموع التي صدرت من أعماق قلبه.

عندما انتهى لحنا أساما نو اوى وهاناكو أخلى فوسا مقعده، عند ذلك تحدبدًا قـُدم الطعام، ثمّ أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع ناكازو وعلى الرغم من كبر سن فوسا فإنّ ناكازو قد تفاجئ بشدة قائلاً:

"كم تتغير الأحوال، لقد أصبحت رجلاً عجوزًا، وأنت أيضًا لقد انتهى أمرك يا فوسا".

"هل تقصد هذا الشخص بكلامك؟".

عندما سأل روكّين هذا السؤال تدخل سيد أوجاوا وأجابه قائلاً:

"بما أنك تعرف المعلم فاسمعني جيدًا، إنّ الفنون تطلب مهارة، فإذا ما كنت تقوم بالغناء فلابد أن تقدم الشاي أيضًا، لقد كان يستطيع أن يعزف لحن شين ناي، كما أنه ذهب ليتدرب على يد المعلم الأكبر في أوجي.

وهو الوقت نفسه الذي خرجـت فـيه تـلك الـعازفة، ما

اسمها؟... أتدعى موراساكي تشوو".

استمر الحديث عن فوسا لفترة بعدها، وفي النهاية عاد الصمت إلى المكان عندما بدأ العازف من يانجي باشي بعزف لحن معبد دووجوو، وبمجرد انتهاء هذا اللحن قام سيد أوجاوا من مقعده وذهب ليقضي حاجاته، فقد كان ينتوي أن يذهب لتناول البيض النيء بعدها ولكنه قابل ناكازو في الرواق:

"ما رأيك بتناول كوب من الخمر سرًا يا أوجاوا، ألا تشعر بالجوع؟".

"لقد كنت للتو أفكر في تناول البيض النيء واحتساء كوب من الخمر البارد، ولكن المرء لا يتحمس للشرب إذا لم يكن هناك مَـنْ يشاركه".

وفي طريقهما من الرواق إلى قلب المطعم سمعا أحدهم يتحدث بصوت منخفض في نهاية الرواق الطويل كان هناك بابٌ زجاجي استطاعا أن يريا من خلال الثلج خفيف الزرقة المتراكم على أشجار الحديقة الضوء الأصفر على الضفة البعيدة للنهر المظلم، لم يعد صوت الشاميسن مسموعـًا لا بالخارج ولا بالداخل، وكان كل ما يمكن سماعه هو صوت تراكم الثلج المتساقط على الثلج الذي دفن الثمار الحمراء للشجار القصيرة دائمة الخضرة، وكأن صوت الثلج المنزلق من على بعض الأوراق يشبه صوت همس إبرة ماكينة الخياطة، أما الصوت الذي سمعوه سابقـًا فقد استمر في سرية بين هذه الأصوات، همس أوجاوا قائلا:

"إنه ليس صوت قط يشرب الماء" توقفا ليستمعا، وبدأ الصوت وكأنه يأتي من الباب جهة اليمين، سمعا عندها شخصًا يقـول:

"ما الذي يزعجكِ؟ ما المفترض بي أن أفعل أمام بكائكِ الدائم؟ لا يمكنكِ أن تمزحي هكذا، ماذا أنت فاعلة أيتها العجوز الشمطاء، أفيقي، لا ينبغي لكِ أن تأمري الآخرين بالعمل، ماذا تفعلين هنا إذا؟".

"يعاملها هكذا بعدما كبرت". قالها أوجاوا وهو ينظر عبر فتحة صغيرة من الباب.

أمسك بالمصباح وهو شارد الذهن دون أن يلقي المصباح أي ظلال في الغرفة، كانت يراعم ما يبدو أنه سيكون نرجسًا تتمايل بتواضع، كان كل ما رأوه هو ظهر فوسا يجلس إلى المنضدة ذات المدفئة مرتديًا ملابس قطنية للمساء مرتديًا شالاً أسودَ.

لم يكن هناك أي أثر لامرأة، وكان هناك بعض الكتب الملقاة على لحاف المنضدة وقطة صغيرة معلق برقبتها جرس تصنع علبة للبخور، كان صوت الجرس يُسمع كلما هزت جسدها، أخذ يُردد هذه الكلمات، وهو يقرب رأسه الصلعاء من شعر القطة الناعم.

"لقد جئت في ذلك الوقت، أخبرتني أنكِ تكرهينني، أنا وفني".

صَمَتَ كلٌ من ناكازو وأوجاوا وأخذا ينظران إلى بعضهما البعض ثم تسللا بخفة من الرواق ليعودا إلى القاعة الرئيسة، فلم يكن يبدو أن الثلج سيتوقف.

راشومون

كان ذلك المساء باردا، وقف خادم لأحد الساموراي عند بوابة راشومون، ينتظر انقطاع المطر.

لم يكن هناك أحد آخر عند البوابة الرحيبة. على العمود الغليظ، الذي انسلخ منه الطلاء القرمزي الذي كان يكسوه في عدة مناطق منه، جثم صرار، لما كانت راشومون تقع على جادة سوجاكو، فقد كان من الممكن توقع قلة من أناس آخرين هناك يعتمرون قبعات من نبات البردي أو قبعات النبلاء، ينتظرون انحسار العاصفة المطيرة، ولكن لم يكن في الجوارأحد سوى هذا الرجل.

خلال السنوات القليلة الماضية ابتليت مدينة كيوتو

obeikandl.com

بوابلٍ من المصائب؛ زلازل وعواصف وحرائق، نتج عنها أن كيوتوً تعرضت لدمار شديد، وتفيد الوثائق التاريخية أن أجزاء مهشمة من صور وأشياء بوذية انسلخ طلائها الذهبي أوالفضي قد تراكمت على جانب الطريق لبيعها كي تستعمل حطبا للنيران، ولما كانت هذه حال البلدة فإنه لم يكترث أحد لإصلاح بوابة راشومون،

انتهزت الذئاب وغيرها من الحيوانات الضارية فرصة ذلك الدمار، واتخذت من أطلال البوابة أوكارا لها، وكذلك اللصوص اتخذوها مأوىً لهم، وفي النهاية آلَ الأمر إلى أنهم كانوا يحضرون الجثث التي لا يتعرف عليها أحد ويلقونها عند البوابة، ومن ثَم أصبحت بوابة راشومون مكانا مُوحشا لا يجرأ أحد على الاقتراب منه بعد حلول الظلام.

حينما اكتست السماء بحمرة الشفق قبيل المغيب بدت وكأنها حبٌّ سِمسمٍ، حلقت أسراب الغربان القادمة من مكان ما، فأحاطت هذه الطيور الناعقة بعارضة البوابة الأفقية، بالطبع جاءت لتقتاتَ على الجثث الملقاة أعلى البوابة، ولكن في ذلك اليوم لم يُر أي غراب ربما لأن الوقت تأخر، انتشرت الفضلات البيضاء التي خلفتها الغربان علىٍ الدرج المتآكل الذي نما عليه العشب؛ تراها عالقةً مرقطةً على السلم المتداعي الذي نمت عليه الأعشاب الطويلة، وهناك جلس الخادم على الدرجة السابعة من ذلك السلم _وهي أعلى درجاته_ بثوبه الأزرق الباهت هائما يتأمل المطر وهو باهتمام يعبث ببثرة في خده الأيمن.

ذكرنا آنفا أن الخادم كان ينتظر انقطاع المطر، ولكنه كان يجهل ما سيفعله تحديدا بعد توقفه، في الوضع الطبيعي كان يجب أن يعود إلى بيت سيده، ولكن سيده طرده منذ عدة أيام، فكما قلنا من قبل: إن المدينة قد سادها الدمار والكساد، وكان طرده من العمل بعد خدمة استمرت سنوات عديدة واحدا من النتائج الصغيرة لهذا الكساد، ولذلك يجدر بنا أن نقول: إنه خادم أحاطت به الأمطار ولم يجد مكانا يؤيه بدلا من قولنا: إنه خادم جلس ينتظر إنقطاع المطر، كما أن جو ذلك اليوم قد أثر على مزاجه، لم يبد أن الأمطار ستتوقف، أخذه الفكر ــ كيف سيتدبر أمره في الغد، أفكار بعيدة عن قدر لا يرحم، أخذ يستمع إلى صوت المطر المتساقط على جادة سوجاكو بلا هدف.

غمرت الأمطار بوابة راشومون، كان صوتها عنيفا يُسمع من بعيد، نظر الخادم إلى السماء فإذا به يرى سحابة سوداء كبيرة ظللت القرميد البارز من سقف البوابة.

كانت الخيارات أمامه محدودة، فهو يريد حلا لوضع يصعب حله، فلو أنه سلك الطريق الصالحة؛ فإنه سيتضور جوعا حتى الموت، وستلقى جثته كالكلاب على البوابة، وإذا ما قرر اللجوء إلى سبل ملتوية....

قرر بعد أن فكر مرارا و تكرارا أن يختار هذا الطريق، قرر أخيرا أن يصبح لصا لا مفر من ذلك، ولكنْ لم تكن لديه الشجاعة لحسم هذا القرار.

عطس الخادم، ثم نهض متثاقلا، كان الجو في كيوتو باردا؛ حيث تشتهر ببرد ليلها القارص لدرجةٍ جعلته يشتاق

لمدفئة، كانت الرياح تهب بين عمودي البوابة بلا خجل أو تردد، وقد رحل الجندب الذي كان يقف على العمود الأحمر إلى مكان بعيد.

قلص رقبته وأخذ يتطلع إلى البوابة، رفع كتف الكيمونو الأزرق الذي كان يرتديه فوق ملابسه الداخلية البالية، قرر أن يمضي الليلة هناك، إذا ما استطاع أن يجد ركنا منعزلا بعيدا عن الرياح والأمطار، ولحسن حظه فقد وجد سلما عريضا يؤدي إلى البرج العلوي، توقع أنه لن يوجد أي شخص في هذا المكان إلا الأموات ، إن وجدوا، وضع قدمه على الدرجة الأولى حذرا قابضا على سيفه لكيلا ينزلقَ من جنبه

بعد دقائق وصل إلى منتصف الدرج ورأى حركة بالأعلى، حبس أنفاسه وانكمش مثل القط وسط الدرج العريض وأخذ يرقب المنظر بالأعلى، لفح ضوء النار المشتعلة في البرج خده الأيمن، ذو البثرة المتقيحة الناتئة من أسفل ذقنه القصيرة، كان الخادم قد توقع ألا يكون بالبرج سوى الأموات، صعد درجتين أو ثلاثة و رأى أن أحدهم قد أشعل نارا بالأعلى، وأن هناك حركة حولها، لاحظ على الفور أن هذه الحركة هي خيال عنكبوت متدل من السقف فوق النار الصفراء الخافتة، من الذي يشعل ًنارا في بوابة راشومون في ليلة مطيرة مثل هذه؟ إنه لن يكون شخصا عاديا بأي حال من الأحوال.

زحف الخادم في هدوء شديد كالعظاءة إلى أعلى درجة

من السلم، زحف بيديه وقدميه ومد عنقه قدر المستطاع، ثم جال ببصره داخل البرج على تخوفٍ.

وكما سمعنا في الشائعات فإنه وجد العديد من الجثث المطروحة بإهمال داخل البرج، كان ضوء النار لا يصل إلى مساحة كبيرة كما كان يظن، ولذا لم يتمكن من معرفة عدد الجثث، كل ما استطاع تمييزه هوأن بعضها كان عاريا والبعض الآخربملابسه، كانت جثث النساء مختلطة بجثث الرجال، وكانت الجثث مطروحة على الأرض أفواهها شاغرة، أجسادها ممدة، لم يكن بها أي حراك، كانت تبدو كالدمى الطينية، من صمتهم يخيل للمرء أنهم ما كانوا على قيد الحياة من ذي قبل، برزت أكتافهم وصدورهم وجذوعهم في الضوء الخافت، واختفت أجزاء أخرى من أجسادهم في الظلام، وقد دفعته الرائحة الكريهة المنبعثة من أجسادهم المتحللة إلى أن يلثم أنفه بيده.

وفي الوقت ذاته لمح لأول مرة شخصا بين الجثث يجلس القرفصاء، عجوزا كانت تبدو كالقرد، اشتعل رأسها شيبا، هزيلة، قصيرة، ترتدي ملابس حمراء قانية، تحمل في يدها اليمنى شعلة من خشب الصنوبر، أخذت تحدق أي جثة من بين الجثث وكأنها ستخترقها، بدت أنها جثة امرأة من منظر شعرها الطويل

أثاره الخوف والفضول حتى أنه نسي أن يلتقط أنفاسه لبعض الوقت، يقول الراوي أن كلا من شعر رأسه وجسده قد وقفا، غرست المرأة العجوز الشعلة بين لوحين من ألواح الأرض، وأحكمت قبضتها على رقبة الجثة التي

كانت تراقبها، ثم أخذت تنتف شعر رأسها شعرة تلو الأخرى مثلما تنتزع القردة القمَّلَ من صغيرها، وكان الشعر يخرج بسهولة مع حركة يدها.

تلاشى خوف الخادم تدريجيا مع حركة نزع الشعر، ونما بداخله إحساس بالمقت الشديد تجاه المرأة العجوز، لا بل إنه لمن التضليل أن نقول: إن شعوره هذا نما تجاهها، بل قل إن كرهه لكل شر قد ازداد، فلو أن أحدهم في هذه اللحظة أعاد طرح ما كان يفكر فيه عند البوابة من أن يتضور جوعا أو أن يصبح لصا، لاختار أن يموت جوعا بلا شك، فقد توهج كرهه للشر كما كانت تتوهج تلك الشعلة التي غرستها المرأة الشمطاء بين لوحي الأرض.

بالطبع لم يعرف الخادم سر نتف المرأة الشمطاء لشعر الجثة، ولذلك لم يستطع أن يصنف فعلتها، أخيرا كانت أم شرا، و لكن في نظره لم يكن نتف شعر شخص ميت في ليلة مطيرة داخل بوابة راشومون عملا قابلا للغفران، بالطبع قد نسي أنه هو نفسه كان يفكر منذ برهة أن يصبح لصا.

استجمع الرجل قواه وصعد إلى أعلى السلم، وأحكم قبضته على سيفه ووقف أمام العجوز ذلك المخلوق الغريب، لا يمكن أن نصف كم ارتعبت العجوز عندما رأته، قفزت واقفة وكأن قوسا قد أصابها.

فقطع طريقها حينما حاولت الفرار منه متعثرة في الجثة وصاح بها:

"إلى أين تظنين نفسك ذاهبة"

وعلى الرغم من ذلك فقد حاولت المرأة أن تشق طريقها خلاله ولكنه منعها من الرحيل مرة أخرى ودفعها فأعادها مكانها، تشابكا بالأيدي وكما هو بديهي كانت الغلبة للرجال، أمسك بذراعها ولواه وأجبرها على أن تجثو على الأرض، كان ذراعها مثل أرجل الدجاجة لا يعدوعن كونه جلدا على عظم.

"ماذا كنت تفعلين؟ أجيبي، وإذا لم تجيبي فلك هذا"

أفلتها واستل سيفه وقرب نصله الأبيض الفضي من عينيها، ولكن المرأة لم تنبس ببنت شفة، ارتجفت المرأة وانقطعت أنفاسها، واتسعت عينها وجحظت حتى بدت وكأنها ستخرج من محجرها، أدرك الرجل عندها أن حياتها بين يديه، هدأت هذه الخاطرة وجعلته يشعر بالهدوء والكبرياء والرضا، بدلا من إحساس الكره الذي كان يحترق بداخله، عندها هدأ الرجل وقال في صوت أقل حدة:

"لست ضابطا تابعا لمفوض الشرطة، أنا رحَّال مررت بهذه البوابة صدفة، ولن أقيدك بحبل أو فاعلٌ بك سوءً، ولكن خبريني بما كنت تفعلينه هنا"

عندها فتحت المرأة عينيها أكثر وأخذت تحدق في وجهه، نظرت إليه بعينها الحمراء نظرة حادة كنظرة طائر قناص، حركت شفتيها التي تكاد تتعانق مع أنفها وكأنها تمضغ شيئا، قالت في صوت يشبه نعيق الغربان وهي تلهث:

"إني أنزع الشعر، أنزعه لأصنع منه شعرا مستعارا"

أشعرته إجابتها بخيبة الأمل، ومع هذا الشعور تخلل إلى صدره إحساس بالازدراء، يخالطه شعور بالكره؛ الذي كان قد

أحس به من قبل، انتقل هذا الإحساس إلى المرأة التي كانت لا تزال ممسكة بالشعر الذي انتزعته من الجثة، وتمتمت بصوت يشبه صوت الضفدع قائلة:

"ربما يكون نزع شعر الموتى أمرا سيئا، ولكن كل الجثث الموجودة هنا تستحق أن يفعل بها مثل هذا، فهذه المرأة التي كنت انتزع شعرها كانت تقطع الثعابين وتجففها وتبيعها على أنها سمك مجفف، وكانوا يقولون أن سمكها حلو المذاق، وإن لم تمت من الوباء لظلت تقتات ببيعه إلى الآن، بالنسبة لي لا أعتقد أنها أخطأت، فلو أنها لم تفعل ذلك لماتت جوعا، يجبر المرء على أفعال إذا ما كان سيتضور جوعا، وإذا ما علمتْ أنني أفعل هذا لكي لا أموت جوعا لتفهمتْ، فهي تدرك معنى أن يكون المرء مجبرا على فعل شئ ليعيش"

أعاد الرجل سيفه إلى غمده، وأصغى بهدوء إلى كلامها ويده اليسرى لا تفارق قبضة سيفه، أما يده اليمنى فقد كان يعبث بها في بثرته المتقيحة بخده الأيمن، وبينما هو يصغي تولدت لديه شجاعة، الشجاعة التى لم توات الرجل الجالس أسفل البوابة منذ قليل، شجاعة تدفعه عكس اتجاه الجرأة التى واتته عندما أمسك بالمرأة، لم يعد متحيرا بين أن يتضور جوعا أو أن يصبح لصا، فقد كان الموت جوعا بعيدا تماما عن تفكيره.

"هو ذلك بالتأكيد"

قالها ساخرا عندما فرغت من حديثها، أبعد يده عن بثرته وهو يتقدم خطوة تجاهها، أمسك برقبتها وقال في حدة:

"إذن فلا بأس أن أسطو عليك، فإذا لم أفعل هذا فسوف أموت جوعا أنا الآخر"

نزع عنها ثيابها وركلها بقدميه ركلة أَرْدَتهَا فوق الجثث، وبعد خمس خطوات، أصبح عند قمة الدرج وملابسها الحمراء القانية أسفل ذراعه، ونزل على الدرج ليعود إلى هوة الليل.

بعد برهة نهضت المرأة بجسدها العاري من بين الجثث منهارةً كالأموات ، و أخذت تصدر أصوات الأنين والتذمر، وزحفت نحو قمة الدرج مارةً بالنار المتوهجة، نظرت من بين الشعر الأبيض المتناثر على وجهها، ولم تر سوى ظلمة الليل الحالك.

أما الرجل فلا أحد يعلم أين ذهب.

opelkandl.com

obeikandl.com

الأنـــف

إذا ما ذكرت أنف الراهب ذي المرتبة العليا في معبد زنتشي فلن تجد أحدا في اكينو إلا وهو على علم به، من بدايته ومن نهايته له الحجم نفسه ويبلغ طوله حوالَىْ خمسة عشر أو ثمانية عشر سنتيمترا، يتدلى من شفته العليا إلى ذقنه، يبدو أنفه وكأنه قطعة من السجق متدلية من منتصف وجهه.

عانى الراهب الذي تجاوز الخمسين من عمره، الذي قضاه في المعبد البوذى حتى ارتقى اليوم إلى مرتبته السامية بسبب أنفه، بالتأكيد لم يُظهر أيًا من مشاعره المتعلقة بهذا الأمر متظاهرا أن الأمر لايزعجه، لم يكن ذلك فقط بسبب رهبانيته التي تحتم عليه أن يعلق آماله بالأرض الطاهرة فحسب، وأن التفكير في مظـهر أنـفه أمر لا يلـيق براهـب

obeikandl.com

وقور، ولكن كان ذلك رغبة منه في أن لا يلاحظ الآخرون أنه قلق لمظهر أنفه، ولكن في الحقيقة كان أخشى ما يخشاه الراهب هو أن ترد كلمة أنف في الحديث.

كان هناك سببين اثنين وراء كرهه لأنفه، أولهما: أن طول أنفه كان حقا غير مريح، فهو مثلا لم يكن يستطيع أن يتناول الطعام بمفرده، وإذا حاول ذلك كان أنفه يصل إلى الطعام داخل الإناء، ولذلك فإنه كان يُجلس أحد تلامذته في الجهة المقابلة له ممسكا بعصا طولها نحو الستين سنتيمترا يرفع بها أنفه أثناء تناوله الطعام، لم يكن هذا بالأمر السهل لكلٍ من الراهب وتلميذه الذي يرفع له أنفه، حتى أنه في إحدىً المرات حلَّ فتى من فتيان المعبد محل التلميذ الذى اعتاد على رفع أنف الراهب، وأثناء مساعدة الراهب في تناول الطعام عطس الفتى فاهتزت يداه وانتهى المطاف بأنف الراهب وسط إناء الطعام، وصلت هذه القصة آن ذاك إلى كيوتو، ولكن لم يكن هذا هو سبب معاناة الراهب من أنفه، كان السبب الحقيقي لمعاناته هو الجرح الذي تتعرض له كرامته.

أما عن الناس في إيكينو فقد كانوا سعداء لوجود شخص له مثل هذا الأنف في معبد زنتشي لأنه من المستحيل أن يجد امرأة تقبل به زوجا لها بأنفه هذا، حتى ظن بعضهم أن أنفه هذا هو سبب اختياره لحياة الرهبانية، أما بالنسبة للراهب فلم تكن حقيقةُ كونه راهبا تخفف عنه وطأة الحرج من طول أنفه المريع، فقد كان يشعر أنه مقيد

بالمكانة التي يضعه فيها أنفه هذا، ولذلك حاول بشتى الطرق الإيجابية منها والسلبية أن يستعيد كرامته المهدرة.

أول ما فكر فيه الراهب هو أن يجد طريقة يجعل بها أنفه يبدو أقصر مما هو عليه بالفعل، كان يجلس أمام المرآة عندما لا يوجد أحد حوله؛ ينظر إلى وجهه من كل زاوية، يقدح زناد فكره ليجد طريقة تجعل أنفه أقصر، جرب أن يغير من وضع وجهه وأن يسند وجهه إلى يديه وأن يلمس ذقنه بإصبعه، ولم يتسلل إلى نفسه اليأس أبدًا من النظر في المرآة، وعلى الرغم من هذا لم يتصادف ولو لمرة واحدة أن شعر بأن أنفه يبدو أقصر بشكل يرضيه، بل، وحتى أنه في بعض الأحيان كان أنفه يبدو أطول مما هو عليه حقيقة من كثر محاولاته، عندها كان يضع مرآته داخل صندوقه متنهدا تنهيدة عميقة، ثم يعود لا حول له ولا قوة لحامل السوترا ويأخذ في تلاوة صلاوات كان نون.

كان الراهب دائما منشغل البال بأنوف الآخرين، كان الرهبان في معبد إيكنو كثيرا ما يلقون الخطب والمواعظ ،كانت أعمال البناء لا تتوقف في المعبد، كما أنهم كانوا يغلون الماء لتجهيز أحواض الاستحمام كل يوم ولذلك كان الكثير من الناس يتوافدون على المعبد، من الرهبان وغيرهم، وكان راهبنا ذو الأنف الطويل يراقب هؤلاء الأشخاص دون انقطاع آملا أن يجد أحدا له أنف كأنفه فيطمئن قلبه أنه ليس الوحيد في هذا العالم، لم يكن يرى الناس بحسب ما يرتدونه من ملابس زرقاء داكنة أو الكيمونو الأبيض، ولم يكترث لأصحاب القبعات

البرتقالية أو ملابس الرهبان الخالية من البهرجة، فقد كان يألف هذه الأزياء المختلفة ولم تكن محور اهتمامه، لم يكن الراهب ذو الأنف الطويل يرى الأشخاص، كان يرى أنوفهم فحسب، كان يرى بعض الأنوف المعوجة، ولكنه لم ير أبدا أنفا يماثل أنفه، استمر في المراقبة ولكن الحياة خذلته مرة تلو الأخرى بعدم وجود أحد يحمل أنفا كأنفه مما جعله ينزعج من أنفه أكثر فأكثر، وكان ينزعج ويحمر وجهه خجلا -وهو أمر غير مناسب لسنه على الإطلاق- عندما كان يمسك بطرف أنفه المتدلي أثناء حديثه مع الناس.

وأخيرا فكر الراهب ذو الأنف الطويل أن يبحث في النصوص البوذية وغير البوذية عن شخص له الأنف نفسه لعله يجد ما يخفف عنه، ولكنه بعد البحث لم يجد ما يقول: إن موكورن أو شاريماتسو وغيرهما من الشخصيات البوذية المعروفة كان لهم أنوف طويلة، وبالطبع فإن ريوجو وميو كان لهما أنوف عادية مثل جميع البشر، وعندما قرأ في أحد أخبار الصين القديمة أن ريوجنتوكو مؤسس نظام شوكان كان له أذن طويلة تمنى أن لو كان أنفه هو الذي كان طويلا، كم كان هذا سيقلل من مشاعر الاستياء لديه.

كان للراهب ذي الأنف الطويل موقفان تجاه أنفه هذا، موقف سلبي يتمثل في قلقه الداخلي، وموقف إيجابي يتمثل في محاولاته التي لا تنتهي، والتي يصعب سردها هنا، عله يجد طريقة تجعل أنفه أقصر، لدرجة أنه جرب شراب منقوع اليقطين ليصغر أنفه، جرب أيضا أن يستخدم بول الفئران على أنفه، ولكن بقي أنفه رغم هذه المحاولات كما هو

طوله يتراوح بين الخمسة عشر والثمانية عشر سنتيمترا متدلية من أعلى شفتيه.

وفي خريف إحدى الأعوام رحل أحد تلامذة الراهب ذي الأنف الطويل إلى العاصمة، فتصادف بطبيب جاء من الصين ليصبح راهبا في معبد تشوراكوجي، حيث تعلم منه طريقة ليجعل الأنف الطويل قصيرا.

أما عن الراهب فقد استمر في ادعائه بأن الأمر لا يعني له شيئا وأنه لا يريد أن يهرع إلى تلميذه يطلب منه أن يجريَ عليه هذه الطريقة، ولكنه في إحدى المرات ألقى تعليقا عابرا للتلميذ، قائلا له: إنه ليحزنه ما يلقيه عليه من عبء كل يوم أثناء تناوله الطعام، بالتأكيد لم يجرؤ الراهب الصغير ليقول هذا، ولكنه كان لا يطيق صبرا ليجرب هذه الطريقة مع راهبنا ذي الأنف الطويل، ومع هذا فمن الصعب أن نقول أن الراهب الصغير قد خفيت عليه حيلة الراهب ذي الأنف الطويل، ولكن هذه الحيلة لم تصب الراهب الصغير بالضيق والحنق بل أثارت تعاطفه معه أكثر، وكما توقع الراهب ذو الأنف الطويل، فقد جاء إليه الراهب الصغير شغوفا بتجربة هذه الطريقة عليه، وكما توقع الراهب الصغير فإن الراهب ذا الأنف الطويل قد استجاب لطلبه المتحمس.

وأما عن كنة طريقة تقصير الأنف هذا، فقد كانت طريقة سهلة للغاية كل ما تقتضيه هو وضع الأنف في الماء المغلي ثم يُدعسُ بقوة، أما عن الماء المغلي فقد كان يستخدم في المعبد يوميا، وكان الراهب الصغير يذهب إلى مكان الماء

ويغرف ماء مغليا في إناء لا يطاق أن يوضع الأصبع فيه، ثم يذهب به إلى الراهب ولكن المشكلة كانت مخافة أن يحترق وجه الراهب ذي الأنف الطويل من البخار المتصاعد من ذلك الإناء، هنا خطرت ببال الراهب فكرة ألا وهى أن يجلب غطاء خشبيا يصنع به ثقبا بحيث يدلي راهبنا ذو الأنف الطويل منه أنفه دون أن يشعر بأي حرارة على وجهه، وبعد فترة من الانتظار قال الراهب الصغير "أعتقد أن الماء ساخن بما فيه الكفاية فلنبدأ الآن"

ابتسم الراهب ذو الأنف الطويل ابتسامة مريرة، بعدما طال حديث كل الناس عن أنفه فلربما حان الوقت لتتغير فيه الأوضاع، كان أنفه يحكه عندما وضع في الماء الساخن وكأن البراغيث تلتهمه.

أخرج الراهب الصغير أنف الراهب من فتحة الغطاء وكان البخار لايزال يتصاعد منه، سارع بدعسه بكلتا قدميه بكل ما أوتي من قوة، وكان الراهب الذي استلقى على الأرض واضعا أنفه موازيا لأحد الألواح الخشبية الأرضية يرى بأم عينيه قدم تلميذه تتحرك صعودا ونزولا على أنفه، كان الراهب التلميذ يشعر بالمرارة في بعض الأحيان فقال للراهب ذي الأنف الطويل وهو ينظر من أعلى إلى رأسه الأصلع:

"ألا تؤلمك؟ لقد قال لي الطبيب الذي علمني هذه الطريقة أن أدعس الأنف بكل قوة، ولكنها تؤلمك أليس كذلك؟".

حاول الراهب أن يومئ برأسه أن لا، أي: لا يؤلمه أنفه، ولكن رقبته بطبيعة الحال لم تطاوعه في ذلك.

وأنَّى لها ذلك، وأنفه يسوَّى به الأرض، قال وهو ينظر بعينه العليا لقدم تلميذه المتشققة: "لا إنه لا يؤلمني"، وفي الحقيقة لم يكن أنفه يؤلمه، بل على العكس، كان يتلذذ بذلك، فقد كان أنفه يحكه بشدة، وكان دعسه هكذا يريحه.

بعد فترة ليست طويلة بدأت فقاقيع كالحبيبات تخرج من أنف الراهب، ولك أن تتخيل عصفورا نُتف ريشه وهو جاهز للشوي الآن، عندما رأى الراهب الصغير هذا وقف على أطراف قدمه وقال للراهب ذي الأنف الطويل:

"علمني الطبيب أن ألتقط هذه الأشياء بملقاط"

نفخ الراهب خده مستاءً، ولكنه خضع لتلميذه في صمت، لم يكن تذمره من الراهب الصغير، فقد كان يعلم أنه يسدي له معروفا، ولكن كان تذمره نابعا من ضيقه لأن أنفه يعامل وكأنه سلعة، أخذ الراهب ذو الأنف الطويل يراقب تلميذه مرغما، وهو يلتقط الدهون الناتئة من أنفه بالملقاط، وتعتلى وجهه نظرة مريض لا يثق في الجراح الذي سيجري له العملية الجراحية، كانت تلك النتوء الدهنية تبدو كمنبت ريش الطيور، بيد أن طول النتوء يبلغ ربع طول منبت الريش.

بعد مدة قصيرة بدت على الراهب علامات الارتياح والتقط أنفاسه، فقد انتهت هذه المرحلة عند هذا الحد، قال الراهب الصغير لذي الأنف الطويل:

"فلنقم بوضعه في الماء المغلي ثانية"

اقفهر وجه الأنف الطويل ولكنه رضخ بالطبع لتلميذه الراهب الصغير.

بعد وضع الأنف مرة ثانية في الماء المغلى وإخراجه كان في الحقيقة أصغر مما كان عليه، لم يختلف شكله كثيرا عن شكل الأنف المعقوف، تحسس الراهب أنفه وأخذ يتأمله بخجل في المرآة التى قدمها له تلميذه.

لم يصدق الراهب أن أنفه الذى كان متدليا أسفل ذقنه قد انكمش لهذا الحد، فلقد أصبح الآن أعلى شفته العليا بقليل، نعم، إنه كان أحمراً بعض الشئ، ولكن لعل هذا من أثر الدعس وسيزول بعد قليل، وبأنف كهذا لن يسخر منه أحد بعد اليوم، غمزت صورة الراهب داخل المرآة للراهب خارجها معبرة عن رضاها لما حدث.

ولكن صاحب الأنف الطويل كانت تساوره الشكوك عما إذا كان أنفه لن يطول ثانية، إنه على أية حال لم يمر عليه يوم واحد بعد، دفعه قلقه هذا أن يتحقق من أرنبة أنفه طول الوقت، في وقت فراغه، في وقت تناوله الطعام، حتى في وقت تلاوة الصلوات، ولكنَّ أنفه أحسن التصرف وبقي فوق شفته العليا ولم يعط أي مؤشرات أنه سيعود يتدلى كسابق عهده، تفقد أنفه أول شئ في صباح اليوم التالي عندما استيقظ من النوم، ولحسن حظه فقد كان لا يزال قصيرا، أشعره ذلك ببهجة ونشوة وكأنه قضى أعواما في نسخ سوترا اللوتس وفعل الصالحات.

ولكنه خلال الأيام القليلة التالية اكتشف اكتشافا مذهلا، بدا ذلك عندما زار أحد محاربي الساموراي في معبد

إيكنو وركز على أنفه بشكل لم يعهده، حتى عندما كان أنفه طويلا، زاد هذا الإحساس غرابة عندما مر ببعض فتيان المعبد الذين كانوا على علم بواقعة سقوط أنفه في وعاء طعامه عندما اهتزت يد الفتى الذي كان يساعده على رفع أنفه أثناء تناول الطعام، في بداية الأمر خفضوا رؤوسهم وسيطروا على إحساس الدهشة لديهم ولكن الأمر لم يدم هكذا؛ فقد انفجروا بالضحك بعد قليل، حتى الرهبان الصغار كانوا يكتمون ضحكاتهم أمام الراهب وينفجرون بالضحك مجرد أن يدير ظهره، في البداية أقنع الراهب ذو الأنف الطويل نفسه أنهم يضحكون على تغير وجهه، ولكن هذا التفسير لم يقنعه بما فيه الكفاية، أمر مؤكد أن وجهه هو ما جعل فتيان المعبد والرهبان الثانويين يضحكون؛ ولكن شيئا قد اختلف فضحكاتهم الحالية تختلف عن ضحكاتهم السابقة، لعلهم يجدون أنفه القصير أكثر فكاهة من أنفه الطويل، ولكن السبب الحقيقي وراء ضحكاتهم لا يزال غير مفهوم تماما بالنسبة له، فهم لم يضحكوا منه هكذا من قبل.

أنهى صاحب الأنف الطويل قراءة كتابه، وأخذ يتمتم وهو يتمايل برأسه ذات اليمين وذات الشمال، عندما اتجهت الأمور هذا الاتجاه؛ أخذ يتأمل الراهب ذو الأنف الطويل –والذي ينبغي أن يحب الجميع– يتأمل في تمثال فوجن ويتذكر الحال الذي كان عليه أنفه قبل أربعة أو خمسة أيام متذكرا القولة التي تقول: "الأشخاص التى تتعرض للفشل يتطلعون إلى يوم من أيام أمجادهم

السابقة"، ثم دخل في صمت عميق، وبكل أسف توصل الراهب إلى الاستنتاج التالي:

"يتصارع في قلوب الناس نوعان من المشاعر، فمن الطبيعي أن يتعاطف الإنسان مع أخيه الإنسان في محنته، ولكن إذا ما استطاع أحدُهم الخروج من هذه المحنة، يشعر الآخر بنوع من الاستياء، وإذا ما بالغنا قليلا نستطيع أن نقول: إن هذا الآخر يتمنى أن يرتد الشخص الناجح لسابق عهده من الفشل، وللوهلة الأولى قد نبدو سلبيين تجاه هذا الشخص؛ لكن سرعان ما تنمو لدينا مشاعر العداء تجاهه"

لم يعرفِ الراهب السبب؛ ولكنه شعر بالاستياء، وأدرك عندها أن سبب تصرفات رهبان إيكنو ينبع من أنانيتهم وحبهم لذاتهم.

اضطرب مزاج صاحب الأنف الطويل يوما بعد يوم، وأصبح يؤنب الجميع ويصرخ فيهم، فقد كان محاطا بسخرية الجميع، وصل الأمر إلى أن سمع نميمة تقول: إن الراهب الذي قام بمعالجة أنفه قيل عنه أنه ارتكب خطيئة برغبته في أنف قصير، وقد أغضب ذا الأنف الطويل شئ آخر، حيث سمع فى أحد الأيام نباحا شديدا؛ فخرج ليتفقد الأمر فرأى أحد فتيان المعبد يطارد كلبا نحيلا ذا شعر طويل بعصا طولها حوالَيْ ستون سنتيمترا، يقول له وهو يطارده: "سأضربك بأنفي، سأضربك بأنفي"، أخذ الراهب العصا من يد الفتى وصفع وجهه بها بشدة، كانت تلك هي العصا التي كان يستخدمها في رفع أنفه أثناء تناول الطعام.

لقد كره الراهب أنفه القصير على عكس ما كان يتوقع.

هبت رياح في مساء يوم ما بعد غروب الشمس دقت أجراس المعبد، نمت هذه الأصوات العالية إلى راهبنا ذي الأنف الطويل وهو على وسادته، كما أن الجو أخذ يزداد برودة مما جعله لا يستطيع النوم مهما حاول، أخذ يتقلب في فراشه، وفجأة تنبه إلى أن أنفه يحكه، وعندما جسَّه بيديه وجده متورما من جراء احتباس ماء بداخله، كما أحس أن درجة حرارته مرتفعة بعض الشئ، قال لنفسه: "ربما مرضت نتيجة لمحاولتي تقصير أنفي بالقوة".

تمتم بها وهو يضم كفيه بكل احترام وكأنه يقدم القرابين من الزهور والبخور بين يدي تمثال بوذا.

في صباح اليوم التالي استيقظ راهبنا باكرا كالمعتاد وإذا به يرى أشجار الجنكة وأشجار الكستناء الموجودة بساحة المعبد وقد تساقطت أوراقها مما جعل الحديقة براقة وكأنها فرشت بغطاء ذهبي، لعل هذا كان بسبب طبقة الثلج الخفيفة التي كانت تكسو أسطح أبراج المعبد، ولمعت الحلقات التي تزين قمم الأبراج في ضوء النهار الخافت، وقف في الشرفة التى كان قد فتح مصراعيها وأخذ شهيقا عميقا، وفي هذه اللحظة عاد إليه الإحساس الذي كان يحاول أن ينساه، مد يده إلى أنفه فزعا لم يكن الشئ الذي لمسه هو ذلك الأنف الصغير، لا، لقد كان أنفه القديم المتدلى من فوق شفته العليا إلى أسفل ذقنه ذلك الأنف الذي كان يبلغ طوله خمسة عشر أو ثمانية عشر سنتيمترا، علم عندها أن أنفه قد عاد كما كان خلال الليل، عاد إليه الإحساس نفسه

الذي كان قد شعر به عندما قَصُرَ أنفُه، عندها همس لنفسه قائلا:

"بهذا لن يكون هناك شئ يسخر منه الناس".

قالها ونسيم الصباح الباكر يداعب أنفه الطويل.

obeikandl.com

عصيدة البطاطا

وقعت أحداث هذه القصة قبل نحو مائة وعشرة سنة – لا يهم متى وقعت بالتحديد– يكفى أن تعلم أنها وقعت في عصر أنه في تلك الأيام عاش في كيوتو محارب ساموراي معين في خدمة وصي العرش فوجيوارا موتوتسونى.

كم أود أن أقول اسمه بدلا من لفظ "معين" ولكنه للأسف ليس مذكورًا في الوثائق القديمة؛ ربما لأنه كان إنسانًا عاديًا للغاية ليس جديرًا بالذكر في الوثائق حيث لم يكن كتابها يعيرون اهتمامًا كبيرًا للأشخاص العاديين، وهم بهذا يختلفون كثيرًا عن الكتاب أصحاب المذهب الطبيعي، ولكنّ الكتاب آنذاك كانوا في عصر غير مرفهين

obeikandl.com

على عكس ما يتوقع، وعلى كل حال فمن بين محاربي الساموراي في خدمة فوجيوارا موتوتسونى كان هناك ضابط من المرتبة الخامسة -وهو بطل قصتنا هذه- في تلك الأيام كانت المرتبة الخامسة من المراتب غير ذات الشأن، وكانوا يطلقون عليها اسم "جوي"، ولذلك فسنسمي بطل قصتنا هذه "جوي".

كان "جوي" عادي المظهر، مبدئيا كان قصيرًا، أحمر الأنف، عيناه ذابلتان، شاربه خفيف، خداه أجوفان مما جعل ذقنه يبدو طويلا بشكل غير معتاد، أما شفتاه... لن ننتهى إذا أبدًا إذا ما أخذنا نصف كل ملمح من ملامحه. فلنكتفى بقولنا إنه كان رث المظهر والهيئة.

لا أحد يعلم متى وكيف جاء ليخدم موتوتسوني الشيء الأكيد أنه كان يقوم بمهامه اليومية بلا كلل أو ملل مرتديًا نفس الرداء الحريري الباهت، معتمرًا نفس القبعة السوداء، ربما كان هذا هو السبب وراء اعتقاد كل مَنْ يراه أنه لم يكن شابًا في يوم من الأيام (كان جوي يتجاوز الأربعين عامًا)، يعطي أنفه المحمر وشاربه الخفيف انطباعًا بأن رياح جادة سوزاكو تهب على وجهه منذ مولده، ولم يوجد أحد بداية من موتوتسوني نفسه نهاية إلى الخدم لم يعتقد بذلك.

يمكنك أن تتخيل بسهولة نوع المعاملة التي كان جوي يتلقاها ممن حوله، لم يهتم زملاؤه من المحاربين به قط، كما لم يكترث مرؤوسوه الذين يتجاوز عددهم العشرين به على الإطلاق، كانوا كثيرًا ما يتجاهلونه عندما يوجه لهم التعليمات ويستمرون في ثرثرتهم ونميمتهم، لم يكن مرئيًا

بالنسبة لهم أكثر من الهواء، ولم يتجاوز تأثيره تأثير وقوع قطرة ماء في بحر اليابان، لوحظ هذا التجاهل حتى في قاعة الساموراي أيضًا، حيث لم يبال به أي من الأعضاء أو الرئيس أو حتى الذين يعلونه مرتبة، كانوا يعطونه التعليمات بالإيماءات فقط.

ليس من قبيل الصدفة أن الانسان يمكنه التواصل عن طريق الكلام، فتلك الإيماءات لم تكن تكفى في كثير من الأحيان، وعندها كانوا يعزون فشلهم في توضيح ما يريدونه إلى عدم قدرته على الفهم، حين ذلك كانوا يحدقون به بشدة وكأنه المخطئ، وينتهى بهم المطاف بأن يديروا ظهورهم بعد أن يرمقوه بنظرات تتناوله من أعلى قبعته المعوجة وحتى صندله القشي البالي، أما هو فقد كان إنسانًا جبانًا يفتقد إلى كل أشكال الإلهام لدرجة جعلته حصينًا ضد كل أنواع الظلم.

جعل منه زملاؤه أضحوكة، كان من يفوقونه سنًا منهم يسخرون من هيئته مما شجع مَنْ يصغرونه على ممارسة كافة حيلهم عليه، لم يكلوا أو يملوا من السخرية من ملابسه وقبعته وأنفه وشاربه حتى في حضرته، لم يكتفوا بهذا بل كانوا أيضًا يتحدثون عن زوجته ذات الشفة الأرنبية والتى انفصل عنها منذ خمس أو ست سنوات، وعن راهب دائم السكر يقال أنها كانت على علاقة به، كما كانوا يضايقونه من حين لآخر، وإنه لمن المستحيل أن نذكر كافة الطرق التي تفننوا في السخرية منه بها، ربما يمكنك تخيل سوء الموقف إذا ما ذكرت لك أنهم في إحدى المرات شربوا الخمر من

الوعاء الخاص به ووضعوا بدلا منه فضلاتهم.

ولكن جوي لم يبال على الإطلاق بأفعالهم على الأقل هذا ما كان يبدو للناظرين ولم تتغير تعبيراته مهما قال عنه الآخرون بل كان يقوم بكل مهامه وهو يتلمس شاربه الخفيف عندما كان الأذى يبلغ بهم أن يضعوا قصاصات ورقية في العقدة أعلى شعره أو يضعون حد السيف عند نعله كان يقول لهم: "لا يجدر بكم فعل ذلك" بلهجة لا تعلم من خلالها إذا ما كان يضحك أو يبكي، كل من كان يرى وجهه هذا أو يسمع صوته الرفيع كان يتعاطف معه، أما عن هؤلاء المستهزئين به فكانوا يرون في صوته ووجهه تذمر كل من كانوا يضايقونهم من الذين تحجرت قلوبهم، ولكن هذا التعاطف لم يستمر طويلا سوى لدى قلة قليلة منهم فكان من ضمن الذين تعاطفوا معه محارب صغير بلا رتبة جاء من تامبا، كان شاربه قد بدأ بالكاد ينمو. في بداية الأمر كان قد انضم إلى المتهكمين من أحمر الأنف جوي، ولكنه في يوم من الأيام سمع كلماته، وهو ينهرهم: "لا يجدر بكم فعل هذا" فعلق هذا الصوت في ذهنه، عند ذلك بدأ يراه بصورة أخرى رأى فيه إنسانًا اضطهدته الحياة يختلس النظر عبر وجهه الباهت جراء نقص التغذية، ولم يستطع التفكير في جوي دون أن ينبهر باحتجاجه على الحقائق القاسية في الحياة، ومع ذلك وجد لنفسه عزاءً في مظهر أنفه الذى لسعته البرودة وشاربه ذي الشعرات المعدودة.

لكنّ هذا الموقف المتعاطف معه كان موقف المحارب عديم الرتبة وحده خلافًا لذلك كان على جوي أن يحيا

مثل الكلب وسط مضايقات الذين يحيطون به. بداية لم يكن لديه ملابس تناسب مركزه، وكان لديه كيمونو أزرق اللون وثوب آخر من نفس اللون إلا أن ملابسه هذه كانت باهتة لا تستطيع أن تميز إذا ما كانت نيلية أم زرقاء، وكان الكيمونو كبيرًا عليه مما جعله يسقط من على كتفيه. أما ثوبه فقد كان باليًا، وكانت ساقاه النحيلتان الظاهرتان من ثوبه تشبهان ساقي بقرة هزيلة تجر عربة حتى سيفه لم يكن مميزًا، وكان طلاءه على وشك أن ينسلخ. كان أحمر الأنف يسير بخطوات صغيرة، كتفاه الدائريان محنيان تحت السماء؛ ولذلك كان الجميع يسخر من هيئته حتى الباعة الجائلون المارون بالمكان حتى حدث ما حدث.

في يوم من الأيام وأثناء ذهابه من بواية سانجومون إلى شنسن ان، رأى نحو ستة أو سبعة أطفال على جانب الطريق يقومون بشيء ما، فتوقف ليرى ماذا يفعلون، لعلهم يلعبون بالدبابير الدوراة، أخذ يراقبهم من الخلف فإذا بهم يضايقون كلبًا ضالا أشعثا مربوطًا بحبل مثبت حول عنقه، كان جوي الجبان عادة ما يتردد في تحويل مواقفه إلى أفعال، ولكن هذه المرة وبما أنهم أطفال استجمع بعض الشجاعة وتوجه إلى من بدا عليه أنه أكبرهم سنًا، ابتسم ابتسامة عريضة وشدّ على كتفه وطلب منه أن يطلق سراح الكلب، قال له: "ستؤذي هذا الكلب إذا ما ضربته".

التفت الصبي رافعًا عينيه وحدّق به باحتقار قائلا "اهتم بشئونك الخاصة"، ورجع خطوة إلى الوراء ثم صاح به قائلا: "ما خطبك يا أحمر الأنف البائس".

شعر جوي أن هذه الكلمات قد ضربت وجهه، لم يكن ذلك بسبب شعوره بالإهانة من كلمات الصبي، ولكنه شعر بالبؤس؛ لأنه عرّض نفسه لمثل هذه الكلمات، أخفى عاره بابتسامة مريرة، وأخذ يسير في اتجاه شنسن ان عند ذلك أخذ الأطفال في عمل تعبيرات سخيفة على وجوههم وإخراج ألسنتهم له، ولكنه لم يراهم، وحتى إن كان رآهم فلن يغير ذلك من الأمر شيئـًا.

هل بطل هذه القصة خلق فقط ليمقته الآخرون؟ ألم يكن لديه هدف في الحياة؟ لا ليس الأمر كذلك، فعلى مر الخمس أو الست سنوات الماضية كان لديه ولع غريب بما يُسمى "عصيدة البطاطا"، عصيدة البطاطا هي أكلة تصنع بغلي شرائح البطاطا في حساء نبات المرنطة الحلو، كانت هذه الوصفة تعد قمة الرفاهية في ذلك الوقت حتى على المستوى الملكي، ولذلك فإن رجلا عاديًا مثل جوي لم يتمكن من تذوقها سوى مرة واحدة في العام عندما يدعون شخصيات بارزة إلى قصر الوصي على العرش، حتى عندها لم يمكنه سوى تذوق كمية قليلة جدا لا تكاد تبلل الحلق، لذلك كان يحلم منذ فترة ليست بقصيرة أن يشرب منها حتى الشبع بالطبع لم يعلن عن رغبته هذه لأي شخص، حتى هو نفسه لم يكن يدرك تمامًا أن هذه كانت أمنية حياته، ولن نكون مبالغين إذا ما قلنا إنّ هذا كان هو الهدف الذي يحيا من أجله في الحقيقة، في بعض الأحيان يكرس الإنسان حياته من أجل هدف لا يعلم حتى إذا كان سيتحقق أم لا، والذين يسخرون من هـؤلاء الحـمقى ما هم في النـهاية إلا

عابرو سبيل في هذه الحياة.

ولكن حلم جوي بأن يتناول من العصيدة حتى يمتلئ جوفه تحقق ببساطة غير متوقعة، فلنقص إذا قصة العصيدة من بدايتها لنهايتها.

في أحد الأعوام وتحديدًا في اليوم الثاني من شهر يناير (كانون الثاني) حضر إلى القصر ضيوف ذو مكانة عالية (كانت مأدبة أعدها رئيس الوزراء، دعا إليها حكام المقاطعات وبعض النبلاء وكانت مشابهة للمأدبة الكبيرة التي أقيمت في قاعة نينوميا في اليوم ذاته)، انضم جوي والعديد من المحاربين الآخرين إلى العشاء ففي ذلك العهد لم تكن عادة فصل الضيوف وفقا لمراتبهم قد تكونت بعد، وبذلك كان الجميع يتجمعون حول طاولة واحدة ويتناولون الطعام معًا في مآدب ذلك العصر كانوا يقدمون ما لذ وطاب من أصناف الطعام المتنوعة؛ كعك الأرز الدبق، وأذن البحر المدخن، والطيور المجففة، والسمك القادم من مدينة أوجي، وسمك الشبوط القادم من أفومي، وسمك الأبراميس المقطع إلى شرائح رفيعة ومجفف، وسمك السلمون المملح، والأخطبوط المشوي، والقريدس من الحجم الكبير، واليوسفي الحمضي وغيرها العديد من أصناف الطعام، وكان من ضمنها "عصيدة البطاطا"، كان جوي ينتظر هذه الفرصة كل عام بفارغ الصبر، ولكن عدد المتواجدين كان كبيرا مما جعل حصة الفرد الواحد قليلة للغاية، ربما كان هذا خيالا من عنده، ولكنه شعر بأن مذاقها هذا العام أشهى من المعتاد وبعد أن أنهى حصته أخذ يتأمل طبقه

الفارغ وهو يمسح القطرات التي تتساقط من على شاربه، عندها قال لشخص ما بجواره: "كثيرًا ما أتساءل هل سيأتي اليوم الذي سأتناول فيه العصيدة حتى الشبع!".

عندها سمع جوي صوت أحدهم ضاحكًا وهو يقول:

"إنه يقول إنه لم يتناول كفايته من عصيدة البطاطا".

كان صوتًا جهوريًا يليق بمحارب عظيم، رفع جوي رأسه ونظر في جبن إلى صاحب الصوت، كان صوت فوجيوارا توشيهيتو بن تزكي ناجا الذي كان وزيرًا للمالية في نظام موتوتسونى، كان رجلا ضخم الجثة، عريض المنكبين، بدت عليه علامات السكر جراء ما احتساه من النبيذ الغامق ومضغ الكستناء.

عندما رأى توشيهيتو جوي وهو يرفع رأسه استأنف حديثه في صوت يجمع بين الازدراء والتعاطف قائلا:

"سوف تتناول ما يكفيك من العصيدة إذا ما شئت"

ولكن الكلب الذي أسيئت معاملته دائما من الصعب أن يقفز لالتقاط قطعة لحم تلقى له بين الحين والآخر، أخذ جوي ينظر إلى طبقه الفارغ وإلى وجه توشيهيتو بوجهه الباسم الذي لا تستطيع أن تميز إذا ما كان يضحك أو يبكي، فسأله توشيهيتو:

"ألا تبالي؟".

وبقي جوي صامتًا

"إذا ما جوابك؟".

شعر جوي بأن أنظار الحضور جميعًا مسلطة عليه، وأن إجابته هذه سيتوقف عليها إذا ما كان سيصبح سخريتهم أم

لا، عندها فكر في سخريتهم منه مهما كانت إجابته – تردد – فإذا بتوشيهيتو يصدمه بكلماته:

"إذا كنت لاتبالي فإني لن أكرر دعوتي".

أخذ يدير بصره بين وعائه الفارغ ووجه توشيهيتو، عندها هرع إلى الإجابة قائلا:

"لا أجرؤ يا سيدي".

عندها انفجرت الجموع التى كانت تستمع إلى الحوار في الضحك، حتى إن أحدهم أخذ يردد إجابته في سخرية، ملأت الضحكات أرجاء المكان، فجعلت قبعاتهم الصفراء والزرقاء والأطباق مختلفة الألوان أمامهم تهتز مثل الأمواج، وكان توشيهيتو أكثر من تعالت ضحكاته.

"حسنـًا، سأدعوك" قالها وهو يختنق، يبدو أن الخمر الذي كان يحتسيه قد اعترض طريق ضحكاته، سأله:

"هل أنت متأكد من جوابك هذا؟".

كرر جوي إجابته السابقة في تهتهة وقد احمرّ وجهه

"لا أجرؤ يا سيدي".

عندها بالطبع ضحك الجميع مرة أخرى، حتى توشيهيتو الذي كان قد أعاد على جوي السؤال ليسمع إجابته مرة أخرى انخرط في الضحك ضحك حتى أعلى من المرة السابقة حتى اهتز كتفاه. لم يكن النبلاء الريفيون من الشمال يعرفون طريقـًا في الحياة سوى الخمر والضحك.

ولحسن الحظ فقد انصرف التركيز عن حوارهما بعد فترة ربما لأن الآخرين قد ساءهم أن يكون تركيزهم على جوي صاحب الأنف الأحمر والسخرية منه أخذوا يتحدثون

وينتقلون من موضوع إلى آخر حتى قلت كمية الطعام والشراب المتبقية، ولفت انتباه الجميع حديث عن محارب متمرن يدعى ناني جاشي الذي حاول أن يصعد على ظهر حصان ورجلاه الإثنان في ناحية واحدة من بنطاله. أنصت الجميع ماعدا جوي الذي بقى منعزلا وكأنه لا يسمع أي شيء مما يدور حوله فقد كانت "عصيدة البطاطا" تحتل كل تفكيره فلم يمد يده إلى الطيور المشوية التي أمامه، ولم يحتس ولو جرعة واحدة من الخمر فاكتفى بوضع كلتا يديه في حجره، وكأنه فتاة خجولة جالسة أمام زوج منتظر ترتعد حتى جذور شعرها، وأخذ يحدق في الوعاء الأسود اللون الفارغ وهو يبتسم ابتسامة بلهاء.

بعد هذه الواقعة ببضعة أيام قام توشيهيتو في صباح يوم من الأيام بدعوة جوي ليصاحبه إلى نبع ساخن على متن الخيول، ومضيا في طريقهما مصاحبين ضفة نهر كامو؛ توشيهيتو بمظهر يليق بمحارب حقيقي، شاربه الأسود ورداءه السماوي، السيف الطويل في جانبه، أما جوي فقد كان يرتدي ثيابه البالية، وثيابه الداخلية المربوطة بضعف، وحزامه مربوط حول وسطه بطريقة مهملة، وشاربه متسخ بالمخاط السائل من أنفه، تصعب مقارنة مظهره الرث بمظهر توشيهيتو الوسيم، المقارنة الوحيدة التي يمكن إجراءها هي مقارنة بين الحصانين اللذين كانا يمتطيانهما، امتطى كل منهما جوادًا يافعًا، توشيهيتو على حصان بني يميل إلى الحمرة، وجوي على حصان يتخلل بياض شعره بعض اللون البني. حدّق بهما كل الباعة الجائلين والمحاربين

المارين في الطريق، وقد صاحبهما في رحلتهما خادم وحامل للرماح سائرين جنبًا إلى جنب مع الحصانين.

كان يومًا من أيام الشتاء ولكنه كان مشرقًا هادئًا حتى إنه لم تكن هناك رياح لتحرك أوراق اللوتس المتساقطة على النهر، والتى كانت تشق طريقها من خلال الصخور، كانت خيوط الشمس الذهبية اللامعة تنعكس على الأغصان العارية لأشجار الصفصاف المقابلة للنهر مما جعل ظل الرفراف الجاثم على قمم الأشجار تنعكس على الطريق. أما جبل هى إيه فقد كسى الجليد المخملي قمته المتلونة بالأخضر الداكن، مضى الإثنان في طريقهما إلى أواتاجوتشي وسروج أحصنتهما تتلألأ في ضوء الشمس الذهبي، سأل جوي وهو يمسك بلجام حصانه:

"إلى أين نحن ذاهبون يا سيدي؟".

أجابه توشيهيتو:

"لقد اقتربنا، ليس المكان بعيدًا كما تعتقد".

فقال جوي:

"إذن فلابد أنها أواتاجوتشي".

هذا الصباح عندما دعى توشيهيتو جوي أخبره أنهما

سيذهبان إلى نبع ماء ساخن بالقرب من هيجاشي ياما، وصدقه الأنف الأحمر، كان جسده يحكه فهو لم يستحم منذ فترة، وكم سيكون محظوظًا إذا ما استطاع أن يأكل "عصيدة البطاطا" أيضًا، امتطيا حصانيهما ومضيا جنبًا إلى جنب حتى تجاوزا أواتاجوتشي عندها سأله جوي:

"أليست أواتاجوتشي هي وجهتنا".

أجابه توشيهيتو:

"لا بل بعدها بقليل".

كان توشيهيتو يمتطي حصانه بهدوء، وتعمّد ألا ينظر إلى وجه جوي، مضيا حتى أخذت المسافات تتباعد بين البيوت على جانبي الطريق حتى اختفت تماما، ولم يعد باديا من حقول الأرز سوى بعض الغربان تنتظر فريسة، ولم يظهر في الأفق سوى مظهر الثلوج المائلة للزرقة المتبقية على الجانب الشمالي من الجبل، فكان منظر فروع الأشجار العارية الحادة وهي تطعن السماء يُشعر بالقشعريرة.

قال جوي: "إذن نحن ذاهبون إلى ياماشينا يا سيدي"

أجابه توشيهيتو:

"لا هذه هي ياماشينا، لكن وجهتنا أبعد بقليل".

ابتعدا بحصانيهما عن ياماشينا حتى إنهما تجاوزا سيكي ياما، وبعد الظهيرة بقليل وجدا أنفسهما أمام معبد مي. في هذا المعبد يعيش راهب مقرب إلى توشيهيتو، قاما بزيارته ودعاهما على طعام الغذاء، انطلقا بعدها في طريقهما، كان الطريق أكثر وحشة من الطريق الذي قطعاه من قبل، في ذلك العهد كانت البلاد تمتلأ باللصوص وانعدم الأمان في

كل مكان.

"ألا يزال المكان بعيدًا يا سيدي؟".

سأل جوي، وهو ينظر إلى وجه توشيهيتو وكتفه أكثر انحناءً.

عندها ابتسم توشيهيتو ابتسامه كتلك التي يبتسمها الطفل المخطئ عندما يكشفه والداه، كانت التجاعيد على حافة أنفه والعضلات الجانبية لعينيه تبحثان إذا ما كانت ستنفجر في الضحك أم لا، في نهاية الأمر أجابه توشيهيتو:

"في الواقع إنني أنتوي أن آخذك إلى تسوروجا".

قالها مبتهجًا وهو يشير بسوطه إلى الأفق ومن تحت سوطه كانت مياه بحيرة بيواكو تتلألأ تحت شمس الظهيرة.

قال جوي وهو في حيرة من أمره:

"تسوروجا! تلك التي تقع في مقاطعة ايتشي زن؟ تلك البعيدة للغاية؟".

كان جوي يعلم أن توشيهيرو قد قضى معظم حياته في تسوروجا؛ فهو متزوج من وريثة فوجيوارا اريهيتو، ولكنه حتى تلك اللحظة لم يعتقد أبدًا أنه سيصحبه إلى ذلك المكان البعيد؛ في بداية الأمر تساءل كيف سيصلان سالِمَين إلى تسوروجا ومعهما خادمين فقط كيف سيعبران كل هذه الجبال والأنهار بسلام ثم تداعت إلى ذهنه قصص وإشاعات عن قتل مسافرين على يد قطاع الطرق، رفع وجهه متوسلا إلى توشيهيتو قائلا له:

"يا إلهي؛ في البداية اعتقدت أننا متوجهان إلى هيجاشي ياما، ثم تجاوزناها فقلت لابد أننا متوجهان إلى ياماشينا

وتجاوزناها إلى معبد مي، والآن تقول لي إنك ستأخذني إلى تسوروجا، لو كنت أخبرتني منذ البداية لكنت على الأقل أحضرت خادمًا. تسوروجا! يا إلهي".

ولولا حبه لتناول العصيدة لكان قد ترك توشيهيتو وعاد وحيدًا إلى كيوتو.

عندما رأى توشيهيتو صدمة جوي تملكه بعض الغضب، وقال له في شيء من السخرية:

"اعتبرني بمثابة ألف رجل، لا يوجد ما يدعو للقلق".

نادى على خادمه فألقى على كتفه جعبة السهام التي كان خادمه يحملها على ظهره وثبت على سرجة السهم ذي الطلاء الأسود الذي كان الخادم يحمله في يديه، ثم قاد الجمع، لم يعد بيد جوي المصدوم سوى أن ينصاع لرغبة توشيهيتو، مضى في الطريق الوعر لا حول له ولا قوة يتأمل المناطق الموحشة المحيطة بهما، مالت أنفه تجاه سرجه مع خطوات الحصان غير الثابتة، وأخذ يردد ترانيم السوترا لآلهة الرحمة التي كان يتذكرها بالكاد.

كانت الحقول البرية التي عكست صدى صوت حوافر أحصنتهما مغطاة بمساحة رحيبة من الحشائش الصفراء، وكانت برك المياة الباردة المتكونة هنا وهناك تعكس صورة السماء وتعطي إيحاءً بأنهم سيتجمدون في ذلك المساء الشتوي، وبدت في الأفق سلسلة من الجبال تفتقر حتى إلى لمعة الثلوج العالقة على قممها، وكست السماء بلون بنفسجي داكن، شاب ذلك منظر الكتل الكئيبة من الأعشاب التي فصلتهما عن رؤية الخادمين أحيانًا، استدار

توشيهيتو لجوي فجأة، وقال له:

"انظر هناك، إنه رسول جيد سأرسله إلى تسوروجا".

لم يفهم جوي قصد توشيهيتو جيدًا؛ فقد كان المكان موحشًا لا يتواجد فيه بشرٌ، ولكنه نظر حيثما أشار توشيهيتو بسهمه في تخوف، فرأى ثعلبًا يسير متباطئًا بين أجمة الشجيرات المتشابكة بالكرم البرية، وقد تعرض فراءه لضوء الشمس الآخذة في الانحسار، وفجأة ارتعد الثعلب وأخذ يركض بأقصى سرعته حيث إنّ توشيهيتو قد ضرب حصانه بسوطه واندفع نحو الثعلب، عندها اندفع جوي وراء توشيهيتو في حالة من الهذيان، ولم يستطع الخادمان أن يتأخرا عنهما، ولفترة اخترق صوت قعقعة حوافر حصانيهما أعلى الأحجار الصمت الذي كان يسود البرية، ولكن سرعان ما أوقف توشيهيتو حصانه، وجاء بالثعلب الذي باغت الجميع باصطياده على أم رأسه إلى جانب السرج لا بد وأنه قد انقضّ عليه بحصانه واصطاده حيًا، مسح جوي قطرات العرق العالقة على شاربه الخفيف، وانطلق لاهثًا حتى وصل إلى توشيهيتو.

"اسمع أيها الثعلب".

قالها توشيهيتو بصوت جليل رافعًا الثعلب أمام عينيه:

"اركض إلى منزل توشيهيتو في تسوروجا وأخبرهم أني قادم الآن مع ضيف مميز؛ فليرسلوا بعض الرجال لاستقباله في تاكاشيما قبيل الساعة العاشرة من صباح الغد، وليحضروا حصانين مجهزين بالسروج، حسنًا؟ إياك أن

تنسى".

عندما فرغ من كلامه ألقى توشيهيتو بالثعلب نحو كتلة من الحشائش، وأخذ الخادمان اللذان لحقا بتوشيهيتو يهللان ويصفقان وهما يطالعان الثعلب الذي يسارع في الابتعاد.

فقال توشيهيتو لجوي: "انظر كيف يركض، انظر كيف يركض".

ركض الثعلب المتلون بلون أوراق الخريف المتساقطة في ضوء الليل الخافت عبر الصخور وفوق جذوع الأشجار، كانوا يرونه بوضوح من أعلى الربوة التي كانوا يقفون عليها؛ فقد كانوا قد وصلوا أثناء مطاردتهم للثعلب إلى قمة منحدر خفيف الانحدار تندمج فيه الحقول البرية من قاع مجرى نهر جاف.

"إنه رسول الآلهة يا سيدي، أليس كذلك؟".

قالها جوي معبرًا عن مدى تعجبه وإعجابه وهو ينظر باحترام أكبر إلى وجه الفارس المغوار الذي استطاع أن يأمر حتى الثعلب، ولم يفكر في الهوة التي تفصله عن توشيهيتو كل ما شعر به هو أنه كلما سقط أكثر تحت تأثير توشيهيتو فإن إرادته ستصبح أكثر حرية طالما أنها تحت إرادة بطل، ربما تكون هذه هي أكثر اللحظات مناسبة لمولد التملق؛ فإذا وجد القارئ في شخصية جوي ذي الأنف الأحمر شيئًا من التملق فإنه لا ينبغي له أن يضع شخصيته موضع الشك بصورة عبثية.

أما الثعلب الذي أطاح به توشيهيتو بعيدًا فقد هرع يطوي الحقول المنحدرة وكأنه يتدحرج قافزًا فوق الصخور

في قاع النهر الجاف جرى بقوة صاعدًا المنحدر المقابل، نظر خلفه وهو يطوي الطريق، فرأى جماعة المحاربين الذين أمسكوا به على متن خيولهم يظهرون من على حافة المنحدر المقابل البعيد غاية في الصغر كأصابع اليد المتلاصقة معًا، وغمرت الشمس بأشعتها الجوادين فبدا وكأنهما يطفوان في الرياح الباردة.

التفت الثعلب برأسه إلى الأمام، وأخذ يعدو كالريح في وسط الأعشاب الجافة

وصل الجمع إلى مشارف تاكاشيما قبيل الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي كما كان من المتوقع، لم يكن هناك سوى قرية صغيرة تشرف على بحيرة بيواكو بها بضع منازل مبعثرة ذات أسقف مصنوعة من القش، كانت السماء ملبدة بالغيوم المنذرة بهطول الأمطار على عكس سماء الأمس الصيفية، عكس سطح البحيرة المتموج صورة أشجار الصنوبر المرقطة التى تنمو على حافتها، وفي لحظة توقفوا والتفت توشيهيتو نحو جوي قائلا:

"انظر، لقد أتى الرجال لاستقبالنا".

من بين العشرين أو الثلاثين رجلا الذين جاءوا بالحصانين المجهزين بالسروج، كان بعضهم راكبًا والبعض الآخر على أقدامهم، وأخذت الرياح الباردة ترفرف ملابسهم الحريرية، أسرعوا نحوهم سائرين على امتداد ضفة البحيرة خلال أشجار الصنوبر، وما إن اقتربوا من توشيهيتو حتى قفز الراكبون من على سروجهم وركع السائرون أمامه.

قال جوي:

"يبدو أن الثعلب قد قام بدور المبعوث بالفعل".

أجابه توشيهيتو:

"نعم، فالثعلب حيوان له قدرة طبيعية على التخفي، ولذلك فلن تجد أصلح منه لمثل هذه المهمة".

بينما كان جوي وتوشيهيتو يتحدثان في هذا الأمر وصلا ومعهما الخادمين إلى حيث انتظرهم أتباع توشيهيتو، قال لهم توشيهيتو:

"شكرًا لقدومكم".

وقف الأتباع الذين كانوا جاثين على الأرض في الحال وأمسكوا بلجامي حصاني جوي وتوشيهيتو.

لم يكد الإثنين يترجلان عن جواديهما ويجلسان على وسائد مكسوة بالفراء حتى جاء رجل شائب الرأس يرتدي ثوبا حريريًا بني اللون إلى توشيهيتو، وقال له:

"سيدي لقد حدث أمر عجيب ليلة البارحة".

سأله توشيهيتو متعاظمًا وهو يقدم الطعام والشراب اللذين كان الأتباع قد أحضراهما لجوي:

"وما كان ذلك الأمـــر؟".

قال الرجل: "يا سيدي، نحو الساعة الثامنة من مساء البارحة سقطت مولاتي مغشيا عليها، وقالت: " أنا ثعلب ساكاموتو أحمل لكم رسالة بعث بها سيدي اليوم؛ لذا فاقتربوا وأنصتوا". فاقتربنا جميعًا منها فإذا بها تقول: " زوجي قادم الآن ومعه ضيف مميز فليذهب الرجال إلى مشارف تاكاشيما لاستقباله ومعهم جوادان مسرجان".

هكذا أبلغتنا يا سيدي.

حاول جوي أن يُرضي كلا من توشيهيتو وأتباعه فتدخل في الحديث قائلا:

"إنه لأمر غامض حقـًا".

استأنف التابع حديثه قائلا:

"أبلغتنا بالأمر بطريقة غير عادية فقد كانت ترتجف من الرعب، وقالت لنا لا تتأخروا وإلا فسيعاقبكم زوجي وأخذت تبكي وهي تتحدث".

قال توشيهيتو: "وماذا فعلت بعد ذلك؟".

قال الرجل: "بعد ذلك خلدت إلى النوم وكانت لا تزال نائمة عندما غادرنا المكان".

سأل توشيهيتو جوي بنظرة يملأها الفخر:

"ما قولك؟ حتى الحيوانات تأتمر بأمر توشيهيتو".

خفض جوي رأسه وهو يهرش في أنفه المحمر وقال مصطنعًا المفاجأة:

"لا يسعني سوى أن أتعجب يا سيدي!".

قالها وقطرات الخمر الذي كان قد شربه للتو عالقة على شاربه.

وفي المساء قضى جوي ليلته في غرفة بمنزل توشيهيتو، جافاه النوم فأخذ يحدق بمصباح زيتي في الغرفة حتى انكشف الصباح، تداعت إلى ذهنه صور الأماكن التى كان قد مر بها في الطريق إلى هنا مع توشيهيتو وأتباعه؛ التلال التي تكسوها أشجار الصنوبر، والجداول، والحقول اليابسة، والدخان المنبعث من حرائق الحقول، وأخذ يبتسم متذكرًا

obeikandl.com

إحساسه بالارتياح الذي شعر به عند رؤية الوهج الأحمر للفحم في المجمرة الطويلة عندما وصلوا إلى الدار في وقت سابق من ذلك المساء شعر وهو مستلقي هكذا أن شعوره بالارتياح هذا لم يكن سوى حدثًا من الماضي البعيد، مد جوي ساقيه تحت الرداء الأصفر القطني وأخذ يتأمل في هيئته وهو مستلقي تحت رداءه الأصفر هذا كان يرتدي ثوبين خمريين كان توشيهيتو قد أعارهما له، ومع شعوره بالدفء أدرك جوي إحساس أن يكون المرء ثريًا، وحاول أن يسترجع أحداث ذلك المساء، ولكن الخمر الذي كان قد احتساه من قبل قد جعل ذلك مستحيلا تصور عندها أن الليلة كانت قارسة البرودة وبدت أحداث حياته مقارنة بالأحداث التي مرّ بها الليلة كأحداث حياة عامل بسيط مقارنة بحياة أمير، ولكنه ولسبب ما شعر بعدم ارتياح يختلج صدره، في البداية كان يستعجل مرور الوقت، ولكنه شعر أن انقشاع الليل وحلول وقت تناول العصيدة لاينبغي أن يأتي بمثل هذه السرعة، أخذ هذان الإحساسان المتضاربان يتصارعان مما سبّب له شعورًا بعدم الارتياح من جراء هذا التغيير المفاجئ للظروف أبقته مشاعره الباردة مثل جو ذلك اليوم يقظًا طوال الليل.

في أثناء ذلك ترامى إلى سمعه صوت أحدهم يهتف في حديقة المنزل بالخارج اخترق الصوت عظامه؛ ربما لأنه كان صوتًا عاليًا له صدى في الصقيع أو لأنه صوت حاد كبرد الشتاء القارس.

"اصغوا أيها الخدم جميعًا، يريد مولاي أن يذهب الجميع

شيبًا وشبابًا لإحضار ثمار بطاطا من الجبل يكون سمكها نحو تسعة سنتيمترات وطولها نحو المتر بحلول الساعة السادسة صباحًا –لاتنسوا– بحلول السادسة".

تكرر النداء عدّة مرات وانتهت الجلبة، وخيّم الصمت على الأجواء مرة أخرى، وفي وسط هذا الصوت سُمع صوت غليان الزيت في المصباح الزيتي، وأخذ نور الفتيلة الحمراء يتوهج ويخبو. تثاءب جوي ثم غرق في تفكير عميق لابد وأنه أمرهم بجلب البطاطا من الجبل لصنع "عصيدة البطاطا"، وفجأة عاد إليه الإحساس الذي ساوره منذ قليل، والذي كان قد نسيه بسبب تركيزه في الأحداث الواقعة بالخارج، تنامى إحساسه بالرغبة في أن تقدم له العصيدة قريبًا، واستمر في الهيمنة على فكره، عندها بدا له أن أمر تحقق أمله في أن يشبع من العصيدة بهذه السهولة وكأن صبره طوال هذه السنين قد كان جهدًا ضائعًا، وتمنى فجأة أن لو كان بالإمكان أن يحدث شيء يحول بينه وبين تناول العصيدة لبعض الوقت، وجالت هذه الأفكار بخاطره كما تتدحرج كرة خشبية وفي أثناء ذلك غط في نوم عميق؛ فقد كان منهك القوى من السفر.

عندما استيقظ في صباح اليوم التالي تذكر مسألة ذهاب الخدم إلى الجبل لإحضار البطاطا، فقام متلهفًا وفتح نافذة الغرفة، أدرك عندها أنه قد أفرط في النوم وأن الساعة قد تجاوزت السادسة، رأى في فناء المنزل بضع حصر مفروشة وعليها كمية عظيمة من أشياء إسطوانية سميكة، وكان ارتفاع هذه الكومة يناهز ارتفاع المنزل، وبتدقيق النظر

أدرك جوي أنها ثمار بطاطا عملاقة يبلغ قطرها نحو تسعة سنتيمترات ويتجاوز طولها المتر، فرك عينيه اللتين كان أثر النوم لا يزال باديًا عليهما غلبت عليه الدهشة والذهول وأخذ يتطلع هنا وهناك، وضعت في الحديقة نحو خمسة أو ستة مراجل مثبتة بأوتاد ضخمة جديدة مثبتة في الأرض، عكف على العمل عليهن عشرات الخادمات اللاتي كن يرتدين ثيابًا ذات أكمام بيضاء؛ منهم مَنْ كان يوقد النار، ومنهم مَنْ كان يتخلص من الرماد، وأخذت أخريات يصببن حساء نبات المرنطة الحلو في المراجل من دلاء خشبية، واختلطت كتل الدخان المتصاعدة من أسفل المراجل والبخار المتصاعد منها بضباب الفجر الذي لم يكن قد انقشع كليًا بعد، وغطى حجاب رمادي الفناء الواسع مما جعل الرؤية صعبة، كل ما كان يُرى من وراءه هو ألسنة اللهب المتصاعدة من النيران المتأججة في المراجل، كان المشهد بكل ما يُرى فيه وكل مايُسمع بداخله يشبه الضوضاء الناشئة عن الذهاب إلى ساحة الحرب أو حادث حريق، عندها فكر جوي في أن أكوام البطاطا هذه والتي وُضعت في قلب المراجل ستتحول ولاشك إلى عصيدة، ثم فكر أنه قد جاء إلى تسوروجا بهدف محدد ألا وهو تناول العصيدة، وكلما أوغل في التفكير كلما زاد شعوره بالبؤس، أما عن شهيته التي أثارت تعاطفنا حتى الآن فقد تناقصت إلى نصف ما كانت عليه من قبل.

بعد ساعة جلس مع توشيهيتو وحميه أريهيتو معًا على منضدة الطعام، ووضعوا أمامه إناءً ضخمًا قد امتلأ ببحر

من العصيدة، وكان جوي قبلها قد رأى عشرات من الشباب وهم يقطعون كومة ثمار البطاطا إلى شرائح بسكاكينهم، فكان ارتفاع كومة البطاطا يصل إلى سقف المنزل تقريبًا كما كان قد شاهد الخادمات يركضن يمينًا ويسارًا ويلقين بشرائح البطاطا في المراجل، وعندما انتهوا من نقل كل الشرائح التي كانت موضوعة على الحُصر في الفناء كان الجو قد تعبق بسحب من البخار المشبع برائحة البطاطا الممتزجة بالمرنطة، وعلت هذه السحب من المراجل لتخالط سماء الصباح الصافي، عندما جلس جوي الذي رأى كل هذه المراجل أمام منضدة الطعام، ووُضِع أمامه الوعاء الممتلئ بالعصيدة، شعر بالشبع التام حتى قبل أن يتذوقها، فأخذ يجفف عرقه والشعور بالخجل الذي يسيطر عليه. عندها قال له أريهيتو:

"سمعت أنك لم تتناول كفايتك من العصيدة، تفضل وتناولها بدون حرج".

وأمر الفتيان أن يجلبوا المزيد من الأطباق المليئة عن آخرها بالعصيدة، اغترف جوي نصف طبق فقط وقد ازدادت أنفه احمرارًا على احمرارها المعتاد، عندها قال توشيهيتو:

"كما قال لك والدي؛ إنه لمن المضيعة ألا تتناول المزيد".

وقدّم له طبقًا آخرًا من العصيدة وهو يضحك في خبث، شعر جوي بالضعف؛ فهو من البداية لم يكن يرغب في تناول طبق واحد، ولكن لم يسعه سوى أن يتناول نصف طبق فقط عندها وقع في حيرة، فقد شعر أنه سيتقيأ إذا ما

تناول المزيد، ولكنّه إذا لم يتناول المزيد سيغضب توشيهيتو وأريهيتو، وسيكون تصرفه غير لائق إزاء لطفهما تجاهه، أغمض عينيه وتناول نحو ثلث ماتبقى في الوعاء، ولم يعد باستطاعته أن يغترف غرفة واحدة بعد ذلك.

قال جوي: "كم أنا ممتن لكما لقد تناولت الكثير، شكرًا جزيلا".

قالها وقد تساقطت قطرات العرق المتكونة على شاربه وعلى طرف أنفه بشكل لا يوحي بأنه الشتاء؛ فقال أريهيتو:

"ما أقل أكلك، يبدو أنك خجول بعض الشيء، أنتم أيها الفتية ماذا تفعلون؟".

وأمرهم أن يجلبوا المزيد من العصيدة من الأوعية الفخارية، وهمّ الفتية أن يغرفوا المزيد من العصيدة أمام جوي، ولكنه أشار بكلتا يديه وكأنه يبعد ذبابة من أمام وجهه مُعربًا عن عدم رغبته في تناول المزيد.

"أرجوكم لقد اكتفيت، إنني حقًا آسف لوقاحتي ولكنني اكتفيت حقا".

ولو لم يقم توشيهيتو في ذلك الوقت بالإشارة إلى المنزل المجاور قائلا:

"انظروا هناك".

لكان أريهيتو قد استمر في الإلحاح على جوي لتناول المزيد من العصيدة، ولكن ولحسن حظ جوي، فقد اجتذب صوت توشيهيتو انتباه الجميع، كانت شمس الصباح تلقى بسناها على السقف المصنوع من أشجار السرو، وكان هناك حيوان جاثم على سطح المنزل في سكون وفراؤه

الناعم متعرض لضوء الشمس المبهرة، وبتدقيق النظر اتضح أنه ثعلب ساكاموتو الذي أمسكه توشيهيتو في الحقول اليابسة قبل يومين.

فقال توشيهيتو: "لقد جاء الثعلب راغبًا في بعض العصيدة، يا رجال أعطوه حصة من الطعام".

ذهب الرجال ليطيعوا أمر توشيهيتو، وهبط الثعلب من على سطح المنزل وأخذ في التهام "عصيدة البطاطا".

راقب جوي الثعلب وهو يتناول العصيدة، واستعاد ذكرياته قبل أن يجيء إلى هذا المكان، ذكريات تعرضه للسخرية من قبل جميع المحاربين، وتعرّضه للإهانة من قبل فتية كيوتو عندما صاحوا به:

"ما خطبك يا أحمر الأنف".

وأنه كان بائسًا وحيدًا يرتدي ثوبًا حريريًا باهت اللون، ويتقلد سيفًا عديم القيمة، ويعيش بلا هدف في جادة سوجاكو مثل كلب طرده صاحبه، ولكنه احتفظ بذكرى تناول العصيدة حتى الشبع بكل حرص، كان سعيدًا بذلك، ومع اطمئنانه أنه ليس بحاجة لتناول المزيد من العصيدة جفت قطرات العرق التي كانت تتساقط من على طرف أنفه، وكانت الرياح الباردة تهب في تسوروجا على الرغم من أن الجو كان صحوًا، فأمسك جوي بأنفه في فزع وأطلق عطسة مدوية في اتجاه الوعاء الفضي.

obeikandl.com

الخريــف

كانت نوبوكو فتاة جميلة موهوبة تلقت تعليمًا متميزًا حيث كانت تدرس في جامعة للفتايات في سن مبكر حتى إنها أتمت كتابة قصص ذاتية تتجاوز الثلاثمائة صفحة قبل تخرجها من الجامعة، كانت تلك القصص مثار حديث الجميع، ولكنها عندما تخرجت من الجامعة وجدت أن ظروف عائلتها لا تسمح لها بأن تطور موهبتها في الاتجاه الذي رغبته؛ لأن والدتها الأرملة قليلة الحيلة وهي العائل الوحيد لها ولأختها الصغيرة تِروكو. كانت تروكو لا تزال ترتاد المدرسة الثانوية للبنات، ولذلك كان يتعين على نوبوكو أن تجد شريك حياتها كما اقتضت العادات قبل أن تبدأ في كتابة القصص.

obeikandl.com

كان لنوبوكو ابن عم يدعى شون كيتشي، وكان في ذلك الحين لا يزال طالبًا بكلية الآداب، ولكنه كان يأمل في أن يصبح كاتبًا في المستقبل، وبما أن هناك صلة قرابة بينهما فقد عرفا بعضهما البعض منذ الصغر، وازدادت علاقتهما عمقًا بتناول الأحاديث عن الأدب، كانت نوبوكو معجبة بتولستوي الكاتب الروسي الشهير الذي ذاعت أعماله آنذاك، ولكن شون كيتشي كان يعارضها في ذلك، وكان دائمًا ما يتحدث بتهكم وسخرية عن الأدب الفرنسي، فكان سلوك شون كيتشي الساخر هذا كثيرًا ما يُغضب نوبوكو التي كانت تتسم بالجدية، ولكنها مع ذلك لم تستطع ألا تتأثر في أعماقها بتهكمه وعباراته الساخرة.

ولذلك لم يكن من النادر أن يذهبا سويًا إلى المعارض والحفلات الموسيقية عندما كانت لا تزال طالبة، وكانت تأخذ أختها الصغرى معها في أغلب الأحيان، كان ثلاثتهم يتحدثون ويضحكون بانطلاق في طريق ذهابهم وإيابهم، ولكنهم كانوا قليلا ما يشركون تروكو في حواراتهم، كانت تسلك سلوكًا طفوليًا بريئًا فتأخذ في التطلع إلى نوافذ العرض التي عُرضت فيها المظلات والشيلان وأشياء أخرى، كانت تبدو عليها علامات الشعور بالظلم لإقصائهم لها من الحديث، وعندما كانت نوبوكو تلحظ هذا كان دائمًا ما تقوم بتغيير الموضوع وتعمل على إشراكها في الحديث، ولكنها هي نفسها كانت بها خصلة نسيان أختها إذا ما جذبها حديث معين من أحاديث شون كيتشي، وكان شون كيتشي يسير غير مكترث للناس من

حوله، يتكلم بحذاقة مُزينًا حديثه ببعض النكات والسخرية.

كان كل مَنْ يعلم بطبيعة علاقة نوبوكو وشون كيتشي يرون أنه من المؤكد أنه سيأتي اليوم الذي سيتزوجان فيه، وكانت زميلاتها في الجامعة يغرن منها ويحقدن عليها لمستقبلها المنتظر، وبرز هذا أكثر في اللاتي لم يكن يعرفن شيئًا عن طبع شون كيتشي. وكانت نوبوكو من جانب تحاول أن تنفي هذه التوقعات، ولكنها على الجانب الآخر كانت تتعمد أن ترسل إيحاءات تثبت ذلك؛ ولذلك كان زملاؤهم يرون أنهم سيتزوجون قريبًا، وكانت صورة زفافهما حاضرة في أذهانهم.

ولكن نوبوكو خالفت كل توقعاتهم؛ فقد تزوجت فجأة بشاب من عائلة تعمل بالتجارة كان قد تقرر أن يعمل في شركة تجارية في أوساكا، وبعد أيام قليلة من زواجهما توجه الزوجان إلى مكان عمله بأوساكا، وقال الذين رأوها بالمحطة المركزية أنها بدت سعيدة مبتهجة وكانت الابتسامة تعلو وجهها، كانت تواسي أختها الصغيرة تروكو التي امتلأت عيناها بالدموع.

استغرب جميع زملائها فقد خالط هذا الإحساس بالاستغراب إحساس بالسعادة وإحساس بالغيرة يختلف في جوهره عن الغيرة التي كانوا يشعرون بها من قبل، فكان بعضهم يثق بها فأعزى هذا التغيير إلى رغبة أمها، أما البعض ممَنْ انتابتهم الشكوك فقد كانوا يتحدثون بالسوء عنها، ولكنّ الجميع أجمع على أن ما قالوه لا يتجاوز مجرد

تخمينات، لماذا لم تتزوج من شون كيتشي؟ كان دائمًا ما يتطرقون إلى هذا الحديث عند تجمعهم، ولكنهم قد نسوا تمامًا أمر نوبوكو بعد شهرين تقريبًا، ونسوا معها بالطبع توقعاتهم بأن تكتب رواية طويلة.

أما نوبوكو فقد أسست بيتًا سعيدًا في ضاحية بالقرب من أوساكا، وكان منزلهم يقع في وسط غابة من أشجار الصنوبر يخيم عليها الهدوء فكانت تستمتع في هدوء حيوي بعبق الصنوبر وضوء الشمس في المنزل المكون من طابقين الذي قد استأجراه، وعندما كانت نوبوكو تشعر بالوحدة في الظهيرة كانت أحيانًا ما تغرق في التفكير بلا سبب، وعندما كان يساورها هذا الشعور كانت تفتح صندوق الخياطة الخاص بها وتأخذ من قاعة ورق خطابات مشمشي اللون كان مكتوبًا في أحدها ما يلي:

"عندما أدرك أنني لا أستطيع التواجد معكِ اليوم وحتى وأنا أكتب هذا الخطاب، لا أستطيع أن أمنع دموعي من النزول على خدي، أختي العزيزة أرجوك منكِ أن تسامحيني، إنكِ يا أختي قد كنتِ ضحية لي ولم أعرف كم كنتِ أختًا صالحة.

أعرف يا أختي العزيزة أنكِ تسرعتي في الزواج لأجل مصلحتي إنني أعرف ذلك جيدًا حتى وإن أنكرته، هل تذكرين عندما كنا في زيارة للمسرح الإمبراطوري منذ ليال عدّة وسألتني عما إذا كنت أحب شون كينتشي؟، وعندما أجبتك بالإيجاب طلبتي مني أن أتزوجه ووعدتني أنكِ ستفعلين كل ما بوسعكِ من أجلي. لا بد وأنكِ كنت قد

قرأتي الخطاب الذى كنتُ أنتوي أن أرسله إليه، كم شعرت بالعضب منكِ عندما فقدت هذا الخطاب، أرجوك منكِ أن تقبلي اعتذاري فقد أسأت الظن بكِ حتى إنني أخذت كلماتك الطيبة ذلك المساء على أنها نوع من السخرية أن أنسى أن الكلمات لم تسعفني في الرد عليكِ، وبعد أيام عندما علمتُ بقرارك أنكِ ستتزوجين من رجل آخر شعرت بالخزي لدرجة أنني تمنيتُ الموت. أنا أعرف جيدًا أنكِ تحبين شون كيتشي ـ لا تخفي هذا ـ فأنا أعرف ذلك جيدًا، ولو لم تكوني تكترثين لأمري لابد وأنكِ كنتِ ستتزوجين منه، وعلى الرغم من حبكِ له فقد كررتي لي مرارًا أنكِ لا تهتمين لأمره. وفي النهاية تزوجتي من شخص لا تحبينه ـ يا أختي الغالية ـ هل تذكرين عندما ذهبتُ لتوديعكِ عند رحيلك إلى أوساكا ممسكة في يدي بدجاجتي؟ أردت أن أشعر أنه حتى الدجاجة التي أربيها تشاركني في طلب العفو منكِ، وعندها بكت والدتنا التي لا تعرف عن الأمر شيئـًا، وبحلول الغد ستكونين قد وصلتِ إلى أوساكا، ولكن يا أختي رجاءً لا تهجريني إنني أبكي كل صباح دون أن يلحظني أحدٌ عندما أتذكركِ وأنا أطعم دجاجتي".

سقطت الدموع من عين نوبوكو عندما قرأت خطاب أختها الصغيرة خاصة عندما تذكرت منظر أختها وهي تعطيها هذا الخطاب عندما كانت على وشك الصعود إلى القطار في المحطة المركزية، هل كان زواجها حقـًا تضحية خالصة كما تخيلت تروكو؟ وزاد شعورها بالشك حيال هذا الأمر من الإحساس بالعبء عليها ـ تساقطت دموعها ـ

ولكي تتجنب هذا العبء أخذت تبحث عن شيء مبهج فمضت تنظر إلى أشعة الشمس المنعكسة على جانب من غابة الصنوبر والتى أخذت تتحول تدريجيًا إلى لون الشفق المصفر.

(٢)

قضى الزوجان ثلاثة أشهر في سعادة مثل كل المتزوجين حديثًا، حيث كان يحرص زوجها على أن يقضي معها عدة ساعات بعد طعام العشاء كل يوم بعد عودته من عمله، وكانت نوبوكو تحدثه عن الروايات والمسرحيات التي ذاعت في الآونة الأخيرة وهي تحرك إبر الخياطة في يديها، وفي بعض الأحيان كانت تتطرق إلى الحديث عن الفلسفة المسيحية في النظرة للحياة بصفتها فتاة درست في جامعة للفتايات، فكان زوجها ينصت إلى حديثها مُظهرًا اهتمامًا بالغًا وخده أحمر من احتساء الخمر بعد طعام العشاء وعلى ركبتيه الجريدة المسائية التي لم ينتهِ من قراءتها إلا أنه لم يشارك برأيه ولو حتى بكلمة واحدة.

كانوا يذهبان كل أحد لقضاء يوم مريح خال من التوتر في أحد مناطق الترفيه والتسلية بأوساكا أو المنَّاطق المحيطة بها، وكانت نوبوكو أثناء ركوبها للقطار ترى أن أهل

الـغرب (كانساي) أناس هـمج؛ لأنهم كانوا لا يترددون في تناول الطعام والشراب في أي مكان، وكانت تشعر بالسعادة لأن زوجها هادئ راقي الطبع بشكل مميز، مهندم يبدو عليه ملامح الوقار والاحترام، تستطيع أن تميزه من الجموع بقبعته، وببدلته الأنيقة، وبحذائه اللامع، وبرائحته التي تشبه الصابونة العطرة، وبمظهره المنعش. وفي أحـد الأيام خلال عطلة الصيف ذهبوا في رحلة إلى شاطئ مايكو فشعرت نوبوكو بالفخر بزوجها؛ فقد كان العديد من زملائه في العمل هناك، ولم تستطع أن تمنع نفسها من مقارنته بالآخرين لأنه كان أكثر رفعة منهم إلا أنه قد عاملهم بلطف غير عادي.

عندها تذكرت نوبوكو رغبتها القديمة في أن تصبح كاتبة، وقررت أن تقضي نحو ساعة أو ساعتين على مكتبها أثناء غياب زوجها عندما سمع زوجها بهذا ابتسم ولاطفها قائلا لها:

"أخيرًا ستصبحين كاتبة".

ولكن بطريقة ما أو بأخرى لم يتحرك قلمها بحرية عندما كانت تجلس إلى مكتبها، ومع أنها كانت تجلس إلى مكتبها إلا أن الإلهام لم يتدفق إليها كما كانت تتوقع، عندها كانت تسند خدها إلى يدها، وكانت كثيرًا ما تجد نفسها تصغي دون قصد إلى صوت الزيزان في غابة الصنوبر الحارقة.

انتهى الصيف وهلت بشائر الخريف، كان زوج نوبوكو يبحث عن ياقة نظيفة يرتديها قبل خروجه إلى العمل، ولسوء الحظ كانت جميع قمصانه في المغسلة فبدت عليه

علامات الاستياء حيث إنـّه كان كثيرًا ما يجد ملابسًا نظيفة، قال لها ساخرًا على غير عادته وهو يرتدي بنطاله:

"يبدو أنّ قضاء وقتك كله في كتابة القصص سيوقعني في المشاكل".

صمتت نوبوكو مخفية عينيها واستمرت في إزالة الغبار عن ملابسه.

بعد عدّة أيام كان قد قرأ في جريدة المساء موضوعـًا عن نقص الغذاء فسألها إذا ما كانوا يستطيعون أن يقتصدوا في نفقاتهم قليلا.

فقال لها: "أتعلمين! أنك لست طالبة الآن".

تفوه بمثل هذه الكلمات السخيفة، أجابته بلا تركيز فقد كانت تعد له ربطة عنق جديدة، فإذا بزوجها يلح في السؤال بشكل غير معتاد قائلا:

"حتى رابطة العنق هذه، ألم يكن من الأرخص أن نشتريها جاهزة؟".

وثانية لم تجبه، في النهاية التقط مجلة تجارية تبدو مملة وأخذ يقرأ فيها وعلامات الاستياء بادية على وجهه ثم أطفأت نوبوكو ضوء غرفة النوم وأدارت ظهرها إلى زوجها وتمتمت قائلة:

"لن أكتب قصصًا أو ما شابه ذلك بعد الآن".

عندها صمت زوجها، وبعد وهلة كررت كلماتها بصوت خافت وأخذت في البكاء فنهرها زوجها بعدة كلمات، ولكن صوت بكائها كان لا يزال مسموعـًا، وفي لحظة وجدت نفسها تحتضنه بقوة.

وفي صباح اليوم التالي عاد الزوجان المتحابان إلى سابق عهدهما، وفي مساء أحد الأيام مرّ عليه نحو اثنتا وعشرون ساعة دون أن يعود من عمله، ولما عاد كانت رائحة الخمر تفوح منه لدرجة أنه لم يكن يستطيع أن يخلع معطف المطر الذي كان يرتديه بنفسه، وكانت نوبوكو مستاءة ولكنها تحاملت على نفسها وساعدته في تغيير ملابسه فلم يكترث زوجها بهذا وأخذ يسخر منها قائلا لها:

"لو لم أكن قد عدّت الليلة لكنت قد استمريتي في كتابة القصص".

كرر هذه الكلمات كثيرًا وكان يقولها بصوت نسائي، خلدت نوبوكو إلى النوم بعد هذا الموقف الحزين ودموعها تنهمر على خديها، وكانت كثيرًا ما تفكر كيف كانت أختها ستشعر إذا ما حضرت أحد هذه المواقف؟. وكم كانت ستتعاطف معها في وضعها هذا، لم تكن تفكر سوى في تروكو فكانت كثيرًا ما تناديها عندما يعود زوجها في هذه الحالة.

"تروكو، إنك أنت الوحيدة التى يمكنني الاعتماد عليها".

كانت رائحة أنفاسه كريهة من جراء احتسائه للخمر، فظلت تتقلب في فراشها وكثيرًا ما كان النوم يجافيها، وكانا دائمًا ما يعودان إلى علاقتهما الطيبة في الصباح.

تكرر هذا الموقف مرارًا وتكرارًا حتى انتصف الخريف، وكانت نوبوكو نادرًا ما تجلس على مكتبها لتأليف القصص، وأصبح من النادر أن تتحدث مع زوجها عن

الأعمال الأدبية، فكانا يتحدثان فقط في مواضيع مملة مثل الاقتصاد في مصاريف المنزل وهما جالسان أمام المدفئة، وتدريجيًا بدأت ترى أن هذا هو الموضوع الوحيد الذي يشغل زوجها دائمًا، وبعد تناول طعام العشاء كانت نوبوكو تنظر إلى زوجها بحسرة وخيبة أمل، وعلى الجانب الآخر لم يلحظ زوجها حالتها هذه فكان يعض على طرف شاربه وهو يتحدث. في بعض الأحيان كان يداعبها قائلا:

"ما رأيك في أن ننجب طفلا؟".

ثم أصبحت ترى اسم ابن عمها شون كيتشي كل شهر في المجلات فقد عرفت من أختها في خطاب أرسلته إليها أنه قد أنشأ مجلة بعد تخرجه من كلية الآداب بالجامعة، ولكنها لم تكن تشعر بأنها تريد أن تعرف المزيد عن أخباره إلا أنها عندما كانت ترى قصصه في المجلات كانت تشعر بنفس الحنين القديم إليه، فكانت تبتسم وحدها وهي تقلب صفحات قصصه حيث كان يستعمل سلاحي السخرية والدعابة في قصصه مثل ما كان ميلموتو موساشي يستعمل سلاحه، ولكنها كانت تشعر بأن شعور البؤس يختبيء خلف أسلوبه الساخر هذا، شعور لم يكن ظاهرًا في كتاباته من قبل ربما كان وعيها هو الذي جعلها تتنبه لهذا التغير في اتجاهه في التعبير.

منذ ذلك الحين أصبحت نوبوكو تعامل زوجها بطريقة أكثر لطفًا ولاحظ زوجها الابتسامة المبهجة على وجهها وهي تجلس في مواجهة المدفئة في الليل البارد فبدت أكثر شبابًا من ذي قبل، وكانت دائمًا ما تضع مساحيق التجميل

وتتحدث عن ذكريات زفافهما في طوكيو، كان زوجها يسعد سعادة غامرة عندما يراها تسرد مثل هذه التفاصيل الصغيرة عن ذكرياتهما ويقول لها:

"إني أتعجب من أنك تذكرين حتى أدق التفاصيل".

فكانت دائمًا ما تجيبة بنظرة رقيقة دون أن تتفوه بكلمة واحدة؛ لأنها هي نفسها تتعجب من ذكرها لكل هذه التفاصيل.

بعد فترة وجيزة من الزمن علمت من خطاب بعثته لها والدتها أن أختها الصغيرة قد تمت خطبتها، وذكرت لها في هذا الخطاب أيضًا أن شون كيتشي يُعد منزلا جديدًا في ضاحية من ضواحي ياما نو تي لاستقبال تروكو فأسرعت نوبوكو في الحال تكتب لأمها وأختها خطابًا لتهنئهما قائلة فيه:

"إني أجلس هنا بلا حيلة، كم أنا آسفة لأنني لا أستطيع المجيء إلى طوكيو لحضور زفاف تروكو".

واجهت نوبوكو صعوبة في كتابة الخطاب ولم تعرف ما السبب وراء ذلك ورفعت عينيها وأخذت تحدق في غابة الصنوبر بالخارج حيث كانت أشجار الصنوبر تبدو كثيفة خضراء تحت سماء أوائل الشتاء.

وفي هذه الليلة تحدثت نوبوكو مع زوجها عن زفاف تروكو، كعادته استمع إلى كلامها بابتسامة خفيفة، كم كان مسليًا بالنسبة له رؤية نوبوكو وهي تقلد طريقة كلام أختها، لكن انتابها شعور أنها تحدث نفسها، فبعد أن استمع إليها نحو ساعتين أو ثلاث ساعات قام من جوار

المدفئة وتلمس شاربه وقال لها: "لنخلد إلى النوم يا عزيزتي". فجلست نوبوكو وحدها تفكر في هدية الزفاف الملائمة لأختها، وإذا بها ترفع رأسها فجأة وتحدث نفسها:

"ولكن الغريب في الأمر أنه سيكون لي صهر، أليس هذا أمر بديهي بما أنّ لي أختـًا؟".

عندما حدثت نوبوكو زوجها بهذا الأمر بدا على عينيه أنه يفكر تفكيرًا عميقـًا ولكنه كعادته لم يجبها.

وبعد عدّة أيام أقام شون كيتشي وتروكو حفل زفافهما في منتصف شهر ديسمبر وفي ذلك اليوم وقبل الظهيرة بقليل تساقطت الثلوج على أوساكا، وتناولت نوبوكو طعام الغذاء بمفردها، فلم تفارق رائحة السمك الذي تناولته فمها.

فقالت نوبوكو لنفسها: "أتساءل إذا ما كانت تثلج في طوكيو أيضًا؟".

أخذت تفكر لوهلة وهي تسند يديها إلى مدفئة غرفة المعيشة، وبدأت الثلوج في التساقط بكثافة أكبر، وظلت رائحة السمك عالقة في فمها.

(٣)

في خريف العام التالي نـُقل زوجها بقرار من الشركة إلى طوكيو، ووطأت أقدام نوبوكو أرض طوكيو مرة أخرى بعد طول غياب إلا أن زوجها انشغل بعمله كثيرًا ولم يجد فرصة ليخرج مع زوجته سوى للذهاب إلى منزل والدتها

في بعض الأحيان حتى عندما ذهبت لزيارة أختها وزوجها ذهبت وحيدة إلى المدينة التي أسست حديثا فأخذت القطار حتى المحطة الأخيرة ثم أخذت عربة بمفردها أيضًا إلى بيت أختها.

كان منزلهما يقع بالقرب من حقل بصل، وكانت المنازل حديثة البناء تصتف جنبًا إلى جنب وكان لجميع المنازل أسوارٌ من أشجار مزهرة ومنظر الملابس المنشورة على حبل الغسيل مشتركًا بين كل المنازل فخيب منظر هذه المنازل العادي أمل نوبوكو بعض الشيء، عندما طرقت الباب فتح لها ابن عمها، أصدر صوتًا مبهجًا كما كان قد اعتاد في الماضي وعندما رأى وجه ضيفته الذي لم يره من زمن بعيد، ولاحظت تغييرًا في مظهره فلم يعد شعره قصيرًا كما كان، قالت نوبوكو:

"لم أرك منذ زمن طويل".

وأجابها شون كيتشي:

"تفضلي بالدخول، ولكن للأسف أنا بمفردي".

فقالت نوبوكو: "ماذا عن تروكو، أليست بالمنزل؟".

فرد عليها شون كيتشي: "لا، لقد ذهبت إلى التسوق، والخادمة أيضا".

شعرت نوبوكو بحرج بشكل غريب، وخلعت معطفها الزاهي في مدخل البيت ثم أجلسها في غرفة الضيوف التي كانت هي نفسها غرفة المكتب حيثما أدرات عينيها كانت ترى أكوامًا من الكتب المبعثرة في كل مكان، كما لفت نظرها منظر الجرائد والمجلات والأوراق التي كان يستخدمها

للكتابة المبعثرة على مكتبه المصنوع من خشب الورد والموضوع بجوار الباب المنزلق حيث تعرض لضوء الشمس ومن بين هذه الأشياء كان الشيء الذي يُوحي بوجود أختها هو آلة الكوتو[1] خاصتها والتي كانت مسنودة على الحائط وأخذت تدير عينيها في المكان بفضول.

قال شون كيتشي: "على الرغم من أننا كنا نعلم بخبر قدومك من خطابك إلا أنني لم أتوقع مجيئك اليوم".

قالها وهو يشعل سيجارته ونظرة الاشتياق بادية في عينيه.

"كيف هي الحياة في أوساكا؟".

"بل كيف حالك أنتِ؟ وهل أنتِ سعيدة هناك؟"

أخذا يتجاذبا أطراف الحديث فأدركت نوبوكو عندها أن شعورها القديم بالاشتياق قد عاد إليها مرة أخرى مع أنها كانت قد تمكنت من نسيان مشاعرها تجاهه خلال السنتين الماضيتين؛ لأنها لم تتواصل معه طوال تلك الفترة الماضية.

جلسا أمام المدفئة يدفئان يديهما ويتجاذبان شتى أنواع الحديث، تحدثوا عن القصص التي ألفها، وعن شائعات عن أصدقائهما المشتركين، يقارنون بين الحياة في طوكيو والحياة في أوساكا، ولكنهما لم يتحدثا على الإطلاق عن ظروف حياتهما العائلية الخاصة مما جعلها تشعر بارتياح كبير مكنها من الحديث معه بحرية.

في بعض الأحيان كان الصمت يسيطر على الأجواء،

---

(1) آلة وترية.

وكانت عندها تبتسم وتوجه عينيها نحو رماد المدفئة، كان بداخلها توقع فهي تنتظر شيئًا ما، ولكن شون كيتشي كان يضع حدًا لهذا التوقع بأن يجد موضوعًا -عن قصد أو بدون قصد- ليتحدثا فيه فلم تستطع أن تكبح جماح نفسها وتتوقف عن التحديق به، أما هو فلم يبدُ عليه أي شيء غير معتاد واستمر في نفث دخان السجائر في هدوء.

وفي تلك الأثناء عادت تروكو إلى المنزل وغمرتها السعادة والبهجة عندما رأت وجه أختها الكبرى، أما نوبوكو فقد ابتسمت شفتاها بينما دمعت عيناها ونسيا الاثنان شون كيتشي لفترة وأخذت كل منهما تسأل الأخرى عن حياتها في العام المنصرم، تلونت وجنتي تروكو بلون الدم الذي تدفق إليهما، ولم تنسَ أن تحدث أختها حتى عن الدجاجات التي مازالت تربيها حتى اليوم، أخذ شون كيتشي يراقبهما ضاحكًا والرضا يبدو على وجهه وهو يشرب السجائر.

بعدها عادت الخادمة فأسرع شون كيتشي في التقاط البطاقات البريدية التي كانت تحملها وتوجه إلى مكتبه وبدأ على الفور في تحريك قلمه. بدا على تروكو الضيق من أن الخادمة كانت غير متواجدة أيضًا عندما أتت نوبوكو وقالت لأختها:

"إذن لم يكن أحد بالمنزل عندما وصلت؟".

فأجابت نوبوكو: "نعم كان شون بمفرده في المنزل".

حاولت تروكو أن تبدو طبيعية على قدر الإمكان، عندها نظر إليهما شون كيتشي قائلا:

"فلتشكري زوجك العزيز، حتى إنني قد أعددت الشاي بنفسي"

نظرت نوبوكو وتروكو إلى بعضهما البعض وضحكتا في خبث ولكن الزوج تعمد عدم إظهار أي رد فعل.

بعد قليل جلست نوبوكو إلى منضدة العشاء مع أختها وزوجها وأخذت تروكو توضح أن كل البيض الموضوع على مائدة الطعام هو من الدجاجات التي تربيها بالمنزل، وأخذ شون كيتشي يصب لنوبوكو نبيذ العنب وهو يقول:

"ألا ترون أن حياة الإنسان مبنية على السلب والنهب؟ بداية من هذا البيض ووصولا إلى..."

ثم أخذ يسرد بعض النظريات الاجتماعية متناسيًا أنه أكثر الذين يحبون البيض من بينهم هم الثلاثة، عندها ضحكت تروكو بصوت طفولي وهي تعرب عن استغرابها من الموقف، وفي وسط أجواء العشاء هذه لم تستطع نوبوكو ألا تتذكر الليالي التي قضتها وحيدة في غرفة المعيشة وسط غابة الصنوبر. استمروا في الحديث حتى نفدت الفاكهة المقدمة بعد تناول طعام العشاء، استلقى شون كيتشي الذي كان قد أفرط في احتساء الخمر بعض الشيء تحت المصباح، وأخذ يسرد بعضًا من قصصه الساخرة فأثار هذا الحديث نوبوكو وقالت والحماس يملأ عينيها:

"كم أرغب في أن أكتب أنا الأخرى قصصًا خاصة بي".

وبدلا من أن يجيبها ابن عمها بنفسه استعار كلمات الناقد الفرنسي جورمنت التي تقول: "لقد كانت الآلهة اليونانية المختصة بالشعر والآداب جميعًا إناثًا، ولذلك فإنّ

الرجال وحدهم هم الذين يستطيعون الإمساك بهن". عارضته كل من نوبوكو وتروكو غير معترفين بنظرية جورمنت.

"إذا فقد كانت الآلهة المختصة بالشعر كلها إناثاً؟ ألم يكن أبولو ذكرًا؟".

قالتها تروكو معارضة بكل جدية، ثم أخذوا يتحدثون حتى انقضى الليل وتقرر أن تبيت نوبوكو عندهم هذه الليلة.

قبل النوم فتح شون كيتشي باب الشرفة المنزلق وخرج إلى الحديقة الضيقة مرتديًا ثياب النوم ثم قال بصوت مرتفع ليس بقصد أن ينادي على أحدهم بالتحديد:

"تعالوا انظروا إلى القمر البديع".

وضعت نوبوكو قدميها العاريتين في خف مخصص للحديقة وتبعته فشعرت حينئذ ببرودة الندى البارد على قدميها العاريتين.

بدا القمر عالقًا على أطراف شجر السرو الياباني النحيل في جانب الحديقة ووقف شون كيتشي تحت أشجار السرو يتأمل سماء الليل خافتة الإضاءة.

"ألا ترى معي أن العشي شديد الكثافة؟".

قالتها نوبوكو وهي تتقدم نحوه تدريجيًا مستاءة من منظر

الحديقة الذابلة، ولكنه لم يعر كلماتها أي اهتمام واكتفى بالتحديق في السماء متمتمًا:

"يبدو أنها ليلة الثالث عشر".

وبعد أن ساد الصمت لوهلة نظر شون كيتشي إلى نوبوكو بهدوء قائلا:

"أتودين الذهاب لرؤية حظيرة الدجاج؟".

أومأت نوبوكو بالإيجاب في صمت، كانت الحظيرة تقع في الجانب المقابل لأشجار السرو، سارا على مهل جنبًا إلى جنب حتى وصلا إليها، ولكن كل ما استطاعوا تمييزه من بين وسائد القش هو انعكاسات لضوء خافت وظلال تملؤها رائحة الدجاج، نظر شون كيتشي إلى حظيرة الدجاج بتمعن ثم همس لنوبوكو بصوت منخفض وكأنه يحادث نفسه:

"إنهم نائمون".

لم تستطع نوبوكو وهي واقفة وسط العشب ألا تفكر في أنهن دجاجات سُلب بيضهن بيد البشر، عندما عاد الإثنان من الحديقة وجدا تروكو تحدق في ضوء المصباح وهي شاردة، ذلك المصباح الذي كانت بقة فراش واحدة تزحف بداخله.

في صباح اليوم التالي وبعد طعام الإفطار ارتدى شون كيتشي حلته الوحيدة وتوجه نحو مدخل المنزل قائلا:

"حسنًا، سأعود بحلول الظهيرة قطعًا، ستكونين هنا يا نوبوكو أليس كذلك؟".

قالها مؤكدًا على نوبوكو أن تتواجد عند عودته وهو يرتدي معطفه، ابتسمت نوبوكو في صمت وهي تحمل قبعته في يديها الرقيقتين.

بعد أن ودعت تروكو زوجها جلست مع أختها أمام

المدفئة يحتسيان الشاي، كان لديها الكثير مما لم تقصه على أختها بعد، حكايات عن جارتهما التي كانت صحفية في إحدى المجلات، وعن المسرحية التي ذهبت مع شون كيتشي لرؤيتها، ومواضيع شيقة عديدة أخرى، ولكن نوبوكو كانت قد تملكتها حالة من الاكتئاب، حاولت أن تخرج من تلك الحالة ولكنها في النهاية وجدت نفسها تجيب أختها وهي شاردة الذهن لاحظت تروكو حال أختها فسألتها بقلق وهي تنظر إلى وجهها قائلة لها:

"ما بالك ياأختي؟".

ولكن نوبوكو نفسها لم تكن تعلم ما بها.

عندما أصبحت الساعة العاشرة رفعت نوبوكو رأسها في ثقل قائلة:

"ألا ترين معي أن شون كيتشي لم يأتِ حتى الآن؟".

عندها التفتت تروكو إلى الساعة وأجابتها ببرود غير متوقع:

"ليس بعد".

شعرت نوبوكو في إجابتها بعشق الزوجة حديثة العهد بالزواج لزوجها، عندها وبدون أن تقصد وجدت نفسها تسقط في حالة من الاكتئاب الشديد.

"كم أنت سعيدة يا تروكو".

قالتها ممازحة أختها خافضة رأسها، لم تعلم ماذا تفعل بشعور الغيرة الجاد الذي تسلل إلى قلبها، ولكن تروكو ابتسمت في براءة قائلة لها:

"تذكري أن هذه هي حالكِ أنتِ كذلك".

متظاهرة أنها تحاول التحديق بها.

"ألست سعيدة أنت الأخرى يا أختاه؟".

كلمات ألقتها تروكو دون أن تعي خطورتها ولكنها صدمت نوبوكو صدمة قوية فرفعت جفونها وأجابتها:

"أتعتقدين هذا؟".

وقبل فوات اللحظة التي تفوهت فيها بهذه الكلمات كانت قد ندمت عليها، وتغيرت تعبيرات وجه تروكو وحدقت بوجه أختها التي كانت علامات الندم بادية عليها، تحاملت نوبوكو على نفسها وتبسمت قائلة:

"أنا سعيدة لمجرد أنك تعتقدين ذلك".

خيم الصمت عليهما لدرجة أن كل ما كان يُسمع في الغرفة هو صوت غليان الماء في البراد الموضوع على المدفئة وصوت دقات الساعة.

كسرت تروكو حاجز الصمت قائلة بصوت منخفض مترددة:

"ولكن زوجك طيب القلب، أليس كذلك؟".

كان صوتها مليئـًا بإحساس التعاطف والأسى، وأثارت هذه الكلمات الشعور بالأسى في قلب نوبوكو التي لم تجبها بكلمة واكتفت بوضع صحيفة على ركبتيها وأخذت تتصفحها، وجدت بها بعض المقالات عن أسعار الأرز كما كان الحال في صحف أوساكا.

وفجأة سُمع صوت نحيب في غرفة المعيشة التي خيم عليها الهدوء حتى وقتها، صرفت نوبوكو نظرها عن الصحيفة فرأت أختها عند المدفئة تغطي وجـهها بأكـمامها،

فقالت لها:

"أرجوكِ لا يوجد سبب للبكاء".

ولكنّ تروكو لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء بسهولة، شعرت نوبوكو بنشوة متوحشة وهي تحدق لوهلة في كتفي أختها المرتعشين واستمرت في الحديث بصوت منخفض "سأعتذر لكِ يا أختي إذا كنتُ قد أشعرتك بسوء بدون قصد مني، إنه ليسعدني أكثر من أي شيء أن تكوني سعيدة، نعم حقـًا صدقيني، خاصة إذا كان شون يحبك".

تأثرت نوبوكو نفسها بكلماتها وبدأت تشعر بالأسى، رفعت تروكو وجهها الذي أغرقته الدموع، لم تكن النظرة التي في عينيها نظرة حزن أو غضب، ولكن بدا عليها وكأن إحساسًا بالغيرة يحترق داخل مقلتيها.

"إذا لماذا؟ لماذا قمت البارحة؟".

وقبل أن تكمل حديثها خبأت تروكو وجهها بأكمامها وانخرطت في نوبة من البكاء الهستيري.

بعد نحو ساعتين أو ثلاث كانت نوبوكو تهتز في عربة مسرعةً إلى محطة القطار فأمكنها أن ترى مجموعة من المنازل تمضي واحدة تلو الأخرى من النافذة المربعة الصغيرة بينما كانت العربة تتقدم ماضية في طريقها وكان الشيء الوحيد الذي لا يزال ثابتـًا أمامها هو سماء الخريف الباردة الملبدة بالغيوم.

كان قلب نوبوكو مستكينـًا، ولكن خلف تلك الاستكانة كان يقبع شعور بالوحدة، وكانت الأختان قد تصالحتا وعادت المشاعر الطيبة بينهما إلى طبيعتها بعد أن

انتهت تروكو من نوبة البكاء التي انتابتها، ولكن واقع أنهما تشاجرتا لم يفارق بالها، عندما أجلست نفسها في العربة دون أن تنتظر عودة ابن عمها كان قد انتابها شعور بأن العلاقة بينها وبين أختها أصبحت كالعلاقة بين الغرباء، عندها سيطر على قلبها شعور بالبرودة والوحدة.

رفعت عينيها فجأة فإذا بها ترى من خلال نافذة العربة شون كيتشي يسير في الشارع المتسخ وفي يده عصا، خفق قلبها واحتارت فيما تفعل، أتوقف العربة؟ أم تمضي في طريقها؟ حاولت أن تسيطر على نبضها المتسارع تحت سقف العربة، وكانت مترددة بشدة، وفي غضون لحظات أخذت المسافة بينهما تتضاءل، فرأته يشق طريقه بين برك المياه الصغيرة تحت أشعة الشمس الرقيقة.

"شون".

أفلتت الكلمة من شفتيها، ففي الواقع كان شون كيتشي في تلك اللحظة قد ظهر بهيئته المعتادة بجوار العربة مباشرة إلا أنها ترددت ثانية، عندها تجاوز شون كيتشي العربة دون أن يلحظ شيئًا ثم رأت نوبوكو خلفها سماء الخريف وبعض المنازل المتناثرة هنا وهناك والفروع المصفرة لبعض الأشجار العالية، والوحدة التي تخيم على أطراف المدينة.

"إنه الخريف".

شعرت بوحدة الخريف بكل جوارحها وهي جالسة تحت سقف العربة البارد بعض الشيء.

مذكرة أوجاتا ريوساي

هذه هي شهادتي حول بعض المسيحيين الذين حاولوا خداع أعين الناس بأعمالهم السحرية

في اليوم السابع من الشهر الثالث من هذا العام جلبت شينو أرملة الفلاح يوساكو ابنتها ذات التسعة أعوام والتي تدعى ساتو وقد اشتد بها المرض، وطلبت مني أن أفحصها، كانت شينو هي ثالث بنات الفلاح سوبي، وظلت متزوجة من يوساكو لمدة عشرة أعوام، وبعد وفاة زوجها كسبت قوت يومها بالحياكة والعديد من الأعمال الأخرى.

وفي تلك الأحيان أصبحت شينو مهتمة بتعاليم الديانة المسيحية وكثيرًا ما كانت تزور الأب رودريجوز في القرية

obeikandl.com

المجاورة حتى ذاعت الشائعات بأنها كانت خليلته، وعلى الرغم من أنّ والدها وإخوتها قد قاموا بتحذيرها إلا أن شينو قد أصرت على أنه ليس هناك إله أفضل من إلهها حتى بوذا نفسه واستمرت شينو في عبادة إلهها، فكانت تقضي ليلها ونهارها أمام الصليب حتى إنها لم تعد تزر قبر زوجها، وتنكر لها أقرباؤها وناقش القرويون أمر نفيها.

وعلى هذا فقد رفضت طلبها ورحلت والدموع تملأ عينيها، وفي اليوم التالي الذي وافق الثامن من الشهر عادت مرة أخرى وتوسلت إليّ قائلة:

"أرجوك إنني لن أنسى لك هذا المعروف، من فضلك ألق نظرة على ابنتي".

سجدت في مدخل منزلي باكية:

"إني أعلم أنه من صميم عمل الطبيب أن يساعد الناس ويعالجهم، لا أفهم لماذا لا ترغب في أن تفحص ابنتي؟".

لذلك فقد وضحت لها الأمر قائلا لها:

"إنّ ما تقولينه صحيح، ولكن لدي سبب للرفض، لقد سمعتُ أنكِ تنتقدينا في عبادة آلهتنا التي نعرفها وتعتبريننا زنادقة تسيطر عليهم الشياطين، ينبغي عليكِ أن تسألي إلهك أن يشفي لكِ ابنتكِ، ويجب عليكي أولا أن تتركي عبادة إلهك إذا كنتِ تريدين مني أن أفحصها وإلا فإني أخشى العقاب من آلهتنا".

استمعت لي ثم رحلت في صمت.

وفي اليوم التاسع هطلت أمطار غزيرة من الفجر

وأصبحت القرية مهجورة، وقبيل الساعة السادسة عادت شينو كالفأر المبلل من الماء ولم يكن معها مظلة وتوسلت إليّ ثانية، أما أنا فقد صممت على رأيي قائلا:

"عليكي أن تختاري بين ابنتك أو إلهك، عليكي أن تتخلي عن أحدهما".

ضمت راحتيها وسجدت أمامي ثلاث مرات وترجتني كامرأة مجنونة قائلة لي:

"إنّ ما تقوله معقول ولكنني أعتقد أنّ روحي ستضيع للأبد إذا قمت بنبذ إلهي، أرجو منك أن تتحلى ببعض الشفقة تجاهي وساعدني هذه المرة فقط".

وبالرغم مما تفعله إلا أنّ حبها لابنتها لا يختلف عن حب أي أبوين لأبنائهما؛ لذا تعاطفت معها ولكنني كان لابد أن أحفظ مركزي في القرية، ولهذا فلن أستطيع أن أفحص ابنتها إلا إذا ما غيرت دينها.

وبعد أن استمعت إلى حججي المتكررة، حدقت شينو بي لوهلة ثم توقفت عن البكاء ووضعت يديها على الأرض متمتمة بشيء ما بصوت خافت لم أستطع أن أسمعه نتيجة لصوت المطر الغزير والرعد الموجود بالخارج، ولذلك اضطررت أن أطلب منها عدة مرات أن تكرر ما قالته، عندها قالت شينو إنها ستترك دينها فصممتُ على أن تقدم لي دليلا؛ لذا قمت بإخراج الصليب الذي كان في حضنها ووضعته على الأرض ودهسته ثلاث مرات ومع ذلك لم تظهر عليها علامات الحيرة وكانت دموعها قد جفت وكل ما فعلته هو أنها أخذت تحدق في الصليب لبضع لحظات.

وبعدما رضينا من ترك شينو لدينها حمل خادمي الدواء وأسرعنا إلى منزلها في المطر المتدفق الغزير، ووجدنا ابنتها ساتو ممدة في غرفة صغيرة، وتعاني من حمى شديدة فلم تكن على ما يرام، ثم ابتسمت واستمرت في تكرار كلمة "هللوليا" رافعة يديها وهي ترسم صليبًا في الهواء. جلست شينو عند رأس ابنتها وشرحت لنا أن قول كلمة "هللوليا" في دينها تماثل قول اسم "بوذا".

وبمجرد أن فحصْتُ ساتو حتى أدركت أنها تعاني من مرض التيفوس وعلى أغلب الظن أنها ستموت في اليوم نفسه وعندما أخبرت شينو بهذا أصابتها حالة من الجنون وقالت لي:

"إنّ السبب الوحيد الذي جعلني أترك ديانتي هو أن أنقذ حياة ابنتي، فما فائدة هذا إذا كنت سأخسرها الآن؟ أرجوك تفهم موقفي وحاول أن تنقذ ابنتي بأي طريقة".

وأخذت تنحني وتتوسل إليّ وإلى خادمي لننقذ حياة ابنتها من الموت، ولكن لم يكن بأيدينا أي شيء نفعله لإنقاذها، وأعطينا شينو دواءً عشبيًا لابنتها وكنا على وشك الرحيل حيث إنّ المطر قد توقف، وفجأة جذبتنا شينو من أكمامنا ولم تدعنا نرحل، حاولت أن تقول شيئًا ما ولكنها لم تستطع أن تتحدث وقد تغير لونها، فاعتنينا بها حتى تحسنت حالتها، انتحبت وبكت مرة أخرى قائلة: "كم كنت غبية أن أخسر كل من ابنتي وإلهي"، وفي النهاية لم تتحسن ابنتها لذا عدنا إلى المنزل.

وفي تمام الساعة الثانية ظهرًا ذهبت لأرى والدة

تسوكاجوشي يازاايمون سيد القرويين، أخبرني يازاايمون أنّ شينو قد جُن جنونها بعد وفاة ابنتها، وطبقًا لروايته فقد ماتت ابنتها بعد نحو ساعة من فحصي لها، ومنذ الساعة العاشرة والنصف احتضنت شينو ابنتها وأخذت تردد صلوات في لغة بربرية غريبة، شهد ذلك قرويون آخرون منهم موركاتا كاايمون، وتوجو وجي هيه.

وفي اليوم التالي الموافق العاشر من الشهر أمطرت السماء ودوى الرعد في الساعة التاسعة صباحًا، امتطيت الحصان الذي أرسله لي السيد ياناسى كين جورو- ساموراي القرية- وذهبت لأراه.

عندما اقتربت من منزل شينو اضطررت للتوقف مرارًا؛ لأن العديد من القرويين كانوا مجتمعين أمامي مرددين: "أباء" "مسيحيين"، نظرت داخل منزل شينو من خلال الباب المفتوح وأنا على ظهر الحصان ورأيت رجلا أصهب مع ثلاثة رجال يابانيين في ملابس سوداء يرددون كلمة: "هللوليا" في انسجام ممسكين بالصلبان والمباخر في أيديهم، كان الرجل الأصهب يمسك بشينو التي كانت على وشك الإغماء، وكانت -بشعرها الأشعث- تحتضن ابنتها بشدة، عندها حدثت المعجزة حيث مدّت الفتاة يديها الصغيرتين وأمسكت بعنق أمها ونادت عليها باسمها ثم قالت: "هللوليا" بصوتها الطفولي، لم أكن أرى جيدًا من حيث وقفت ولكن الفتاة بخديها المتوردين بدت على ما يرام، وكانت تمد يدها من حين إلى الآخر محاولة الإمساك بدخان المباخر.

سألت القرويين عن قصة الإحياء الواضح للفتاة، وشرحوا لي أنّ الأب الأصهب رودريجوز ومساعديه قد جاءوا إلى منزل شينو من القرية المجاورة واستمعوا إلى اعترافها وأقاموا الصلوات وأشعلوا البخور ونثروا الماء المقدس عليها وعلى ابنتها، وتدريجيًا هدأت شينو وعادت ابنتها للحياة.

منذ قديم الأزل لم تكن القصص حول عودة بعض الأشخاص إلى الحياة نادرة، وعادة ما كانوا يعودون للحياة بعد أن تتملكهم أرواح شريرة من الأنهار والجبال، وليس من حمى مثل حمى التيفوس؛ لذا فإنّ تأثير الطرق المسيحية كان واضحًا، فلا عجب أنّ الرعد قد دوى في سماء الربيع حينما وصل الأب والإخوة إلى القرية، ليظهر أن السماء كانت غاضبة من قدومهم.

انتقلت شينو وابنتها إلى القرية المجاورة ومعهم الأب رودريجوز، وبلغ تسوكاجوشي السلطات أن منزل شينو قد حرق بناء على تعليمات الراهب نيكان من معبد جي جن جي، لقد شهدت بما رأيته ومررت به، وإذا كنت نسيت شيئًا قسوف أقدمه فيما بعد مكتوبًا، وها أنا ذا أتقدم بشهادتي إليكم.

اليوم السادس والعشرين من الشهر الثالث من عام القرد

أوجاتا ريوساي

طبيب القرية

قطاع أوا مقاطعة أيو

خيط العنكبوت

ذات يوم من الأيام كان بوذا يسير على حافة بحيرة اللوتس في الجنة، كانت جميع زهرات اللوتس المتفتحة في البحيرة تبدو مثل البلورات، كانت ناصعة البياض، سديها بلون الذهب، تفوح منها رائحة عطرة لا تنقطع، رائحة عطرة تعجز عن وصفها الكلمات، كان ذلك في الصباح.

وقف بوذا على حافة البحيرة لبرهة، نظر إلى المنظر أسفل البحيرة من خلال أوراق اللوتس التي تغطي البحيرة، ولأن قاع الجحيم يقع مباشرة تحت بحيرة اللوتس هذه؛ فإنك تستطيع رؤية نهر سانزوي وجبل الأشواك

obeikandl.com

وكأنك تضع منظارا إذا ما نظرت من خلال مياة البحيرة النقية كالبلور.

استوقف بوذا منظرُ رجل يُدعى كان داتا يتقلب في قاع الجحيم وسط المذنبين، كان داتا هذا يقتل الناس، يشعل النيران في بيوتهم، كان سارقا خطيرا ارتكب العديد من الخطايا، ولكن بوذا تذكر له عملا خيرا واحدا كان قد قام به، وهو أنه ذات مرة من المرات كان يسير وسط غابة كثيفة فرأى عنكبوتا يزحف إلى طريقه، في هذه اللحظة رفع قدمه وهمَّ بدعسه، ولكنه غيَّر رأيه فجأة قائلا لنفسه: (على الرغم من صغر هذا الشئ فإنه مخلوق له روح وليس من الرحمة أن آخذ روحه بلا داع يذكر) وفي نهاية الأمر تراجع عن قتله بل وساعده.

تذكر بوذا هذه الواقعة وهو ينظر إلى كان داتا وهو يتعذب في قاع الجحيم، فكر وقتها أن ينقذه من الجحيم إذا استطاع، كمكافأة له لإنقاذه العنكبوت في وقت من الأوقات، ولحسن الحظ فقد رأى عنكبوتا من عناكب الجنة يقف على إحدى أوراق اللوتس الخضراء، غازلا خيطه الفضي، أخذ بوذا هذا الخيط ودلاه من بين زهرات اللوتس البلورية إلى قاع الجحيم البعيد.

مشهد من قاع بحيرة الدم بقاع الجحيم

كان كان داتا يطفو تارة ويغوص تارة في البحيرة مع بقية المذنبين، كان الظلام يسود المكان، أينما نظر لم ير إلا الظلام، وإذا ما بدت له بارقة الأمل في شيء يخترق الظلام الدامس، فإذا به يتنبه أن هذا ماهو إلا لمعان شوكة من جبل الأشواك، مما لم يترك له مجالا للشعور بالراحة، زد على ذلك أن الصمت كان يخيم على المكان، وأنه ما كان يخترق هذا الصمت شيء سوى أنين المذنبين، فالمذنب الذي وصل إلى هذا المكان من الجحيم لابد وأنه مر بمراحل عديدة من العذاب، مما لم يترك له أي طاقة حتى للصراخ، ولذلك كان كان داتا اللص القدير يتقلب في البحيرة كأنه ضفدع أشرف على الموت.

وفي وسط هذا الظلام، رفع رأسه إلى السماء فوق بحيرة الدم، ورأى خيطا يتدلى من السقف البعيد للبحيرة، يتدلى على خجل وكأنه يخشى أن يراه أحد، وهَمَّ أنه يتجه نحوه، وفي غمرة فرحه أخذ يصفق، ظن أنه إذا ما تعلق بهذا الخيط وأخذ في التسلق فإنه خارج من الجحيم لا محالة، بل إنه قد يصل إلى الجنة إذا حالفه الحظ، و بهذا لن يجبر على تسلق جبل الأشواك وبالطبع لن يغرق في بحيرة الدم.

عندها أمسك الخيط بكلتا يديه وأخذ يتسلق بكل ما أوتي من قوة، لم يكن أمرا صعبا عليه فهو لص معتاد على ذلك.

ولكن المسافة كانت بعيدة للغاية، ولم يكن الخروج من الجحيم بالأمر اليسير وإن تسلق بكل ما أوتي من قوة، وبعد فترة من التسلق أصيب كان داتا بالإعياء الشديد ولم يعد يستطيع أن يتسلق خطوة واحدة، عندها لم يعد بيده حيلة فقرر أن يستريح قليلا على الخيط، وهو معلق هكذا نظر نظرة إلى الأسفل.

عندها وجد بحيرة الدم المظلمة التي تركها آنفا قد اختفت، كما أن جبل الأشواك المخيف قد أصبح بعيدا عنه، اعتقد أنه إذا ما استمر في التسلق بهذه الطريقة فإنه خارج من الجحيم، أخذ يهلل بصوته الذي لم يخرج من عدة سنين وهو متشبث بخيط العنكبوت، وفجأة لفت انتباهه صف من المذنبين قد اقتفوا أثره فهم أيضا أخذوا في تسلق الخيط وقد بَدَوْ وكأنهم سرب من النمل، وعندما رأى هذا انتابه مزيج من الدهشة والخوف، ولأول وهلة لم يفعل شيئا سوى تحريك عينيه فاغرا فاه كالأبله، هذا الخيط الرفيع الذي بالكاد تحمله كيف سيتحمل كل هذا العدد، إذا ما انقطع هذا الخيط الآن لا بد وأنه سيسقط مرة أخرى في الجحيم ولكن على أم رأسه هذه المرة، وبالتأكيد لن يكون هذا أمرا هينا. كان المئات بل الآلاف من المذنبين يتسلقون خيط العنكبوت بلمعانه الخافت في صف منتظم، لابد وأن الخيط سينقطع الآن من منتصفه وسيسقط الجميع.

عندها صرخ كان داتا قائلا:

"أنتم أيها المجرمون، إن هذا الخيط ملك لي، من استأذنتم قبل أن تبدأوا في تسلقه، انزلوا انزلوا"

وفي هذه اللحظة تحديدا، انقطع خيط العنكبوت من النقطة ذاتها التي كان كان داتا متعلقا بها، بالرغم من أنه لم يكن به أي سوء إلى هذه اللحظة، عندها هوى كان داتا إلى قعر الجحيم يشق الرياح بأم رأسه إلى الهاوية.

كان بوذا يقف على حافة بحيرة اللوتس في الجنة يشاهد نهاية هذا الموقف، ثم عاد ليتمشى على حافة البحيرة مقطب الجبين بعدما رأى كان داتا وهو يغرق في قاع بحيرة الدم كالحجر، ففي نظره كانت قلة رحمة كان داتا شيئا مؤسفا فقد حاول إخراج نفسه وفقط من الجحيم.

ولكن زهرات اللوتس في البحيرة لم تتأثر ولو قليلا بما حدث، أخذت تلك الزهرات البيضاء البلورية تحرك كؤوسها عند أقدام بوذا، والرائحة العطرة لاتتوقف عن الانتشار من قطرات الندى الذهبية، وأوشك النهار أن ينتصف بالجنة.

obeikandl.com

توشي شون

(١)

في مساء أحد الأيام وقف شاب تحت البوابة الغربية لمدينة راكويو الصينية القديمة يتأمل السماء شارد الذهن، كان هذا الشاب يُدعى توشي شون، كان توشي شون في الأصل من عائلة ثرية ولكنه كان قد بدد كل ميراثه، كان مستاءً في ذلك اليوم وكان استياؤه يدعو إلى الشفقة عليه.

كانت راكويو مدينة مزدهرة للغاية لا تضاهيها مدينة أخرى في الإمبراطورية، يمر الناس والعربات ببواباتها بلا انقطاع، حول البوابات وتحت ضوء النهار وقف رجال

obeikandl.com

مسنون يرتدون قبعات حريرية ونساء تركيات محليات بأقراط ذهبية، وخيول بيضاء مزينة بخيوط ملونة، رسمت البوابات أُطرا لهم فجعلت المنظر يبدو كصورة غاية في الروعة.

أمال توشي شون جسده نحو البوابة وأخذ يتأمل السماء شارد الذهن، كان القمر الهزيل وحيدا في السماء يسبح وسط الضباب وكأنه منبت ظفر، الآن ستغيب الشمس وأنا جائع وليس لدي مكان لأبيت فيه، ربما يكون من الأفضل أن ألقي بنفسي في النهر لأموت.

لم يقدر على منع نفسه من أن يفكر بهذه الطريقة، وفجأة قاطع أفكاره رجل مسن أعور جاء من مكان ما، أثر أشعة الشمس الغاربة باد على وجهه، حدق بوجه توشي شون وسأله بأنفة وكبرياء

"فيم تفكر أيها الفتى؟"

"أتخاطبني أنا؟ إنني أفكر... أين سأبيت هذه الليلة؟

ولأن الرجل قد باغته بالسؤال فإن توشي شون قد خبأ عينيه وأجابه بالحقيقة دون تفكير.

"حقا، يالك من مسكين" بدا العجوز وكأنه يفكر في شئ ما ثم أشار إلى الشمس وهْي تغرب قائلا:

"دعنى أعلمك شيئا جيدا يا بني، إذا ما انتصف الليل احفر مكان ظل رأسك المنعكس على الأرض في شمس الغروب هذه، عندها ستجد كنزا مدفونا يملأ عربة لأم عينها"

"حقا؟"

تفاجأ توشي شون رافعًا عيناه اللتان كان يخبئهما، ولكن أمرا عجيبا قد حدث، فقد اختفى الرجل العجوز ولم يعد له أثر، وازداد القمر في السماء بياضا، وحلق نحو خفاشين أو ثلاثة فوق حشود الناس الذاهبة والآيبة بلا راحة.

(٢)

وفي غضون يوم واحد أصبح توشي شون أثرى أثرياء راكويو، فقد قام بالفعل بحفر مكان ظل رأسه الذى رسمته شمس الغروب عندما انتصف الليل، فإذا به يجد كمية من الذهب تزيد عن حمولة عربة كبيرة.

سرعان ما قام توشي شون الذى أصبح من الأثرياء بشراء منزل فاخر وبدأ يعيش حياة رغيدة كتلك التى يعيشها الملوك، كان يشترى الخمر من ران ريو، ويشتري الفاكهة من كي شو، زرع في حديقة منزله أشجار الفاوانيا التى يتغير لون أزهارها أربعة مرات في اليوم الواحد، اقتنى طيور طاووس بيضاء، أخذ يجمع الأحجار الكريمة، كانت ملابسه تُغزل من خيوط الذهب، عربته تُصنع من الخشب العطري، وأمر بصناعة كرسي عاجي مخصص له، وإذا مازلنا نسرد مظاهر الرفاهية التى كان يعيش فيها فإننا

لن ننتهي من هذا الحديث أبدا.

عندما سمع أصدقاؤه بما صار عليه، أصبحوا يترددون على منزله ليل نهار، وقد كانوا من قبل لا يلتفتون إليه ولا يلقون عليه حتى التحية، زاد عدد المترددين عليه يوما بعد يوم، وبعد مرور نصف العام لم يوجد أحد في راكو يو بأكملها إلا وقد تردد على منزله، حتى أن الأعيان والجميلات كانوا يترددون على منزله.

كان توشي شون يدعو ضيوفه لإحتساء الخمر كل يوم، عاكفين عليها لم يفرغوا قط من احتسائها، وإذا ما حاولنا الإيجاز فلابد أن نذكر أنه كان يشرب الخمر في كؤوس من الذهب، قادمة من أوروبا، أثناء مشاهدته لساحر هندي يبتلع السيوف وحوله نحو عشرين امرأة تُزين شعورهن أزهار اللوتس وعشرين آخرين مزينات بالعقيق يعزفن الناي والكوتو.

ولكن مهما بلغ ثراء المرء فإن المال لابد وأن يفنى في وقت ما، ولذلك فقد عاد توشي شون فقيرا مرة أخرى بعد نحو عام أو اثنين، ولأنها طبيعة البشر فقد تغير هؤلاء الذين كانوا يزورونه كل يوم حتى البارحة وأصبحوا لا يلقون عليه حتى التحية إذا ما مروا ببابه، وفي ربيع العام الثالث أصبح توشي شون مفلسا لا يملك قرشا واحدا، ولم يجد في المدينة كلها بيتا واحدا يستقبله لقضاء الليل، لم يجد حتى من يقرضه جرعة ماء واحدة.

وفي مساء أحد الأيام ذهب توشي شون مرة أخرى إلى البوابة الغربية للمدينة وأخذ يحدق في السماء شارد الذهن

تائها، عندها ظهر الرجل العجوز الأعور أمامه فجأة الذى كان قد ظهر له من قبل، سأله:

"فيم تفكر أيها الفتى؟"

خفض توشي شون رأسه أمام الرجل العجوز ولبرهة لم يجد ما يقوله، ولكنه في نهاية الأمر أجاب الرجل الطيب الذى أعاد عليه السؤال القديم بنفس إجابته القديمة، ولكن بشئ من الخوف والخجل هذه المرة.

"إنني أفكر أين سأقضى الليل فلا مكان لي لأبيت فيه"

"أهو كذلك؟ يالك من مسكين، دعني إذن أعلمك شيئا ما، احفر مكان صدرك على الظل المنعكس على الأرض في شمس المغيب هذه، وستجد بالتأكيد ذهبا يملأ عربة كبيرة لأم عينها"

بعد أن قال الرجل كلماته هذه اختفى وسط حشود الناس كالمرة السابقة تماما.

بحلول صباح اليوم التالي أصبح توشي شون أثرى أثرياء العالم، وكالعادة بدأ ينفق ببزخ كيفما شاء، زرع أشجار الفاوانيا بحديقته، وكانت طيور الطاووس البيضاء تنام بينها، أعاد الساحر الهندي الذى يبتلع السيوف، وغيرها من شتى مظاهر البزخ التى كان يقوم بها من قبل، وبذلك فإن أمواله التى كانت تملأ عربة كبيرة قد نفدت مجددا خلال ثلاثة أعوام.

(٣)

"فيما تفكر أيها الفتى؟"

أعاد العجوز الأعور على توشي شون السؤال نفسه للمرة الثالثة، وبالطبع كان توشي شون عندها يقف أسفل البوابة الغربية للمدينة شارد الذهن يتأمل في ضوء القمر الذى أخذ يتخلل الضباب في ليلة اليوم الثالث من الشهر.

"أتحادثني أنا؟ إنني أفكر فيما سأفعله الليلة فلا مكان لي لأبيت فيه"

"أهو كذلك؟ حسنا دعني إذن أعلمك شيئا نافعا، احفر مكان بطنك على الظل المنعكس على الأرض في شمس المغيب هذه وستجد ملء عربة ....."

وما أن وصل العجوز إلى هذه النقطة في الحديث حتى رفع توشي شون يده مانعا إياه من إتمام حديثه.

"لا، لا أحتاج المال بعد الآن"

"لا تحتاج المال؟ حسنا إني أرى أنك قد مللت من زخرف الحياة ورغدها"

وأخذ العجوز يحدق بوجه توشي شون، ونظرة الشك تملأ عينيه، ولكن توشي شون أجابه بإجابة بغيضة ونظرة الإحساس بالظلم تغمر وجهه

"لا لم يصبني الملل من الحياة الرغيدة ولكني سئمت ذاك الشئ المسمى بالبشر"

"ياله من أمر يثير الاهتمام، ولم إذًا سئمت البشر؟"

"لأنهم جميعا قساة القلب، عندما أصبحت ثريا كانوا يداهنونني ويتبعونني أينما ذهبت، ولكن انظر ماذا حدث عندما أصبحت فقيرا، إنهم حتى لم ينظروا لي نظرة طيبة، وحتى إذا ما أصبحت ثريا مرة ثانية فإن هذا الواقع لن يتغير"

انفجر العجوز في الضحك عندما سمع كلمات توشي شون.

"أهو كذلك؟ إنك مختلف عن الشباب في عمرك، فأنت تعرف حقائق الأمور بشكل مثير للإعجاب، إذا أنت تنوي أن تعيش في راحة بال حتى ولو كنت فقيرا؟"

تردد توشي شون قليلا ثم رفع عينيه اليائستين ونظر إلى وجه العجوز وكأنما يناشده:

"لا، لا يمكنني هذا، لذلك أريد أن أتعلم طرق السحرة الجبليين، لا يمكنك أن تُخفي هذا عليّ فأنت أحد الجبليين عالي الأخلاق، إذ لم تكن منهم لم يكن ليمكنك أن تجعلني أغنى شخص في العالم في ما بين ليلة وضحاها، أرجوك كن معلمي وعلمني طرقك الباهرة"

بدا على العجوز أنه يفكر، وحاجباه تقاربا كما كانا من ذي قبل، ابتسم قائلا:

"فعلا أنا جبلي أقطن في جبل جابي وأُدعى تِكَّان شي، عندما رأيتك لأول مرة رأيت فيك شخصا محبا للمعرفة ولذلك فقد جعلتك ثريا مرتين، وإذا ما كنت ترغب في أن تصبح جبليا لهذه الدرجة فيمكنك أن تصبح تبعا لي"

هكذا استجاب العجوز بلطف لطلب توشي شون، لم يكد العجوز ينهي كلامه حتى خرَّ توشي شون ساجدا على الأرض وأخذ يكرر شكره لتِكّان شي.

"لا، لا تشكرني، لقد جعلتك تابعا لي، والآن يرجع الأمر إليك في أن تصبح جبليا متميزا أم لا، وبداية فلتأت معي إلى جبل جابي، ولحسن حظنا أن هناك غصن خيزران أمامنا، اسرع واركبه ولنعبر به السماء"

التقط تكان شي غصن الخيزران الأخضر وألقى تعويذة ثم امتطيا العود وكأنهما يمتطيان حصانا وإذا بالعجب العجاب يحدث، ارتفع غصن الخيزران إلى السماء بقوة كالتنين، وحلق في سماء المساء الربيعي الصافية باتجاه جبل جابي.

أخذ توشي شون ينظر إلى الأسفل برهبة ودهشة من هول المفاجأة، ولكنه لم ير سوى جبال خضراءَ بادية من الشفق، أما البوابة الغربية للمدينة فقدً اختفت وسط الضباب في لمح البصر، لم يجد أثرا لها مهما بحث، وفي تلك الأثناء أخذ تكان شي في الغناء بصوت عالٍ، وهو من كانت الرياح تداعب شعره الفضي:

"وفي الصباحِ نمرحُ،، وفي الصباحِ نمرحُ
ببحر الشمالْ.
وفي المساء للجنوبِ نذهبُ.
وفي المساء للجنوبِ نذهبُ.
وحية في كمِّيَ، تزيدني شجاعةً
وقد أتيت مرة ومرة ومرة

إلى مدينة جاكويو
ورغمَ هذا لا أحدْ يعرفني
وأنا الآن أطيرُ محلقًا
أغني وأغني وأغني
في سماء بحيرة دوتي"

(٤)

وفي وقت قصير هبط غصن الخيزران الذي كان يحملهما على صخرة كبيرة تطل على واد عميق، حيث رأيا نجم هوكوتو يتلألأ وسط السماء، حجمه يقارب حجم كوب الشاي، وقد كان السكون يخيم على المكان، لأنه جبل لا يتردد عليه أحد من البشر، الشئ الوحيد الذي سُمع وسط هذا السكون هو حفيف شجرة صنوبر معوجة تنمو وحيدة على منحدر خلفهما.

عندما وصل الاثنان إلى هذه الصخرة أجلس تكان شي توشي شون أسفل المنحدر وقال له:

"سوف أذهب الآن إلى السماء للقاء ملكة الغرب، أما أنت فسوف تنتظرني هنا حتى أعود، عندما أرحل من المحتمل أن يظهر لك العديد من السحرة محاولين خداعك،

obeikandi.com

ومهما حدث إياك إياك أن تصدر صوتا على الإطلاق واعرف جيدا أنك إذا ما تفوهت بكلمة واحدة فلن تتمكن من أن تصبح جبليا أبدا، حسنا؟ ستبقى صامتا حتى إذا السماء انشقت والأرض مدت"

"لا تقلق، لن أنبس ببنت شفة، حتى وإن بلغت الحلقومَ روحي سأبقى صامتا"

"أهو كذلك؟ لقد اطمأن قلبيَ الآن بسماعي لهذا، حسنا سأذهب الآن وأعود مجددا"

بعد أن ودع العجوز توشي شون امتطى جواده الخيزراني مرة أخرى، واختفى في سماء الجبال المنحوتة بظلمة الليل، وجلس توشي شون يتأمل في النجوم وحيدا صامتا فوق الصخرة، وبعد مرور نحو ساعة، وفي اللحظة التى كان يلتحف فيها بثوبه من برودة الليل، دوَّى صوت غاضب من السماء:

"من هناك؟"

ولكن توشي شون تلثَّمَ بالصمت كما طلب منه العجوز، ولكن الصوت تكرر مرة أخرى مهددا هذه المرة:

"أجبني الآن وإلا سأقبض روحك"

ولكن توشي شون بقي قابضا على صمته، وفجأة قفز نَمِرٌ عيناه كجمرتين تتوقدان لا يُعرف من أين أتي أمام توشي شون وأخذ يحدق به ثم أطلق صيحة مدوية، لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فإلى جانب النمر اهتزت شجرة الصنوبر التى فوق رأسه وإذا بثعبان أبيض يضاهي سمكه جذع الشجرة، لسانه يشبه اللهب يقترب منه، ولكن توشي

شون ظل ساكنا بلا حراك ولم يحرك حتى حاجبيه.

ظل النمر والثعبان يحدقان ببعضهما وهما يستهدفان فريستهما، وفي لحظة هجومهما عليه لا تدري أيهما أسبق، وفي اللحظة التي تبين له فيها أن حياته ستفنى بعضة من النمر أو لدغة من الثعبان، اختفى كل من النمر والثعبان كالضباب مع رياح الليل، ولم يبق سوى حفيف شجرة الصنوبر على المنحدر خلفه، تنفس توشي شون الصعداء، ولكنه بقي مترقبا ماذا سيحدث بعد ذلك؟.

هبت ريح تسوق سحابة في سواد الحبر، تعم السماء، وإذا ببرق بنفسجي يشق السماء فجأة إلى نصفين، تلاه رعد شديد، لا، ليس مجردَ رعدٍ، بل صاحبه مطر غزير مندفع من النهر المنحدر من أعلى، وجلس توشي شون بلا خوف وسط تقلب الجو من صوت الريح ورذاذ المطر ولمع البرق المستمر، وبعد برهة بدا وكأن جبل جابي نفسه سينشق وفي غضون ذلك دوَّى صوت رعد شديد يصم الآذان، وإذا بعمود من نار شديدة الاحمرار يخترق السحابة السوداء التى لفت السماء، متجها نحو رأس توشي شون.

وضع توشي شون كفيه على أذنيه واختبأ بجسده في جسده فوق الصخرة، ولكن سرعان ما أن فتح عينيه فوجد السماء قد عادت لسابق عهدها ورأى نجم هوتوكو يسطع متلألأ في السماء في حجم كوب الشاي فوق الجبال، إذن فالعاصفة التى مرت آنفا والنمر والثعبان الأبيض لا يعدوان عن كونهم حيلا من السحرة الذين استغلوا فرصة غياب تكان شي.

في نهاية الأمر اطمأن توشي شون ومسح جبينه من العرق وعاد للجلوس معتدلا هادئا فوق الصخرة.

لم يكد يلتقط توشي شون أنفاسه مما حدث حتى بغته محارب يشبه في عظمته إلها طوله أربعة أمتار تقريبا يرتدي درعا ذهبيا، كان المحارب يحمل في يده رمحا له ثلاثة أنصال، وجهه إلى صدر توشي شون، والغضب يمرق كالسهم من عينيه وقال موبخا إياه:

"أنت يا هذا، ماذا تكون؟ إنني أقطن جبل جابي هذا منذ قديم الأزل، ومن يدخله بلا خوف ولا تردد هكذا ليس بمجرد بشر، إذا كانت حياتك ثمينة عندك فأسرع بالإجابة دون تلكأ"

ولكن توشي شون أبقى فمه مغلقا كما أمره العجوز

" إنك لا تجيب، حقا لا تجيب، حسنا إذا لم تجب سيقوم أتباعي بتقطيعك إربا إربا"

رفع المحارب رمحه عاليا مشيرا إلى السماء فوق جبل مقابل لهما، وفي تلك اللحظة انقشع الظلام، وإذا بتوشي شون يفاجئ بجنود إلهية تتدفق تجاهه كالسحاب حاملين رماحا وسيوفا براقة.

عندما رأى توشي شون هذا المنظر كاد أن يصرخ ولكنه تذكر كلمات تكان شي وبذل قصارى جهده ليبقى صامتا، ازداد غضب المحارب برؤيته لمنظر توشي شون الذي لم يبد عليه الخوف

"أنت أيها العنيد، إذا لم تجبني الآن فسوف أنفذ وعيدي وأسلب حياتك"

ولم ينتهي من كلمته حتى قتل توشي شون بطعنة واحدة برمحه ثلاثي الأنصال، ثم أطلق ضحكة مدوية كاد جبل جابي نفسه أن ينشق لها، ثم اختفى بجيشه العرمرم مصاحبا صوت رياح الليل وكأن هذا كله لم يكن سوى مجرد حلم.

عاد نجم توهوكو للتألق فوق الصخرة بشكل يوحي بالبرودة، وعادت أغصان شجرة الصنوبر تصدر حفيفها المعتاد، أما توشي شون فقد كان طريحا على ظهره منقطع الأنفاس.

(٥)

كان توشي شون طريحا على ظهره لا حراك أما روحه فقد تسللت من جسده بهدوء وهوت إلى قاع الجحيم.

بين عالمنا هذا وبين الجحيم طريق اسمه حفرة الظلام، مظلم طوال العام، تهب فيه ريح قوية باردة كالثلج، وفجأة دفعت هذه الريح توشي شون وجعلته معلقا في الهواء كورقة شجر، وبعد برهة وصل إلى قاعة فخمة مزينة بالموائد تجتمع فيها كل الخلائق.

وبمجرد أن وصل توشي شون أحاطته حشود من العفاريت واصطحبته إلى منصة يعتليها ملك يعتمر تاجا ذهبيا فوق رأسه، وملابسه سوداء فاحمة، يرمق ما حوله بنظرة

حادة، ليس من الممكن أن يقع لبس في ماهية هذا الملك، فلم يكن أحد بالبلاد لم يسمع بملك العالم السفلي، ركع توشي شون على ركبتيه تحت المنصة مذعورا يجهل ما يجري له بعد.

دوى صوت ملك العالم السفلي كصوت الرعد:

"أنت! ماذا كنت تحسب نفسك فاعلا بالجلوس على جبل جابي؟"

عندها هم توشي شون بالإجابة بسرعة ولكنه تذكر تحذير تكان شي عندما قال له ألا ينطق بكلمة على الإطلاق، عندها أبقى توشي شون رأسه منخفضة وظل صامتا كالأبكم، عندها رفع الملك صولجانه الحديدي ووقف شعر وجهه غضبا وهدد سجينه في غضب:

"إلى أين تعتقد أنك جئت يا هذا؟ أجبني في الحال، وإلا فإني سأجعلك تلاقي أشد عذاب الجحيم"

ولكن توشي شون بقي كما هو قابضا على صمته الرهيب ولم ينبس ببنت شفة، عندما رأى الملك هذا نظر إلى عفاريته قائلا شيئا ما بعنف جعلهم يتلقون أوامره ويسحبون توشي شون ويحلقون به في سماء القاعة.

وكما نعلم جميعا فإن بالجحيم واد لألسنة النار الملتهبة وبحرا برودته كالجليد، هذا بالإضافة إلى جبل الأشواك وبحيرة الدم، تُظَلُّ كلَ ذلك سماءٌ حالكة الظلام، أخذت العفاريت تتقاذف توشي شون فيما بينها، وأخيرا ألقوه في سواء الجحيم، وبذلك تعرض توشي شون لشتى ألوان العذاب التى لا تحصى ولا حد لها، أُخترق صدره بالسيوف، لفح

وجهه بنارٍ تلظى، نزع لسانه، سُلخ جلده، سُحق بمطرقة حديدية، غُلي في قدر من الزيت، رشفت الثعابين السامة مخه، وأكلت الصقور عينه، ومع هذا كله فقد تحمل توشي شون كل هذا، عاضًّا على نواجزه ولم ينطق بكلمة واحدة.

ملت العفاريت عندئذ، وطافوا في سماء الليل مرة أخرى عائدين إلى القاعة، أخضعوا توشي شون أمام المنصة كما كان من قبل، قال الملك عندها

"لايبدو أن هذا المجرم سيتحدث أبدا"

قطب جبينه وغرق في التفكير لبرهة وأخيرا جالت بباله فكرة نظر إلى أحد العفاريت وقال:

"لا بد أن والدَي هذا الفتى قد سقطا في أرض الوحوش، اذهب واجلبهما على وجه السرعة"

ركب العفريت الريح وطار في سماء الجحيم وجلب معه إلى القاعة وحشين يسبحان في السماء كما تسبح النجوم، اندهش توشي شون عندما رآهما، ذلك لأن كلا منهما كان على شكل حصان هزيل ولكن وجهيهما كانا وجهي والديه الراحلين الذَين لم يفارقه شكلهما حتى في الأحلام.

"أنت يا فتى، إذا لم تصرح الآن بسبب جلوسك على جبل جابي فإني سألحق أذى شديدا بوالديك"

وعلى الرغم من هذا التهديد فإن توشي شون امتنع عن الإجابة

"يالك من عاق لوالديك، حسنا إذا كان يناسبك أن يتعذب والديك فلا بأس"

وصاح ملك العالم السفلي صيحة شديدة كادت تهد

القاعة.

"اضربوا،أيها العفاريت، اسحقوا هذين الوحشين، اسحقوا لحمهما وعظامهما"

أجابوا في صوت واحد: "طوع أمرك يا سيدي" وأمسكوا بسياط حديدية وأخذوا يضربون الحصانين من كل جانب بكل قسوة بلا رحمة، أخذت السياط تشق الهواء وتقع على الحصانين وتقطع الجلد واللحم، سيان على أي مكان وقعت عليه، أما والديه الذين تحولا لحصانين فقد كانا يتعذبان أشد العذاب حتى خرجت دموع من الدم من عينيهما وعلا صوت صهيلهما.

"أما زلت على موقفك؟"

أمر الملك العفاريت أن توقف سياطها قليلا وطالب توشي شون بالإجابة، في ذلك الوقت كان الحصانان منهاران أمام المنصة، ممزقي اللحم مطحوني العظام منقطعي الأنفاس.

كان توشي شون يائسا، أغمض عينيه بشدة وهو يتذكر كلمات تكان شي، عندها سمع صوتا خافتا للغاية في أذنيه

"لا تقلق فإننا لا نكترث بما يجري لنا إذا ما كنت أنت سعيدا، مهما قال لك الملك لا تتفوه بما لا ترغب".

كان هذا ولا شك صوت والدته، فتح توشي شون عينيه دون أن يشعر، خارت قوى إحدى الحصانين وانهار على الأرض وأخذ يحدق فيه بوجه بائس حزين، إن أمه قد فكرت في أمره في وسط هذا العذاب، ولم تشأ أن تظهر له تعبها حتى وهي تُضرب بالسياط من قبل العفاريت، يالها

من أمنية أن يفارق العالم الذى يلتف فيه الناس حول الغني ويهجرون الفقير إلى عالم لا يستطيع أن يتحدث فيه، ياله من قرار مثير للإعجاب، نسى توشي شون تحذير العجوز وجرى حتى كاد أن يسقط في اتجاه الحصان، وأمسك بكلتا يديه رقبة الحصان الذي أوشك على الموت وصرخ صرخة واحدة والدموع تنهمر من عينيه:

"أمي"

(٦)

لم يكد توشي شون يتنبه لهذا الصوت حتى وجد نفسه قد عاد إلى أسفل البوابة الغربية لمدينة راكويو يقف تحت شمس المغيب شارد الذهن، عاد كل شئ إلى سابق عهده قبل أن يذهب لجبل جابي، السماء الضبابية، القمر الأبيض لليلة الثالثة من الشهر، أمواج من البشر والعربات المتدافعة بلا انقطاع.

"ما رأيك الآن؟ لقد أصبحت تابعا لي ولكنك لم تتمكن من أن تصبح جبليا"

قالها العجوز الأعور وهو يبتسم.

"لا أريد أن أصبح جبليا، لا أريد، إنه لشئ يسعدني حقا أنني لم أتمكن من أن أصبح جبليا"

obeikandl.com

أمسك توشي شون بيد العجوز والدموع لا تزال في عينيه وقال:

"لم يكن من الممكن أن أقف صامتا أمام والدي وهما يجلدان بالأصوات أمام قاعة الخلائق في الجحيم مهما كانت رغبتي في أن أصبح جبليا"

"إذا ما كنت التزمت الصمت ....."

قالها تكان شي وقد اقفهر وجهه فجأة وأخذ يحدق بتوشي شون

"إذا ما كنت التزمت الصمت فإنني كنت سأعيد إليك حياتك على الفور، لقد كنت ترغب في أن تصبح جبليا، والآن ماذا ستفعل؟ ستواجه المشكلة القديمة نفسها إذا ما عدت لتصبح ثريا، فماذا ترغب أن تصبح الآن؟"

"أي شئ؟: أريد أن أصبح إنسانا عاديا يحيا بشرف"

كان صوت توشي شون مشرقا على وجه غير مسبوق.

"لا تنس هذه الكلمات، واعرف أنني لن أقابلك مرة أخرى بعد اليوم"

بعد أن أخبره تكان شي بهذا أخذ في السير مرة أخرى، ولكنه توقف فجأة والتفت إلى توشي شون وأضاف بلطف:

"حسنا لحسن الحظ فإن لدي منزلا عند السفح الجنوبي لجبل تاي زان، سوف أعطيك هذا المنزل ومعه حقل أيضا، يجدر بك أن تنتقل للعيش هناك بسرعة فنحن في موسم ستجد براعم المشمش متفتحة حول المكان".

لوحـة الجحيـم

(١)

إنني شِـبـه متأكد من أنه لم يوجد ولن يوجد أحد مثل اللورد العظيم هوريكوا؛ ففي حلم قبل أن يُولد رأت صاحبة العصمة الأم إله الغرب الوصي مسلحًا بشكل مذهل أو هكذا يقول الناس.

في جميع الأحوال يبدو أن سيادة اللورد لديه خصائص فطرية تميزه عن باقي الناس، ولذلك لم تتوقف إنجازاته عن إدهاشنا، فكل ما تحتاجه هو نظرة على قصره في عاصمة

obeikandl.com

مقاطعة هوريكاوا لتشعر بالجرأة في تصميمه وأن عظمته ومقاييسه البطولية ليست في متناول عقولنا المتواضعة، وقد تشككَ البعض في حكمة اللورد في تنفيذ هذا المشروع مشبّهين إياه بالإمبراطور الأول للصين الذي أجبر رجاله على بناء سور الصين العظيم أو بالإمبراطور "سوي يانغ" الذي جعل قومه يشيدون أماكن الإقامة النبيلة فارعة الطول، ولكن هذه الانتقادات يمكن أن تصدر فقط من أشخاص عميان المضروب بهم المثل "يصفون من الفيل ما يمكنهم لمسه فقط"، ولم يكن في نية جلالة اللورد إطلاقًا أن يبحث عن العظمة والمجد لنفسه فقط؛ فقد كان رجلاً ذا شهامة عظيمة يشارك السعادة مع العالم الأوسع ويبقى في ذهنه حتى أصغر رجاله.

وبالتأكيد هذا ما جعله يخرج سالـمًا من مواجهته في منتصف الليل مع موكب العفاريت الذي كان يُرى عند التقاطع الموحش في نيجوايا ما في العاصمة، وذلك أيضًا ما جعله يستطيع بتوبيخ بسيط أن يجعل روح شبح نورو وزير الشمال تختفي عندما ظهرت في قصره الخرب القاطن بجوار نهر هيجاشي سانجو كما تقول الشائعات، وفي مواجهة هذه العظمة المتألقة لا عجب أنّ جميع سكان العاصمة صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً اعتبروا عظمة اللورد تناسخـًا عن بوذا، حتى إنه في ذات مرة كما يقال وعندما كان اللورد عائدًا من مأدبة برقوق وأزهارٍ في القصر أفلت الثور الذي كان يجر عربته وأصاب رجلاً عجوزًا كان يمر في الطريق فركع الرجل وصلى شكرًا؛ لأنه وقع بـين قرني ثور عـظمة

اللورد.

لقد صدرت العديد من القصص حول عظمة اللورد حتى إنّ الإمبراطور العظيم منحه ثلاثين حصانـًا أبيضَ نقيًا بمناسبة مأدبة رأس السنة، وفي وقت آخر عندما بدا أن بناء جسر ناجارا يخالف إرادة الإله اقترح اللورد أن يدفن صبي مفضل عند قاعد الدعامة كأضحية بشرية، وبعد ذلك الوقت أراد اللورد أن يزيل ورمًا من فخذه فجلب الراهب الصيني الذي جلب فن الجراحة إلى بلادنا، ويا إلهي لا توجد نهاية لهذه القصص. ولكن على الرغم من الرعب المطلق في القصه لا ترقى أي منها لمستوى قصة اللوحة التي تصور مشاهد من الجحيم والتي تعتبر حاليًا إرثـًا عائليًا حاصلاً على الجوائز حتى عظمة اللورد، والذي يكون في العادة رابط الجأش، كان خائفـًا مما حدث وكذلك نحن الذين كنا نعتمد عليه كنا مذهولين، بالرغم من أنني كنت من رجال اللورد لمدة عشرين عامًا إلا أنني لم ولن أشهد ما هو أكثر فظاعة مما شهدته وقتها، ولكي أروي لكم قصة لوحة الجحيم يجب أن أخبركم عن يوشيهيد الرسام الذي أبدعها.

(٢)

لا بد أنه لازال بعض السيدات والسادة يذكرون الرسام يوهيشيد؛ فقد كان أعظم رسامي عصره في أرضنا، ولكنه كان يبدو وهو في الخمسين كرجل عجوز شديد النحافة،

وعلى الرغم من أنه كان يرتدي ثيابًا عادية عندما التقى بعظمة اللور في قصره؛ رداءً بنيًا مائلا للحمرة بكمين طويلين، وقبعة سوداء تميل جهة اليمين إلا أنه لم يكن رجلاً عاديًا على الإطلاق. فقد كان لشفتيه مسحة متوسطة من الحمرة لا تتماشى مع عمره على الإطلاق مما يعطيه مظهرًا وحشيًا مزعجًا، ويقول اليعض:

"إنّ حمرة شفتيه ناتجة عن طلائهما بفرشاة ألوانه"، ولكنّ بعض الألسنة القاسية ذهبت لحد وصفه بأنه يشبه القرد ويتحرك مثله حتى إنهم أطلقوا عليه لقب "قردهيد" بدلاً من "يوشيهيد".

لقد كان ليوشيهيد ابنة جميلة محبوبة على النقيض من والدها، وأذكر أنه عندما تم أخذها إلى قصر عظمة اللور كسيدة صغيرة في خدمة ابنة اللورد أحبها الجميع ابتداءً من صاحبة العظمة وامتدادًا للجميع وذلك لأنها كانت منذ صغرها ناضجة ومتعاطفة بطبيعتها ومهارتها تفوق عمرها؛ ربما لأنها فقدت أمها في سن صغيرة، وكانت لماحة لحاجات الآخرين.

في تلك الآونة قدم شخص من مقاطعة تامب قردًا أليفًا لعظمة اللورد والسيد الصغير الذي كان في وقتها في قمة وقاحة الصبيه فقرر أن يُسمي القرد يوشيهيد، كان القرد مخلوقًا ضغيرًا مرحًا، وجعل اقترانه بهذا الاسم الجميع يضحكون من قلوبهم، ولكنهم مهما فعل القرد الصغير سواء تسلق إلى قمة شجرة الصنوبر بالحديقة أو دنّس الحصر بغرف العاملين كانوا دائمًا يجدون سببًا

لتعذيبه والصراخ باسمه يوشيهيد، وفي ذات يوم كانت ابنة يوشيهيد تنزلق عبر ممر خارج القصر لتسلم رسالة مرحة مربوطة بغصن من البرقوق الشتوي عندما اندفع القرد عبر الباب المنزلق في نهاية الممر، وكان يعرج وغير قادرٍ على تسلق العمود كما يفعل في العادة عندما يكون خائفًا، ومن ثمّ اتضح أن السيد الصغير يجري وراءه –من غيره– ملوحًا بالسوط وصارخـًا: "عُـدْ إلى هنا يا لص اليوسفي، عُـدْ إلى هنا".

توقفت ابنة يوشيهيد فجأة وتشبث القرد الصغير بتنورتها وعلى وجهه نظرة باكية مثيرة للشفقة، ولابد أن هذه النظرة أثارت تعاطفها –بينما كانت لا تزال تمسك بغصن البرقوق في يدها– فخبأت القرد بين طيات كمها الناعمة ثـم نظرت إلى السيد الصغير بانحناءة وقالت بصوت واضح: "سامحني سيادة اللورد الصغير ولكنه مجرد حيوان، أرجوك أعذره".

رد السيد الصغير –ولاتزال العصبية بادية عليه وهو يضرب الأرض بقدمه عدة مرات– موبخًا ابنة يوشيهيد قائلاً: "لقد سرق مني اليوسفي".

فردت عليه: "إنه مجرد حيوان ولا يعرف شيئـًا".

ثم ابتسمت في حزن وأضافت: "إنّ اسمه يوشيهيد على أي حال ولا أستطيع أن أرى أبي يُعاقب".

وقد كانت هذه الكلمات كافية لتثبيط عزيمة السيد الصغير فقال: "حسنـًا، إذا كنت تترافعين من أجل حياة أبيكي سأتركه هذه المرة".

ثم قذف سوطه باتجاه الحديقة ومشى متشامخًا باتجاه الباب المنزلق.

(٣)

بعد هذه الحادثة أصبحت ابنة يوشيهيد والقرد مقربين وكانت الفتاة تملك جرسًا ذهبيًا أهدته لها سيدتها الصغيرة فعلقته برباط قرمزي جميل في رقبة القرد الذي لم يكن يبرح جانبها حتى إنها لما رقدت طريحة الفراش بسبب برد أصابها بقي القرد بقرب وسادتها وأقسم أنّ وجهه كانت تعلوه نظرة القلق، وبعد ذلك توقف الناس عن مضايقة القرد وبدأوا يعاملونه برقة حتى إن السيد الصغير كان يلقي له أحيانًا بثمرة برسيمون أو كستناء، وقد سمعت أنه غضب كثيرًا عندما قام أحد الساموراي بركل الحيوان، وبعد برهة طلب عظمة اللورد نفسه أنْ تمثل الفتاة أمامه والقرد بين يديها وذلك عندما سمع عن ثورة غضب السيد الصغير وكذلك تفانيها في العناية بالقرد، وقال: "إنني معجب بتصرفكي، خذي هذا".

وأهداها رداءً قرمزيًا، ولقد أخبروني أنّ اللورد كان سعيدًا خاصة عندما أخذ القرد يقلد حركات الامتنان التي

صدرت عن الفتاة –انحنت حاملة الرداء– وقد كانت محاباة اللورد للفتاة نابعة كلية من رغبته في مدح تفانيها لوالدها وليس كما تقول الشائعات إنه ناتجٌ عن انجذابه لها حيث إنّ هذا الشك كان عاريًا تمامًا من الصحة ويكفي الآن أن أخبركم أنّ اللورد لم يكن بالرجل الذي يمكنه الإسراف في مشاعره تجاه ابنة رسام مهما كانت جميلة.

وبعد أن انفردتُ بالثناء عليها بهذه الطريقة انسحبت ابنة يوشيهيد من حضور عظمة اللورد، ولكنها كانت تعرف كيف تتجنب إثارة غيرة بقية وصيفات القصر الأقل تواضعًا؛ لأنه في حقيقة الأمـر لقد زاد إعجاب الناس بها وبالقرد حتى إنّ السيدة الصغيرة لم تعد تتركهما يبرحان جانبها وكانت تصحبهما معها في عربتها التي يجرها الثور لمشاهدة الطقوس المقدسة وما شابه ذلك، ولكن يكفينا حديثًا عن الفتاة الآن.

دعـوني أكـمل حديثي عن والدهـا يوشـيهيد؛ ففي حين كان القرد يوشيهيد محبوبًا للجميع إلا أنّ يوشيهيد نفسه ظل محط ازدراء الجميع وظلوا يطلقون عليه قردهيد خلف ظهره وليس فقط في قصر هوريكاوا حتى إن شخصًا رفيعَ الشأن مثل رئيس الدير البوذية (أبوت) في يوكاسوا كان يكرههُ لدرجة أنّ وجهه يحمر غيظًا لمجرد ذكر اسم يوشيهيد وكأنه رأى شيطانًا.

يقول البعض: "إنّ السببَ في ذلك أن يوشيهيد رسم صورة هزلية تمثل بعض جوانب شخصية رئيس الدير ولكن هـذه كانت إشـاعة مـنتشرة بين الطـبقة الـدنيا مـن

الناس يصعب أخذها بالحسبان".

على أية حال كانت سمعة يوشيهيد سيئة للغاية حتى إنك كنت تسمع الإجابة نفسها من أي شخص تسأله عنه، ولو حدث أن تحدث عنه أحدهم بالحسنى فهو إما أحد من أبناء مهنته الرسامين أو أنه يعرف أعماله الفنية فقط ولم يلتق به قط، ولم يكن مظهره هو الشيء الوحيد الذي يكرهه الناس؛ ففي الحقيقه كانت بعض صفات شخصيته الشريرة أكثر تنفيرًا لهم ولا يمكن أن يُلام غيره على ذلك.

(٤)

لقد كان يوشيهيد شحيحًا ومريعًا وفظًا في معاملته لجميع الناس وكسولاً وطماعًا لكن الأسوء أنه كان وقحًا ومغرورًا فلم يكن يدعك تنسى أنّ أعظم رسام في البلاد كما أن غروره لم يكن مقصورًا على الرسم فكان لا يكتفي حتى يُبدي ازدراءَه من كل تقليد أو عرف أو عادة يمارسها عامة الناس، ولقد أخبرني رجلٌ كان يعمل لديه تحت التمرين لعدة سنوات القصة التالية:

عندما كان يوشيهيد في قصر أحد السادة في وجود كاهـن

حديقة شجر السرو الشهير الذي يستخدم السحر لعلاج المرضى قامت الوسيطة الروحية بنقل رسالة مروعة من الروح الشريرة، ولكن يوشيهيد لم يكن متأثرًا وأخذ فرشاة الحبر ورسم مسودة مفصلة لتعبيراتها الغريبة كما لو كان يرى أن مسّ الروح الشرير مجرد خداع.

لا عجب أنّ هذا الرجل قام بتدنيس المقدسات في أعماله سواء استخدامه لوجه عاهرة معروفة في رسمه للآلهة المعشوقة كليسشوتن؛ فقد استخدم مجرمًا أطلق سراحه ليقوم بمهمة في مكتب الحاكم، وإذا حاولت تحذيره بأنه كان يلعب بالمخاطر كان يرد عليك ببراءة مصطنعة قائلاً: "أنا مَنْ رسمهم في النهاية، أتود إخباري أن الآلهة التي أرسمها ستقوم بمعاقبتي؟!" حتى المتدربين لديه كانوا مصعوقين لذلك وبعضهم لم يبرر ترك العمل لديه خوفًا من أن يحل بهم عقاب الآلهة، لكنّ غرور يوشيهيد لم يكن يعرف الحدود فقد كان يظن أنه أعظم إنسان تحت هذه السماء .

مما لا شك فيه أن يوشيهيد تجبّر على بقية الرسامين في عهده فقد كانت فرشاته وألوانه مختلفة كلية عن بقيتهم ولذلك مال العديد من الرسامين الذين كانوا على خلاف معه إلى إعتباره دجالاً؛ فقد كانوا يتحدثون بحماسة شديدة عن أعمال الرسامين العظام القدامى مثل "كواناري وكاناوكا.

(في ليلة مقمرة يمكنك حقًا أن تشتم رائحة أزهار البرقوق المرسومة على ذلك الباب الخشبي أو يمكنك سماع أحد رجال الحاشية الملكية في تلك اللوحة يعزف على

الفلوت)، ولكن كل ما كان لديهم ليقولوه عن أعمال يوشيهيد إنهم يجدونها مقلقة ومرعبة، خذوا المراحل الخمس لإعاة الميلاد على بوابة معبد ريوجايجي على سبيل المثال: "عندما عبرت البوابة ليلاً -كما قال أحدهم- كان بإمكاني سماع تنهيدات وبكاء الصينيين المحتضرين في السماء العليا، وهذا لا شيء -كما زعم شخص آخر- كان بإمكاني شم رائحة لحم الموتى المتعفن، وماذا عن اللوحة التي أمر اللورد برسمها لوصيفات القصر، فقد مرضت كل النساء اللاتي رسمهن في تلك الوحة وتوفين خلال الثلاث سنوات التالية وكأنه انتزع أرواحهن، وحسب قول أقسى نقاده: "فإن هذا كان آخر دليل على أنه كان يمارس فنًا شيطانيًا".

ولكنّ يوشيهيد كان عنيدًا -كما قلت- فكانت تلك الملاحظات تملأه بالفخر حتى إنه عندما قال له عظمة اللورد مازحًا: "بالنسبة لك يبدو أنه كلما زاد القبح كلما كان أفضل".

فكشرت شفتي يوشيهيد العجوز شديدتي الحمرة وأجاب: "نعم سيدي اللورد، إنّ بقية الرسامين متوسطي البراعة لا يستطيعون تقدير قيمة القبح".

وسواء أكان أعظم رسام في البلاد أم لا، كان من غير المصدق أنه استطاع تفجير هذا الهراء الذي يمدح فيه نفسه في وجود عظمة اللورد، ولا عجب أنّ متدربيه كانوا يدعونه تشيزا إيجوا؛ لعلكم تعرفون من هو تشيزا إيجوا؟ إنه المارد الطويل الذي عبر من الصين لينشر خطيئة الغرور.

ولكن حتى يوشيهيد بكل عناده وضلاله أظهر رقة إنسانية تجاه شيءٍ واحدٍ.

(٥)

ما أعنيه هو أنّ يوشيهيد كان مجنونـًا بحب ابنته الوحيدة وصيفة القصر الصغيرة- فقد كانت الفتاة كما قلت من قبل رقيقة القلب بشكل مذهل ومخلصة لوالدها ولم يكن حبه لها أقل من حبها له، وكان يلبي جميع احتياجاتها -كل رداء وكل زينة شعر- بدون أدنى اعتراض، ألا ترى ذلك مذهلاً بالنسبة لشخص لم يُقدم في حياته أي مساهمة في أي معبد؟!.

على الرغم من ذلك لم يتعدَ حبه لها كونه حبًا فقط، فلم يخطر على باله أن عليه البحث عن زوج جيد لها ولم يكن ليمتنع عن استئجار بعض مشردي الشوارع ليضربوا أي شخص يمكنه أن يقنع إمبراطورًا أن يتقدم لها؛ لذلك لم يكن سعيدًا على الإطلاق عندما أنعم عليها اللورد بلقب وصيفة القصر وظل فترة طويلة يرسم على وجهه نظرة فظة عند لقاء عظمة اللورد، وأظن أنّ الذين شاهدوا ذلك هم الذين تكهنوا بانجذاب اللورد للفتاه لدرجة أنه جلبها

للقصر رغم اعتراض والدها، ولم تكن تلك الإشاعات صحيحة على الإطلاق فليست سوى غيرة يوشيهيد العمياء على ابنته التي جعلته يتمنى أن تترك ابنته القصر.

أذكر الوقت عندما طلب اللورد من يوشيهيد أن يرسم "مونجو" كطفل، وأرضاه يوشيهيد كثيرًا بعمله الرائع عندما استخدم أحد الصبية المفضلين لدى اللورد كعارض، وسأله اللورد أن يطلب أي شيءٍ يريده ولابد أنّ يوشيهيد كان منبهرًا من سماع هذا الثناء من شفتي اللورد حتى إنه انبطح أمام عظمته شكرًا له، ولكن أيمكنك تخيل ما طلبه؟.

"إذا كان يُرضي عظمتك أرجو منك أن تعيد ابنتي إلى وضعها الحقير السابق". هكذا قال، يا لوقاحة الرجل فلم يكن هذا أي بيت أو قصر أن يطلب إعفاءها من الخدمة في مكان تكون فيه بقرب عظمة اللورد هوريكوا نفسه! من أين له هذه الجرأة؟.

حتى شخص في عظمة ومكانة سيادة اللورد يمكن أن يحس ببعض الانزعاج من طلب كهذا، كما كان واضحًا من تحديقه في وجه يوشيهيد لبرهة ثم قال: "لن يحدث هذا". وانسحب فجأة.

وتلك لم تكن المرة الوحيدة؛ فقد حدث ذلك أربع أو خمس مرات، ومع تكرر الموقف بدى لي أن تحدق اللورد بيوشيهيد كان يبدو أكثر برودة، أما الفتاة فيبدو أنها كانت خائفة على سعادة والدها وكان يمكن رؤيتها تبكي في صمت في غرفتها طابقة بأسنانها على كمها وكل ذلك ساهم في تقوية الإشاعات بأن اللورد يحب الفتاة حتى إنه

يُقال إنّ طلب اللورد برسم تلك اللوحة له دخل برفض الفتاة للورد ولكنّ هذا لا يمكن أن يكون صحيحًا من منظوري، لقد كان رفض اللورد ترك الفتاة تذهب نابعًا من الشفقة عليها فقد كان يرى بكرمه الواسع أنّ بقاءها في قصره تحيا حياة رغده أفضل لها بكثير من الحياة مع والدها العنيد، أما عن كونه متحيزًا لها فهذا لا شك فيه، فقد كانت فتاة صغيرة لطيفة الطبع، أما افتراض أنه حصل على ما يشتهيه منها فهو افتراض ملتوي وعارٍ تمامًا من المنطق ولا أساس له من الصحة.

على أية حال فقد كان يوشيهيد غير مفضل عند اللورد لفترة بسبب تلك المسائل المتعلقة بابنته، وفجأة استدعاه اللورد وطلب منه رسمًا يحوي المشاهد الثماني البوذية للجحيم.

(٦)

يا إلهي تلك اللوحة! يمكنني رؤية تلك المشاهد المرعبة من الجحيم أمامي الآن. لقد رسم غيره من الرسامين لوحات سموها (مشاهد من الجحيم) لكن تركيباتهم لم تقترب من لوحته؛ فقد كان ملوك الجحيم العشرة وتابعيهم

في أعلى إحدى الأركان وكل شيء آخر–في كل اللوحة– مغلفًا بعاصفة نارية رهيبة لدرجة أنك تحس أن اللهب الملتف كالدوامة سيذيب "جبل سابرس" و"غابة سوردز"، وبجانب الزي الصيني الغامض لقضاة الظلام بملابسهم الصفراء والنيلية كل ما يمكنك رؤيته هو اللون المستعر للهب يرقص بينم بوحشية والدخان الأسود من حبر الهند المرشوق والشرارات المتطايرة من نفض الغبار الذهبي على البني.

كان هذا كافيًا لصعق وإبهار أي مُشاهد، ولكنّ العصاة المتلوين في الجحيم المرسومين بفرشاة يوشيهيد القوية لم تشبه أولئك الذين رسمهم غيره، وأشمل يوشيهيد اللوحة عصاة من جميع المراكز بدءً من الكوكبة المضيئة في الدائرة الممجدة لجلالة الملك إلى أحط شحاذ ومنبوذ، مرورًا بأحد رجال الحاشية الملكية في زيه الرائع ووصيفة نبيلة في ردائها المكون من خمس طبقات وراهب متشبث بحديقة الورد يرنم باسم "أميدا" العظيمة، وطالب الساموراي على قبقابه الخشبي العالي، وسيدة نبيلة صغيرة، وكاهن وين يانج يلوح بصولجانه الورقي في الهواء، ويستحيل أن أسميهم كلهم ولكن كان هناك بشر من جميع الأنواع مغمورين بالدخان واللهب ويُعذبون على يد حراس الجحيم برؤوسهم التي تشبه الثيران والخيول ويُقادون في كل اتجاه كأوراق الخريف التي تبعثرها الرياح "انظروا إلى تلك المعقوفة شعرها حول رمح مسنن ويديها وقدميها مسحوبتين للداخل مثل العنكبوت. هل يمكن أن تكون هذه إحدى العذارى

المقدسات اللاتي تؤدين للآلهة؟!. ويا إلهي ذلك الشخص المتدلي بالمقلوب كالخفاش وثديه مثقوب برمح قصير؛ لا بد أنه حاكم ريفي أخرق، وأنواع العذاب أيضًا كانت لا تعد ولا تحصى مثل الآثمين أنفسهم بين الضرب بمقرعة من حديد والسحق تحت صخرة عملاقة والالتقاط من قبل طير عملاق والتدلي بين فكي ثعبان سام... إلى آخر ذلك من مشاهد العذاب.

ولكن الموقف الأكثر ترويعًا بين الجميع كان للعربة التي تهبط عاموديًا من السماء وجلطت أفرع شجرة سيفية حيث كانت أشلاء الجثث مرشوقة في الفروع التي تشبه الأنياب، وهبت من رياح الجحيم أزاحت ستائر العربة لتكشف عن سيدة مغرية ترتدي لباسًا جميلاً لدرجة توحي أنها إحدى زوجات جلالة الإمبراطور أو خليلاته وشعرها الأسود المتدلي حتى أسفل ظهرها يطير عاليًا باتجاه اللهب ونحرها الأبيض العاري وهي تتلوى من العذاب، فكل تفصيل بشأن المرأة أو العربة المتأججة كانت تملأ المشاهد بإحساس مزعج من أنواع العذاب في الجحيم المستعرة بالحرارة.

إنّ الرعب المحض في المشهد كله، ماذا يمكنني أن أقول؟ بدا متركزًا في هذا الشكل فلابد أنها نفذت بحرفية ملهمة ليظن الناظر إليها أن بإمكانه سماع صراخ تلك المرأة الفظيع، نعم، نعم، تلك هي، لابد أن شيئًا رهيبًا قد حدث من أجل رسم هذا المشهد وإلا كيف يمكن لأحد حتى لو كان يوشيهيد العظيم أن يُصور عذاب الجحيم بهذه

الحيوية؟! لقد كان قدره القاسي أن يفقد حياته ليكمل هذه اللوحة؛ بمعنى أنّ الجحيم الذي رسمه هو الجحيم الذي قُدر له أن يسقط يومًا فيه يوشيهيد أعظم رسام في البلاد.

أخشى أنه في خضم تسرعي للحديث عن اللوحة التي تحوي مشاهد غير عادية من الجحيم قد أكون عكست ترتيب الأحداث؛ لذا دعوني الآن أكمل لكم الجزء الخاص بتلقي يوشيهيد الأمر من عظمة اللورد لرسم لوحة للجحيم.

(٧)

لمدة ستة أشهر بعد تلقيه الأمر صبّ يوشيهيد كل طاقته في رسم ذلك المشهد ولم يأتِ للقاء اللورد ولو لمرة واحدة ألا ترونه غريبًا أن يتخلى والد متفاني مثله عن رؤية ابنته عندما يبدأ برسم لوحة؟ وبناءً على كلام المتدرب الذي ذكرته سابقًا كان يوشيهيد يقبل على عمله كأنه مسكون بروح ماكرة.

في الحقيقة يقال: "إن يوشيهيد كان قادرًا على صناعة هذه المكانة العظيمة في عالم الفن؛ لأنه رَهَنَ روحه لأحد آلهة الثروة". لذلك إذا استرقت النظر إليه وهو يرسم ترى

obeikandl.com

ظل روح ما تحوم حوله، وما أن يلتقط فرشاته لم يكن يفكر في شيء آخر سوى إنجاز لوحته قبل الروح؛ فقد كان يقضي طيلة الليل والنهار في مرسمه بعيدًا عن الأنظار ويبدو شديد التركيز خاصة عندما كان يعمل على تلك اللوحة بمشاهد الجحيم التي تحويها ليس من غير العادي أن يبقي يوشيهيد شعرية الشباك والأبواب مغلقة ويقضي طيلة اليوم على مصباح الزيت يمزج خلطات اللون السرية أو يضع متدربيه في أوضاع عديدة مرتدين أزياءً عدة ليرسمهم وهم في حالة معينة، نعم لقد كان هذا سلوكًا عاديًا ليوشيهيد في أعماله حتى قبل شاشة الجحيم. تذكروا هذا هو الرجل الذي ذهب لمراقبة جثة متعفنة ملقاة على جانب الطريق عندما كان يعمل على مراحل إعادة الميلاد الخمس على بوابة معبد ريوجايجي المشهد الذي ينفر منه أي شخص عادي لقد جلس أمامها لساعات راسمًا الوجه والأطراف المتعفنة دون أن يغفل شعرة؛ لذلك لا ألومك إذا كنت مِمَنْ لا يتخيلون أنه كان أكثر تركيزًا على لوحة الجحيم هذه ربما ليس لديّ الوقت لأخبركم كل التفاصيل ولكن يمكنني على الأقل إخباركم بأهم الأشياء.

ذات يوم كان أحد متدربي يوشيهيد -الذي أخبرتكم عنه سابقًا- مشغولاً بإزالة بقع الصباغ عندما قال له رئيسه فجأة: "أرغب في أخذ قيلولة ولكنني أعاني من أحلام سيئة مؤخرًا".

لم يستغرب المتدرب ما قاله سيده فأجاب: "حسنًا سيدي" وأكمل عمله. ولكن يوشيهيد لم يكن على طبيعته

فقد بدا مترددًا و قلقـًا وطلب منه طلبًا مفاجئـًا عندما قال: "أريدك أن تجلس وتكمل عملك بجانبي وأنا نائم"، واستغرب المتدرب من خوف رئيسه من الأحلام ولكنه كان طلبًا سهلاً فوافق عليه قائلا له: "حسنـًا إذا".

فقال يوشيهيد والقلق لازال باديًا على وجهه: "تعال إلى الداخل في الحال".

ثمّ تردد وعندما وصل متدرب آخر أضاف: "لا تخبر أي منهم أين أنام".

"الداخل" يعني الغرفة التي كان يرسم فيها وكالعادة كانت الأبواب والنوافذ مغلقة بشدة كأنه الليل، وهناك في الضوء الخافت لمصباح الزيت كانت اللوحة المثنية تقبع بألواحها الخشبية المرتبة بشكل نصف دائري ولازالت مجرد مسودة بالفحم.

رقد يوشيهيد مستندًا على ساعدة وانزلق في نوم عميق لرجل مجهد جدًا، ولم يمضِ وقتٌ حتى سمع المتدرب أصواتـًا لا يستطيع أن يصفها كَان الصوت كما أخبرني غريبًا ومقلقـًا.

(٨)

في البداية كان مجرد صوت ولكن بعد لحظات بدأ يُكوّن كلماتٍ بدت كأنها قادمة من تحت الماء مثل البكاء المكتوم لرجل يغرق "ماذا" قال الصوت: "تريدني أن آتي معك؟ إلى أين؟ إلى أين تأخذني؟ إلى الجحيم، تقول إلى الجحيم

ونارها المستعرة! مَنْ أنت تبًا لك؟! مَنْ يمكنك أن تكون إلا...؟."

المتدرب الذي يذيب البقع شعر بيديه تفقدان توازنهما ونظر خلسة بخوف إلى وجه سيده الكئيب وقد تحول جلده المجعد إلى البياض الناصع وراح ينضح بفقاعات غزيرة من العرق وشفتاه جافتان وفمه ذو الأسنان الناقصة مفتوح باتساع وكأنه يلهث للهواء رأى الفتى شيئًا يتحرك في فمه بسرعة شديدة كأنه معلق بحبل ولكنه أدرك فجأة أنه لسان يوشيهيد، يا للعجب! وأن الكلام المجزأ صادر منه.

"مَنْ عساه يكون غيرك، تبًا لك، إنه أنت، هذا ما ظننته؟! ما هذا؟ جئت لتريني الطريق إلى هناك وتريدني أن أتبعك إلى الجحيم! ابنتي تنتظرني في الجحيم؟!"

أخبرني المتدرب أن شعورًا خارقًا للطبيعة اعتراه في تلك اللحظة، وبدت عيناه كأنهما تتحركان بشكل غامض وظلال غريبة الأشكال تنزلق على سطح شاشة الجحيم وتفيض حولنا نحن الإثنين بطبيعة الحال مدّ المتدرب يده وهزّ يوشيهيد بكل قوته ولكن بدلا من أن يستعيد سيده وعيه بقي يُحدّثُ نفسه ولم يُظهرْ أي إشارة على استعادة وعيه، فقام المتدرب بعد أن تملكه اليأس بسكب ماء غسل الفرش على وجه يوشيهيد.

"أنا أنتظرك" قال يوشيهيد. "فأسرعْ بجلب العربة وتعال معي إلى الجحيم"، ولكن في اللحظة التي سكب الماء عليه تحولت كلماته إلى أنين مخنوق على الأقل فتح عينيه ووثب إلى أعلى كما لو تم وخزه بإبرة ولكنّ المخلوقات

غريبة الشكل كانت لازالت تلازمه بالتأكيد؛ لأنه ظل يحدق في الفضاء وفمه مفتوح وعيناه مملوءتان بالرعب، وبعد برهة عاد لوعيه وبدون أي لمحة من العرفان صاح في المتدرب قائلا: "أنا بخير الآن، اخرج من هنا".

كان المتدرب على علم أنه سيُعنف إذا ما قاوم رغبة رئيسه في مثل هذا الوقت فأسرع خارجًا من الغرفة، وأخبرني أنه عندما رأى نور الشمس ثانية أحس بالراحة وكأنه أفاق من كابوس.

هكذا كان يوشيهيد في أسوء حالاته وبعد شهر دعى متدربًا آخرًا إلى الغرفة الداخلية، وجد المتدرب الشاب يوشيهيد واقفًا بكآبة وفي يده مصباح الزيت وبين أسنانه فرشاته وبدون أي تردد نظر إليه يوشيهيد قائلا: "آسف، أحتاجك عاريًا مجددًا".

وكان السيد قد طلب منه ذلك من قبل فخلع المتدرب ثيابه سريعًا ولكن يوشيهيد قال بعبوس غريب: "إنني أحتاج إلى رؤية شخص مكبل بالسلاسل فافعل ما أطلبه منك، وأنا آسف على ذلك، لن يستغرق الأمر سوى وقت قصير".

كان يوشيهيد قادرًا على التلفظ بعبارات الاعتذار ولكنه يُصدر أوامره بطريقة باردة خالية من أي تعاطف، كان هذا المتدرب بالذات قوي البنية يصلح لحمل السيف أكثر من حمل الفرشاة، لكن لابد أنه كان مصدومًا مما حدث.

"اعتقدت أن سيدي فقد عقله وسيقتلني" هكذا أخبر الناس مرارًا وتكرارًا لوقت طويل فقد انزعج يوشيهيد من

بطأ المتدرب في التحضيرات حتى إنه سحب السلسلة الحديدية الضيقة وقيد بها الفتى خلف ظهره وضيق الخناق ثم أُلقى بالفتى على الأرض ساحقـًا إياه.

(٩)

رقد المتدرب على الأرض مثل ماذا؟! مثل برميل من الساكي –شراب الكحول– دفعه أحدهم أرضًا، يداه وقدماه ملويين بلا رحمة ولم يمكنه تحريك شيء سوى رأسه كما تورم واحمرّ وجهه وجذعه وكل جسمه نتيجة قطع السلسلة الحديدية لدوران الدم، وكان عدم اهتمام يوشيهيد بذلك واضحًا وأخذ يدور حول برميل الساكي راسمًا مسودة بعد الأخرى، إنني واثق من أنه يمكنكم تخيل عذاب ذلك الشاب دون أي وصف إضافي مني.

كانت محنة هذا الشاب لتطول أكثر لو أن شيئـًا لم يقاطعه ولحسن الحظ –أو لسوءه– راح خيط رفيع متمايل يبدو كزيت أسود ينساب من وراء جرة كبيرة بركن الغرفة في البداية تحرك ببطء كسائل كثيف ثم أخذ في الانسياب بسرعة أكبر في الظلام حتى شارف على لمس أنف المتدرب نظر المتدرب إليه نظرة جيدة ثم شهق وصرخ: "ثعبان

ثعبان" وطريقة وصفه لتلك اللحظة توحي بأن كل قطرة دم في جسده قد تجمدت؛ لأنّ لسان الثعبان البارد قد قارب على ملامسة عنقه حيث كانت السلسلة مربوطة حتى يوشيهيد –بكل عناده– لابد أنه شعر بالرعب من هذا الحدث فبعد أن وقعت فرشاته على الأرض من يده مال وأمسك بالثعبان من ذيله فرفع الثعبان رأسه وأخذ يلتف حول نفسه ولكن لم يستطع النيل من يد يوشيهيد "تبًا لك، لقد كلفتني ضربة فرشاة" صرخ في الثعبان ثم وضعه في الجرة القابعة بركن الغرفة، ثم بقليل من التردد فكّ وثاق المتدرب –في الحقيقة كان فك وثاق المتدرب أقصى ما يمكنه تقديمه دون كلمة تعاطف واحدة– لقد كان غاضبًا من خسارة ضربة فرشاة واحدة أكثر من اهتمامه بأنّ الثعبان كاد ينقضُ على المتدرب، وسمعت بعد ذلك أنه أبقى على الثعبان ليرسمه.

أتخيل أن القليل الذي سمعتموه كافٍ لتفهموا شدة الحماسة التي يعمل بها يوشيهيد، ولكن دعوني أعطيكم مثالاً رهيبًا أخيرًا يتعلق بمتدرب شابٍ في الثالثة عشر أو الرابعة عشر من عمره والذي أوشك على فقد حياته في سبيل شاشة الجحيم.

حدث ذلك ذات ليلة عندما استدعاه يوشيهيد إلى المرسم فقد كان الصبي ذا بشرة فاتحة كالفتيات، هناك وجد الفتى يوشيهيد واقفًا بجوار المصباح ثلاثي الأرجل حاملاً قطعة من اللحم النيء وأخذ يُطعم منها طائرًا لم يرَ مثله من قبل؛ فقد كان الطائر في حجم القط وخصلتان من الريش

بارزتان عن رأسه كالأذنين وعيناه الكبيرتان المستديرتان بلون العنبر كل هذا جعله يبدو مثل القط.

(١٠)

كان يوشيهيد يكره أن يتدخل أحدٌ في شؤونه -خذوا الثعبان الذي أخبرتكم عنه كمثال- فلم يكن يدعي أيّ من متدربيه يعرف الأشياء التي يحتفظ بها في مرسمه، وحسب ما قاله المتدرب الصغير ربما كان لديه جمجمة إنسان جاثمة على الطاولة أو صفوف من الأقداح الفضية والقواعد المطعمة بالذهب، ولا يمكنك أن تعرف -كما لم يعرف متدربوه- أين يُخفي تلك الأشياء عندما لا يستخدمها؟ وهذا حقيقة السبب وراء الإشاعات التي تقول إنّ يوشيهيد كان يحظى بمساعدة غريبة من إله الثروة.

"حسنا إذا" قال المتدرب الصغير في نفسه: "لابد أن هذا الطائر الغريب أحد النماذج التي يحتاجها لرسم شاشة الجحيم" ثم ركع على ركبتيه أمام يوشيهيد وقال بتذلل: "كيف يمكنني أن أساعدك يا سيدي؟".

بدا يوشيهيد كأنه لم يسمعه ولعق شفتيه الحمراوتين ومال بذقنه تجاه الطائر وقال: "ليس سيئًا هذا! انظر كم هو

obeikandl.com

أليف".

"أرجوك يا سيدي أخبرني ما هو؟ لم أرَ شيئا مثله من قبل" قال الصبي هذا الكلام وعيناه تحدقان في الطائر الذي يشبه القط.

"ماذا؟ لم ترَ شيئًا مثله من قبل؟!" قال يوشيهيد ضاحكًا بازدراء "هذا ما يحدث عندما تكبر في العاصمة، إنها بومة أحضرها لي أحد الصيادين من جبل كوراما، ولكنك في العادة لا تجدها أليفة هكذا".

وفيما كان يتحدث رفع يوشيهيد يده وربت على الريش على ظهر البومة فيما كانت تبتلع آخر قطعة لحم، وفجأة أصدر الطائر صوتًا وقفز عن الطاولة موجهًا مخالبه إلى وجه المتدرب، ولولا أنه رفع يداه ليحمي نفسه لكان انتهى به الحال بجرح عميق أو أكثر في وجهه بلا شك ثم أخذ الفتى يصرخ ويهز كمه ليُبعد الطائر الذي ازداد هجومه هياجًا وطقطق بمنقاره ثم اندفع نحوه مجددًا متجاهلاً وجود يوشيهيد أخذ المتدرب يركض في أنحاء الغرفة فحينًا يقف ليحمي نفسه وحينًا آخرًا يقرفص ليبتعد عن الطائر، أما سيده فقد راح يتحرك معه فيقفز حين يقف ويهبط حين يقرفص متحينًا الفرصة لينظر إلى عينيه، ومع كل اندفاعة تأتي رفرفة رهيبة من جناحي الطائر تملأ الصبي بالرعب.

شعر الفتى بالضياع –كما قال لاحقًا– وبدا له المرسم الذي يعرفه جيدًا كأنه وادي صيد سحيق بين الجبال مع رائحة الأوراق المتعفنة ورشات الماء من الشلال والبخار الحامض من الفواكه التي تتخاطفها القرود حتى الوهج

الخافت من مصباح السيد بدا كضوء القمر المحاط بالضباب بين التلال، وبينما هو تحت هجوم البومة كان أكثر ما أثار رعبه وجعل بدنه يقشعر هو النظرة الباردة التي تتبع بها سيده هذا الهرج والمرج آخذًا وقته في فتح الورقة ولعق الفرشاة وجلس يُصور المشهد الرهيب للفتى الرقيق وهو يُعذّبُ من قِبل الطير الجارح، وخلال هذا المشهد اعترى المتدرب رعبًا لامتناهي ولوهلة –كما قال– ظن أنّ سيده سيقتله.

(١١)

لا يمكنك إلا أن تتساءل عن هذا الأمر حيث بدا أن غرض يوشيهيد الوحيد عندما دَعا المتدرب إلى مرسمه تلك الليلة كان أن يطلق البومة عليه ويرسمه فيما يحاول الهرب، ولذلك لَمحَ المتدرب تلك النظرة على وجه سيده عندما كان يرفع يديه محاولا حماية رأسه وأصدر صرخة متقطعة من حلقه بينما كان يرتطم بالباب المنزلق في ركن الغرفة، وفي اللحظة نفسها صرخ يوشيهيد وهبّ واقفًا على قدميه وفيما تزايدت سرعة رفرفة جناحي البومة وارتفع صوتها

جاء صوت سقوط شيء ما وتحطمه، فرفع المتدرب رأسه التي كان قد غطاها من الرعب ليجد الغرفة شديدة العتمة وصوت يوشيهيد الغاضب ينادي بقية المتدربين .

في النهاية جاء صوت استجابة من بعيد ودخل أحد المتدربين إلى الغرفة حاملاً مصباحًا، وفي ضوئه القاتم رأى الصبي المصباح ثلاثي الأرجل محطمًا على الأرض والحصيرة والدعامات مغمورين بالزيت المنسكب من المصباح، كما رأى البومة تضرب أحد جناحيها في ألم واضح فيما كانت تحوم حول الغرفة، وفي الطرف البعيد من الطاولة بدا يوشيهيد تعلوه دهشة فيما كان يرتفع عن الأرض ويتمتم بشيء غير مفهوم ولا عجب في ذلك!.

كان الثعبان الأسود ملتفًا بإحكام حول البومة من عنقها حتى الذيل وكذلك حول جناح واحد، لابد أنّ المتدرب كسر الجرة فيما كان يحط على الأرض، وأخطأت البومة عندما حاولت التقاطه بمخالبها لتبدأ هذه المعاناة الرهيبة، فتح المتدربان فاههما عجبًا من المشهد وحدّقا ببعضهما البعض ثم انسحبا من الغرفة، ولا يعرف أحد ماذا حدث للبومة والثعبان.

لم تكن هذه الحادثة الوحيدة من نوعها، لقد نسيت أن أخبركم أنه كان الخريف عندما طلب اللورد من يوشيهيد رسم شاشة الجحيم، وحتى نهاية الشتاء كان المتدربون عرضة لسلوك سيدهم المخيف فحتى ذلك الوقت يبدو أنّ شيئًا لم يتعارض مع عمل يوشيهيد على اللوحة، لقد أصبحت حالة الكآبة المحيطة به أكثر عمقًا وصارت حديثه

مع مساعديه أكثر قسوة، وكان حوالي ثمان أعشار اللوحة قد انتهى ولكنها توقفت عن إبداء أي تقدم حتى إن يوشيهد بدا أنه على أعتاب الرسم فوق الأجزاء المرسومة مسبقـًا.

لا يعلم أحد ما هي الصعوبات التي كانت تواجهه في إنهاء هذه الشاشة –ولم يحاول أحدٌ أن يعرف– ومتأثرين بما جرى سابقـًا شعر متدربوه أنهم محبوسون في قفص مع نمر أو ذئب محاولين البقاء بعيدًا عنه.

(١٢)

لذلك ليس لدي ما أخبركم به عن تلك الفترة الشيء الوحيد الذي أتذكره عن تلك الفترة أنّ ذلك العجوز العنيد كان ينفجر فجأة في البكاء حيث يمكن أن يراه الناس بدموعه المنهمرة عندما يكون وحده، وأخبرني أحد المتدربين أنه دخل إلى الحديقة ورأى السيد واقفـًا في الشرفة محدقـًا في السماء ووعدها بالربيع وعيناه مملوءتان بالدموع فأصابه الحرج من وضع سيده العجوز وأخبرني أنه انسحب في هدوء ألا تجدون أنّ هذا غريبًا بالنسبة لشخص في مثل غروره؟! هل يمكن للرجل الذي ذهب إلى حد رسم

obeikandl.com

مسودات لجثة بجانب الطريق لأجل لوحة المراحل الخمس لإعادة الميلاد أن يبكي مثل الأطفال لمجرد أن تقدمه في رسم شاشة الجحيم لم يكن يجري على ما يرام؟!.

فيما كان يوشيهيد غارقًا في العمل بالكامل بدأت أعراض الاكتئاب تظهر على ابنته بازدياد حتى أصبح بإمكان بقيتنا رؤيتها وهي تحبس دموعها، بدا وجه الفتاة الحزين يشحب وصار مظهرها كئيبًا وظهر ظل غامق حول عينيها مما أثار تكهنات حول قلقها على أبيها أو أنها تعاني من لفحات الحب، ولكن فيما بعد صار الناس يقولون أنّ حزنها بسبب محاولة اللورد إخضاعها لإرادته من ثمّ توقفت النميمة وبدا كأنّ الجميع نسوا أمرها.

في ذلك الوقت وقع حدث معين؛ فمع بداية الليل كنت أسير في الممر خارج القصر عندما جاء القرد يوشيهيد مسرعًا وأخذ يجذب بنطالي، وقد كانت تلك ليلة دافئة في أواخر الربيع على ما أذكر عندما تكون متأهبًا لوصول رائحة زهور البرقوق الرومانسية تحت ضوء القمر الباهت، ولكن ماذا رأيت في ضوء القمر الباهت؟! كان القرد كاشفًا عن أنيابه البيضاء، مكرمشًا أنفه وصارخًا بطريقة جنونية، كانت القشعريرة المزعجة تشكل ثلاثة أعشار ما أشعر به، أما السبعة أعشار الباقية فكانت الغضب الذي اعتراني من كرمشة بنطالي الجديد وفكرت بركل الوحش بعيدًا ولكنني تذكرت قصة الساموراي الذي أغضب السيد الصغير بتعذيب القرد إلى جانب أن سلوك القرد كان يوحي بوجود مشكلة ما؛ لذلك استسلمت وتركته يسحبني

في اتجاهات مختلفة، وحيثما يلتف الممر يظهر السطح الفاتح للبحيرة الصغيرة التي تراها ممتدة خلال الظلمة خلف شجرة الصنوبر المتدلية برقة، عندما قادني القرد إلى هناك استاءت أذناي من سماع صوت مكتوم بصورة غريبة ظننته صوت نزاع في غرفة قريبة، صمت كل شيء فلم أعد أسمع شيئـًا سوى صوت طرطشة سمكة تقفز في ضوء القمر المختلط بالضباب، أوصلني صوت النزاع إلى مكان قريب فقلت في نفسي: "لو كان هذا دخيلاً سألقنه درسًا" ثم أخذت نفسًا عميقـًا واتجهت نحو الباب المنزلق.

(١٣)

كان اقترابي من القرد حذرًا ولكنه ظل يدور حولي عدة مرات ثم تسلق إلى كتفي وبدا بكاؤه مكتومًا غريزيًا قمت بثني رقبتي لأتجنب الخدش ولكنّ القرد غرز مخالبه في كمي ليتجنب الانزلاق، مما أثار دهشتي وجعلني أتعثر للخلف مصطدمًا بالباب ثم توقفت عن التردد وركلت الباب لأفتحه وجثمت في العتمة بعيدًا عن ضوء القمر، ولكن شيئـًا ما حجب الرؤية عني وعرفت من البداية أنها امراة،

وفجأة هرعت نحوي كأن شخصًا قذفها خارج الغرفة وكادت أن تصطدم بي ولكنها خرت أمامي جاثية على ركبة واحدة لاهثة ومرتجفة وكأنها في مشهد رعب.

ولا أظنني بحاجة لإخباركم أنها ابنة يوشيهيد، وفي تلك اللحظة رأتها عيناي بزهو جديد كأنها شخص مختلف تمامًا، فعيناها الكبيرتان اللامعتان، وخداها شديدا الحمرة، وملابسها غير المرتبة أعطتها جاذبية مثيرة تتعارض مع براءتها المعهودة، هل هذه حقا ابنة يوشيهيد؟ تساءلت عن هذه الفتاة الهشة شديدة التواضع والمنكرة لذاتها في كل شيء بينما كانت متكأة على الباب الخشبي المنزلق! وحدّقت بالفتاة الجميلة في ضوء القمر ثم ضربت بنظري باتجاه وقع الأقدام المسرعة من بعيد وسألتها بصوت هامس: "مَـنْ هذا؟". عضت الفتاة شفتيها وهزّت رأسها في صمت بينما أمكنني ملاحظة شعورها العميق بالمهانة، فانحنيت تجاهها وهمست في أذنها مجددًا: "مَـنْ هذا؟". ولكنها رفضت الإجابة وهزّت رأسها، في الحقيقة لقد عضت على شفتيها أكثر والدموع تتجمع فوق رموشها.

كوني غبيًا بالفطرة لا يجعلني أفهم من الأمور إلا ما هو واضح؛ لذلك لم أعرف ماذا يجب عليّ أن أقوله لها؟ فلم أستطع فعل شيء سوى الوقوف هناك وكأن غرضي الوحيد كان سماع صوت دقات قلبها الهائجة، وبالطبع كان اقتناعي أنه من الخطأ أن أواصل الأسئلة، لا أعرف كم استمرّ ذلك وفي النهاية أغلقت الباب وقلت للفتاة: "عودي إلى غرفتك الآن".

بدا أن ثورتها قد هدأت قليلا، واقتحمني شعورٌ مزعجٌ أنني رأيت شيئـًا لم يفترض بي رؤيته وإحساس بالذنب تجاه شخص ما –ليس شخصًا معينـًا– واتخذت طريقي عبر الممر، كنت قد سرت بالكاد عشر خطوات عندما شعرت بجذبة خجولة لبنطالي فالتفتُ بسرعة فزعًا، وما عساي رأيت؟ رأيت القرد يوشيهيد منبطحًا عند قدمي ويداه على الأرض كإنسان ينحني شكرًا مرارًا و تكرارًا وراح جرسه الذهبي يرن.

(١٤)

بعد حوالي أسبوع من ذلك الحدث جاء يوشيهيد فجأة إلى القصر طالبًا مقابلة اللورد، وربما كان تجرأه على ذلك رغم موقعه المتواضع بسبب كونه محظيًا عند اللورد الذي كان نادرًا ما يسمح لأحد بمقابلته؛ ففي ذلك اليوم قبل عظمة اللورد مقابلة يوشيهيد دون تأخير ارتدى الرجل رداءه البني المائل للحمرة المعتاد مع قبعته السوداء الطويلة ووجهه يكشف عن مرحلة متقدمة من العبوس جثا على وبدأ حديثه بصوت أجش قائلا: "لقد مثلت اليوم في أطرافه الأربعة على مسافة من اللورد وعيناه في الأرض

حضرة عظمتك سيادة اللورد بشأن تلك الشاشة التي تحوي مشاهد من الجحيم التي أخص عظمتك برسمها؛ فقد كرسّتُ لها نفسي ليلاً ونهارًا وعملت فوق طاقتي وبدأ العمل المضني يـُؤتي ثماره فقد أوشكت اللوحة على الانتهاء.

"خبر رائع، إنني مسرور" بدا صوت اللورد خاليًا من الحيوية بشكل غريب عندما قال ذلك.

"كلا سيدي اللورد، أخشى أنه ليس خبرًا سعيدًا" قال يوشيهيد، ولازالت عيناه موجهتين للأرض في مظهر يوحي بالغضب، ثم أكمل قائلاً: "قد يكون العمل أوشك على الانتهاء ولكن يبقى جُزء لا أقدر على رسمه".

وبينما استمع اللورد لكلماته ارتسمت على وجهه ابتسامة ساخرة وقال: "ما يعني أنك إذا أردت أن ترسم لوحة تمثل الجحيم فلابد أن تراه بعينيك!".

"تمامًا سيدي اللورد؛ ففي الحريق العظيم الذي وقع منذ عدة سنوات رأيت اللهب بعيني وأستطيع استخدام ما رأيت في تصوير الجحيم وحرارته المستعرة؛ فقد نجحت في الحقيقة في رسم لوحة لهب فودو الملتوي لأنني شهدت ذلك، وأظن أن سيادتك تعرف تلك اللوحة".

"ماذا عن العصاة إذن؟ وحراس الجحيم فأنت لم ترهم قط أم أنك رأيتهم؟! ".

تحدى عظمة اللورد يوشيهيد بسؤال تلو الآخر كأنه لم يسمع ما قاله.

"لقد رأيت شخصًا مقيدًا بالسلاسل الحديدية ورسمت

مسودات لشخص يُعذبه طائر متوحش، فلا يمكنني القول إنني لم أرَ قط عصاة يُعذبون، أما بالنسبة لحراس الجحيم فقد رأتهم عيناي كلما تأرجحت بين اليقظة والنوم "قال يوشيهيد ثم أكمل قائلاً " أولئك برؤوس الثيران، ورؤوس الخيول، وذوي الوجوه الثلاثة، والشياطين بالأذرع الستة؛ فهم يأتون لتعذيبي كل ليلة بطقطقة أيديهم وأفواههم الصامته المفتوحة، كلا إنهم ليسوا ما أعاني صعوبة في رسمه".

أظن أنّ هذا صدم اللورد فقد بقي مدة طويلة محدقًا بيوشيهيد وحاجباه معكوفان بغضب ثم قال: "حسنًا إذا، ما الذي تجد صعوبة في رسمه؟".

(١٥)

"في وسط اللوحة أريد أن أرسم عربة أرستقراطية تسقط من السماء، مقصورتها منسوجة من أفضل أوراق النخيل". وبينما كان يتحدث رفع يوشيهيد رأسه لأول مرة ناظرًا إلى اللورد سمعت أن يوشيهيد قد يكون رجلاً مجنونًا فيما يتعلق بالرسم ولكن نظرته في تلك اللحظة كانت مرعبة بكل الطرق.

ثم استكمل "في العربة سيدة نبيلة مترفة تتلوى من العذاب، وشعرها الأسود الطويل تلتهمه ألسنة اللهب الضارية، أما وجهها... حسنـًا، ربما تكون قد شذبت حاجبيها وحدّقت إلى الأعلى تجاه سقف المقصورة بينما تختنق من سحب الدخان المتعالية، ويداها قد تمزق قصاصات القماش الطويلة لستائر العربة فيما تكافح لتدفع عنها زخات الشرر المتطايرة تجاهها وحولها حشد من الطيور الجارحة – ربما زينة أو أكثر– في أقصى درجات التأهب، يا إلهي! سيدي اللورد هذه هي الصورة التي لم أستطع رسمها".

"ولذلك...؟" بدا اللورد مستمتعـًا مما يسمع فألحّ على يوشيهيد ليكمل، ولكن شفتا يوشيهيد الحمراوتان أخذتا ترتجفان كأنه مصاب بالحمى وظل يكرر –كأنه في حلم–: "هذا ما لم أستطع رسمه".

وفجأة صرخ قائلا: "أرجو منك سيدي اللورد أن تجعل رجالك يشعلون النار في عربة، دعني أشاهد اللهب يأكل إطارها ومقصورتها، وإذا كان ممكنـًا... وهنا علت سحابة من الكآبة وجه اللورد ولكن في لحظات أخذ يقهقه، وكان لا يزال يقهقه عندما قال: "ممكن؟! سأفعل أي شيء تريده لا تقلق بهذا الشأن".

ملأتني كلمات اللورد بتشاؤم رهيب، فلم يكن مظهره في تلك اللحظة معتادًا؛ فقد تجمعت رغوة بيضاء على جوانب فمه وتشنج حاجباه كصاعقة برق مشرشرة، وكأن جنون يوشيهيد سكب عليه، وما أن أتم كلماته حتى انفجر ضاحكـًا مجددًا واستكمل كلامه قائلا: "سأحرق عربة من

أجلك وسأضع بداخلها امرأة مغرية مرتدية ثياب امرأة نبيلة وستموت متلوية من العذاب في اللهب والدخان الأسود يجب أن أحييك يوشيهيد فمَنْ يمكنه أن يفكر في ذلك سوى أعظم رسام بالبلاد".

شحب وجه يوشيهيد عندما سمع ذلك ولم يتحرك منه سوى شفتيه فقد بدا كأنه يلهث للهواء –وكأن عضلات جسمه كلها ارتخت في نفس اللحظة– ثمّ خرّ أمام اللورد ويداه على الأرض المغطاة بالحصر مجددًا وقال بتذلل واضح: "ألف شكر سيدي".

كان صوته بالكاد مسموعـًا، ربما لأنه أدرك الرعب في طلبه عندما سمعه بكلمات اللورد، وكانت تلك المرة الأولى التي اعتبر يوشيهيد فيها شخصًا مثيرًا للشفقة.

(١٦)

بعد ليلتين أو ثلاث دعى اللورد يوشيهيد كما وعده لمشاهدة إحراق العربة لقد أقام الحدث –ليس في قصره– ولكن خارج العاصمة في عزلة أخته الصغيرة في الجبال المعروفة بـــ(قصر الثلوج الذائبة) ولم يقم أحدٌ في هذا القصر منذ زمن بعيد فأصبحت حدائقه الفسيحة مقفرة، ولابد أن الموقع الموحش أثار كل أنواع الإشاعات وكان معظمها عن أخت اللورد التي توفيت هناك؛ فقد اعتاد

الناس القول: "إنه في ليلة بلا قمر تنزلق تنورتها القرمزية الواسعة بشكل مخيف عبر الممر الخارجي دون أن تلمس الأرض"، ولا عجب من وجود مثل هذه القصص! فقد كان القصر مُوحشًا بالنهار وما أن تغيب الشمس حتى يصبح خالعًا للقلوب، والجدول بالحديقة يصدر خريرًا منذرًا بالسوء في الظلام وطيور مالك الحزين تعبر ضوء القمر كمخلوقات وحشية.

تم إحراق العربة في ليلة حالكة الظلام لم يطلع فيها القمر، وكشفت المصابيح الزيتية عن عظمة اللورد جالسًا بهدوء في الشرفة مرتديًا رداءً تركوازيَ اللون وتحته بنطال بنفسجي داكن على سجادة وبرية مستديرة ذات ديباج أبيض، وكان موقعه مرتفعًا عمّن حوله حوالي ستة أشخاص من الحضور أحدهم كان متشوقًا لخدمة اللورد، محارب ساموراي ضخم تميز منذ عدة سنوات في حملة ضد بربري الشمال ويقال: "إنه نجا من المجاعة بأكل لحوم البشر وبعد ذلك أصبح لديه القدرة على اقتلاع قرون أيل بيديه العاريتين". جثا في تلك الليلة تحت الشرفة في حالة تأهب غامدًا سيفه حول خصره وطرفه منحرف للأعلى كذيل طائر النورس مستعدًا للانطلاق عند أول إشارة، وكان مظهر الرجال في تلك الليلة مُرعبًا بشكل غريب كأنه مشهد في حلم، وارتعاش ضوء المصابيح جعلتهم في الظلمة حينًا وفي الضوء حينًا آخرًا.

وكان هناك العربة نفسها بدون ثور متصل بها، وأذرعها السوداء الطويلة ارتاحت إلى الأسفل جاعلة العربة تميل

قليلاً إلى الأمام، ومقصورتها الطويلة مجدولة من أفضل أوراق النخيل تمامًا كما طلب يوشيهيد، حقـًا وسيلة نقل تليق بجلالة الإمبراطور أو أحد وزرائه، عندما رأيت تجهيزاتها الذهبية تلمع كالنجوم في السماء فكرت فيما يوشك أن يقع لهذه المركبة المترفة وألّمت بجسدي رعشة رغم أنها ليلة ربيعية دافئة، أما عما كان داخل العربة فلم يكن من الممكن أن تعرف لأنّ ستائرها الجميلة المجدولة من البامبو الأخضر المحززة بالقماش المنقوش كانت مسدلة جيدًا، وحولها مجندان متيقظان يحرسونها يحملان مشاعل اللهب في حذر لئلا يصل الدخان إلى عظمة اللورد في الشرفة.

أما يوشيهيد فقد كان مُتكئـًا على ركبته في مواجهة الشرفة مباشرة، مرتديًا ما بدا أنه رداؤه البني المعتاد وقبعته السوداء الطويلة، لقد بدا صغيرًا ورثـًا وكأنّ نجوم السماء كانت تلقي بثقلها عليه، وخلفه مباشرة شخص آخر في ملابس مشابهه لعله كان أحد متدربيه لم أستطع تمييز لون ملابسهما من أسفل الشرفة لأنهما كانا مقرفصان في الظلام.

(١٧)

اقترب منتصف الليل –على ما أظن– وكأن الظلمة التي تغلف الحديقة كانت تراقب أنفاسنا في صمت، كل نسمة ريح تحمل نحونا رائحة الدخان المتصاعد من المشاعل،

وبقي اللورد ساكتًا للحظات مراقبًا المشهد الغامض ثم صرخ بحدة وهو جالس على طرف كرسيه قائلا: "يوشيهيد، الليلة سأحرق لك العربة كما طلبت".

ربما رد يوشيهيد، ولكن لم يصل شيء إلى أذني ورمق اللورد الرجال من حوله بنظرة وأظن أنني رأيت ابتسامة ذات معنى بينه وبين بعضهم – قد يكون هذا من محض خيالي بالطبع- الآن يبدو أن يرفع رأسه وينظر إلى أعلى نحو الشرفة ولكنه بقى منتظرًا ولم يقل شيئًا.

"أريدك أن تنظر إلى هذا" قال اللورد: "هذه عربتي التي أستخدمها كل يوم، أنت تعرفها جيدًا، لابد الآن أن تشتعل فيها النار لترى جحيمًا مستعرًا على الأرض أمام عينيك".

انتقل اللورد إلى الصمت وعيناه ترسل إشارة أخرى لَمَنْ حوله ثمّ في لحظة مفاجأة صرخ قائلا: "داخل العربة امرأة آثمة مكبلة بسلاسل حديدية، عندما تشتعل النار في العربة سيحترق لحمها وعظمها، وستموت ميتة أليمة، لن يُتاح لك نموذجًا كاملاً كهذا لرسم شاشة الجحيم ثانية أبدًا في حياتك، فلا تفوّت عليك مشاهدة لحمها شديد البياض ينفجر من اللهب، شاهد وتذكر شعرها الأسود الطويل يرقص في دوامة اللهب".

ثم غرق في الصمت مجددًا، وأيًا كان ما جال في خاطره فكل ما فعله الآن هو الضحك بلا صوت وكتفاه يهتزان، ثم قال: "لن يتكرر هذا المشهد مجددًا أبدًا، يوشيهيد سأنضم إليك في مراقبته، حسنًا يا رجال ارفعوا الستار ودعوا يوشيهيد يرى المرأة بالداخل".

عند سماع الأمر قام أحد المجندين برفع المشعل وأسرع الخُطى إلى العربة مادًا يدَه ليرفع الستارة لأعلى، طقطقت نيران المشعل وارتعشت ملقية بوميضها الأحمر داخل العربة على السجادة الوبرية بالأرضية جلست امرأة مغللة بالسلاسل بشكل قاس، ويا إلهي مَنْ لا يمكنه التعرف عليها؟! شعرها الأسودً الطويل مزين بالورود وشريط مغري على رداء مطرز بزهور الكرز، ودبابيس الشعر الذهبية التي تكلل رأسها الذليل تلمع بجمال في ضوء النار، رغم اختلاف الزي الذي ترتديه فذلك المظهر الفتي والرقبة رشيقة القد حيث تثبت الكمامة، والمظهر المتواضع بشكل مؤثر لا ينتمي كل هذا إلا لابنة يوشيهيد بالكاد أستطيع منع نفسي من الصراخ.

فزعًا مما رأيت حولت نظري محدقًا بيوشيهيد، بدا كأن هذا المشهد قد دفعه للجنون فهبّ واقفًا وركض باتجاه العربة ويداه ممدودتان أمامه، وللأسف لقد جرى بعيدًا عني في الظلام فلم أرَ وجهه بوضوح، ولم يدم إحباطي سوى لحظات ثم بدا وجه يوشيهيد الباهت وجسمه المرفوع في خفة كأن قوى خفية ترفعه وبدا أمامي بوضوح وهو يشق طريقه في الظلمة المحيطة، وفجأة صرخ اللورد قائلاً لجنوده: "احرقوها".

فلوح المجندين بمشاعلهم واشتعلت العربة وابنة يوشيهيد بداخلها.

(١٨)

ابتلعت النار سائر العربة وطارت شرابات السقف البنفسجية وراحت سحب الدخان تتطاير عاليًا وبياضها قوي في مواجهة ظلمة الليل، وفي النهاية زخات من الشرر تنفجر نحو الأعلى بقوة مروعة لدرجة أنه في لحظة واحدة تشققت الستائر والألوح الخشبية الجانبية والحواشي المعدنية للسقف وطارت في الهواء في انفجار رهيب، ولكنّ المظهر الأكثر رعبًا كان لون اللهب الذي التهم شراعات منافذ المقصورة قبل أن تنطلق تجاه السماء، وكأنّ الشمس نفسها سقطت على الأرض وأرسلت أشعتها الجليلة في كل الاتجاهات، ومع أنني كدت أصرخ من قبل إلا أنني لا أستطيع الآن سوى فتح فمي في صمت رعبًا من المشهد المرعب.

لكن ماذا عن والد الفتاة؟!

لا يمكنني أن أنسى النظرة على وجه يوشيهيد في ذلك اليوم، لقد هَمّ إلى العربة بعفوية ولكنه تراجع عندما تأجج اللهب ثم وقف هناك ويداه ممدودتان وعيناه تلتهمان اللهب والدخان اللذين غلفا العربة، وفي ضوء النار الذي غمره من رأسه حتى أطراف قدميه فأمكنني رؤية كل

ملامح وجهه المجعد القبيح، وعينيه المحدقتين، وشفتيه الملتويتين، وخديه المرتعشين كلها ترسم صورة الرعب والصدمة والأسى التي اعترت قلب يوشيهيد مثل هذا الكرب! لا أظنك تراه حتى على وجه لص مُدان على وشك مواجهة حكم ملوك الجحيم العشرة حتى محارب الساموراي القوي بدا باهتـًا من المنظر واسترق النظر إلى اللورد.

لكن ماذا عن اللورد نفسه؟! يعض شفتيه ويبتسم بطريقة غريبة بين الحين والآخر، محدقـًا إلى الأمام ولا يبعد عينيه عن العربة.

أما الفتاة في العربة -آآآآه- لا أظن أن لدي الشجاعة لأصف تفاصيل مظهر الفتاة البياض الباهت لوجهها بينما تختنق من الدخان، شعرها الطويل الذي حاولت هزه لإبعاد اللهب عنه، واللهب يلتهم رداءَها الكرزي الجميل، لقد كان مشهدًا قاسيًا بل رهيبًا خاصة عندما هبّت رياح الليل مسرعة من الجبل طاردة الدخان بعيدًا فبدا مظهرها واضحًا في مقابلة الخلفية النارية الحمراء المرقطة بالغبار الذهبي وهي تقرض كمامتها وتتلوى بينما تطقطق السلاسل كل هذا كان كافيـًا لجعل أبداننا تقشعر -ليس أنا فقط بل أيضًا محارب الساموراي القوي- وكأن عذاب الجحيم يمثل أمامنا على الأرض.

حينها هبت رياح قوية مرة أخرى مصدرة حفيفًا من أغصان الشجر، وبدا لي الصوت يتسارع عبر السماء المظلمة في تلك اللحظة هبط شيء أسود من على سطح

القصر في خط مستقيم إلى العربة المتأججة ككرة مقذوفة دون أن تلمس الأرض أو تنحني في الهواء، بينما كانت جوانب العربة تنهار للداخل متوهجة كأنها مغلفة بورنيش قرمزي، أمسك الشيء بكتفي الفتاة مصدرًا صراخًا أليمًا لا يُوصف من وراء موجة الدخان تلاه صرخة ثانية وثالثة حتى وجدنا أنفسنا نصرخ معه، ورغم اعتقادي أنه ترك وراءنا في القصر إلا أن ما نراه معلقًا بكتفي الفتاة هو يوشيهيد القرد.

(١٩)

كان بإمكاننا رؤية القرد للحظة قصيرة فقط حتى غطته نافورة من الشرر هو والفتاة تصاعدت نحو السماء بدت كالغبار الذهبي المغلف بورنيش أسود، لم يبق الآن في وسط الحديقة سوى العربة التي تطهى في اللهب مصدرة هديرًا رهيبًا، لا، "عمود من النار" هو الوصف الأدق للحريق الرهيب الصاعد إلى السماء المليئة بالنجوم.

يا إلهي، كم كان غريب رؤية الرسام الآن وهو يقف متيبسًا أمام عمود النار!! يوشيهيد –الذي بدا منذ قليل أنه يعاني عذاب الجحيم– وقف هناك ويداه متقاطعتان أمام

صدره وكأنه نسي كل شيء حتى وجود اللورد، ووجهه المجعد مشبع الآن بوهج لا يوصف –أكاد أقسم أن عيني هذا الرجل لم تعودا تريا ابنته وهي تموت من العذاب– بل إن الألون الرائعة للهب ومظهر المرأة التي تعاني خلاله كان يعطيه بهجة لا تضاهى.

لم تكن مشاهدته لابنته تموت بهذه البهجة الواضحة هي أغرب ما في الألم، ولكن كون يوشيهيد في تلك اللحظة مسكونـًا بجلالة غير آدمية تشبه ملك الوحوش نفسه كما يمكنك أن تراه في أحلامك، ولذلك –على الرغم من أن هذا قد يكون محض خيالي– بدت طيور الليل العديدة التي تحوم حولنا وتصدر أصواتـًا محذرة مع كل انفجار جديد للهب وكأنها تبقي على مسافة بينها وبين قبعة يوشيهيد السوداء الطويلة، ربما كان بإمكان تلك الطيور أن ترى الهالة المشعة من العظمة الغامضة التي تحيط بيوشيهيد.

مرتعشين من الداخل وبالكاد يمكننا التنفس فقد أبقينا أعيننا مثبتة على يوشيهيد ويملأنا شعور غريب بالهيام كأننا في اللحظة الحاسمة التي تتحول فيها صخرة أو قطعة من الخشب إلى صورة بوذا المقدسة ملأ لهيب العربة السماء بالهدير وبدا يوشيهيد كأنه تحت تعويذة ما، يا للسماء! يا للذهول! ولكن بيننا واحد فقط بدا كأنه تحول إلى شخص آخر، عظمة اللورد؛ فملامحه النبيلة استنزف منها اللون، والرغوة تتجمع في جوانب فمه، ويداه تطبقان على ركبتيه فوق بنطاله، وراح يلهث كوحش بحاجة للماء.

(٢٠)

انتشر خبر إحراق اللورد للعربة تلك الليلة في قصر الثلوج الذائبة، وبدا أنّ الكثيرين انتقدوا الحدث، في البداية كان السؤال "لماذا ابنة يوشيهيد؟ لماذا اختارها لإحراقها حية؟". كانت الإشاعات الأكثر انتشارًا أنه فعل ذلك بسبب رفضها لحبه، ولكنني متأكدٌ أنه فعل ذلك ليعاقب الرسام الذي ذهب إلى حد إحراق عربة وقتل إنسان ليكمل رسم شاشة الجحيم، وأعتقد أنني سمعت اللورد يقول شيئًا من هذا القبيل.

كما كان قلب يوشيهيد الحجري موضع تعليقات سلبية كثيرة، فكيف يمكنه أن يرغب في إكمال اللوحة بعد أن رأى ابنته تُحرق حية؟! لعنه الكثيرون واعتبروه وحشًا متجسدًا في مظهر إنسان نسي حبه الأبوي في سبيل فنه، وأحد الذين تبنوا هذا الرأي كان جلالة رئيس دير يوكاوا والذي اعتاد القول عن يوشيهيد: "رغم تميزه في فنه فإنّ رجلاً لا يعرف الفضائل الخمس لا يمكن أن ينتهي إلا في الجحيم".

مرّ شهرٌ الآن، وانتهت الشاشة بكل صور الجحيم التي تحويها فأحضرها يوشيهيد إلى القصر ذات يوم وقدمها بتواضع للورد وكان جلالة رئيس الدير في زيارة في ذلك

الوقت وأنا متأكدٌ أنه صُعِق من رؤية إعصار النار يعصف خلالها؛ فقد كان ناقمًا على يوشيهيد حتى رأى اللوحة ولكن عندها صفع ركبتيه وقال متعجبًا: "يا للعمل البهي!". لازال بإمكاني رؤية الابتسامة المرة على وجه اللورد عندما سمع تلك الكلمات.

لم يتحدث أحد بالسوء عن يوشيهيد تقريبًا بعد ذلك – على الأقل ليس في القصر– هل يُعقل أن يكون ذلك لأن كل من شاهد هذه اللوحة –حتى الذين لطالما كرهوه– صُعقوا من غرابة المشاعر المهيبة التي اعترتهم من مشاهدة عذاب الجحيم وناره المستعرة في كل واقعهم؟!.

وبعد ذلك غادر يوشيهيد عالم الأحياء؛ ففي الليلة التالية لإنهائه شاشة الجحيم ربط حبلاً بدعامة في غرفته وشنق نفسه. إنني أعتقد أنه لم يعد يحتمل أن يعيش كأن شيئًا لم يحدث بعدما أودى بحياة ابنته.

يرقد جسده مدفونًا تحت أطلال منزله لابد أن شاهد قبره الآن مغطى بالطحالب بعد سنوات من التعرض للرياح والأمطار حتى إنّ أحدًا لم يعد يميز أصحاب تلك القبور.

obeikandl.com

obeikandl.com

التنـيـن

قال أوجي ديناجون تاكاكوني: "عندما استيقظت من حُلم رأيته أثناء القيلولة، شعرت بأن اليوم شديد حره، ولا توجد حتى نسمةٌ تتمايل معها زهور الستارية المتدلية من أشجار الصنوبر، لم تهب حتى رياح تخفف من شدة الحرارة، حتى صوت النبع الذي طالما أشعرني بالانتعاش خالطه صوت الزيزان مما أضاف إلى الجو مزيدا من الحرارة، والآن سأجعل الخدم يلطفون الجو بالمراوح"

"طوع أمرك سيدي؟

تجمع عامة الناس؟

حسنا سأذهب للقائهم الآن

وأنتم أيها الخدم اتبعوني ولا تنسَوا أن تجلبوا لي المراوح الكبيرة"

"أيها الناس: أنا أدعى تاكاكوني، أرجوكم اعذروني على تخفيف ملابسي"

"اليوم لدي ما أطلبه منكم، ولذلك جعلت عربتي تتوقف عند مقهى أوجي، إنني لأفكر في أن أكتب كتابا كما يصنع الآخرون، ولكن لسوء حظي فإني لا أعرف قصصا جديرة بالكتابة، وحيث إنني شخص كسول فإنه يعجزني أن أؤلف قصصا من وحي خيالي، ولذلك فأنا أنوي اليوم أن أجعلكم تقصون عليَّ قصص العهود القديمة، لكي أدونها في كتابي، وبما أنني موجود على الدوام في البلاط الامبراطوري، فإنني سأستطيع بفضلكم أن أجمع قصصا كثيرة لا حصر لها،

فهل ستقومون بمساعدتي على الرغم من أن طلبي يشق عليكم؟"

"ماذا؟

ستلبون طلبي؟ أشكركم على هذا، والآن فلنبادر في الحال إلى الاستماع إلى القصص، الواحدة تلو الأخرى، أيها الفتية، روحوا بمراوحكم الكبيرة ليعم الهواء كل أرجاء المجلس، عسى هذا يشعرنا بالانتعاش قليلا، أنت يا صانع الحديد وأنت يا صانع الخزف، لا تترددا، اقتربا من مكتبي، وأنتِ يا بائعة السوشي لو كانت الشمس حامية على بضاعتك فضعيها في ركن الشرفة، وأنت أيها الكاهن، ما رأيك في أن تضع عنك طبلك الذهبي هذا، وأنت يا محارب

الساموراي، وأنت أيها الكاهن الجبلي، هل انتهيتما من بسط حصيركما؟"

"حسنا الآن وقد نظمنا المجلس، فابدأ أنت يا صانع الخزف بما أنك الأكبر سنا، ارو لنا قصة مفضلة إليك".

أجابه العجوز:

"أشكرك يا سيدي على تحيتك المهذبة لنا وإني في غاية الامتنان أن تكتب قصة رجل متواضع مثلي في كتابك، وإني إذا ما رفضت فسيثير ذلك حفيظتك، لذلك سأسمح لنفسي أن أروي على مسامعكم قصةً حمقاء، أرجو أن تتفضلوا بالإنصات إليَّ لبعض الوقت وإن كانت مملة إلى حد ما.

عندما كنت في ريعان شبابي، كان يقطن راهب بوذي في نارا يدعى كورودو توكوجو، وكان أنفه كبير بشكل ملحوظ، زد على ذلك أن أنفه كان شديد الاحمرار طُوال العام وكأنما لدغته نحلة، ولهذا فقد قام أهل نارا بإطلاق اسم "كورودو توكوجو ذو الأنف الكبير" ثم بدا لهم أن الاسم كان طويلا، فأصبحوا ينادونه باسم "كورودو الأنف"، وبعد فترة شعروا أن اللقب لايزال طويلا، فآل بهم الأمر إلى أن يدعوه "هانازو"، ولقد سبق لي وأن رأيته بنفسي مرتين في معبد كوفوكو في نارا، كان يحمل أنفا يستحق أن يُسخر منه بتلقيبه بهانازو فقد كانت حمراء بشكل غير مألوف، ينبغي للمرء أن يراها.

ذات ليلة ذهب هانازو (كورودو توكوجاو ذو الأنف الكبير) إلى بحيرة ساروساوا وحيدا دون اصطحاب أحد من

تلاميذه معه، جلس على ضفة البحيرة أمام شجرة صفصاف، كتب عليها لافتة بالخط العريض " سيخرج تنين من هذه البحيرة في اليوم الثالث من شهر مارس" وقام بتثبيتها في الأرض، ولكنه في حقيقة الأمر لم يكن يدري إذا ما كان هناك تنين يعيش في بحيرة ساروساوا أم لا، أضف إلى ذلك أن خروج تنين في الثالث من مارس كان خدعة كاذبة، كان الأمر سيكون أوقع لو قال لن يصعد تنين إلى السماء، كان السبب وراء تصرفه غير الضروري هذا هو أنه أراد أن يلحق الأذى برهبان نارا الذين اعتادوا على السخرية من أنفه وقد حان دوره ليسخر منهم ويضحك من أعماقه، وعندما سمع علية القوم بهذا تزمروا، ولكنها قصة قديمة وكان الناس في ذاك الزمان كثيرا ما يقومون بتلك الحيلة.

في اليوم التالي كان أول من رأى هذه الورقة امرأة عجوز اعتادت على المجئ للصلاة في معبد كوفوكو كل صباح، متكئة على عصا من الخيزران وفي يدها سُبحة، اقتربت من حافة البحيرة التي كان الضباب لايزال يحيطها، وانتبهت للافتة التي لم تكن بالبارحة، تعجبت من وجود لافتة تعلن عن دروس بوذية في مثل هذا المكان الغريب، ولكنها كانت أمية ولم تستطع قراءة اللافتة، كانت على وشك تجاوزها عندما رأت راهبا مارا بالطريق ملتفا برداءه فطلبت منه أن يقرأ لها اللافتة، فإذا بها:" سيخرج تنين من هذه البحيرة في الثالث من شهر مارس" فتملكتها الدهشة، صُدمت العجوز، وردت ظهرها المنحني وتساءلت:

"هل يوجد تنين يعيش في هذه البحيرة"

رفعت رأسها ونظرت إلى وجه الراهب الذي كان هادئا على عكس المتوقع، فقال لها:

"يحكى أنه في عهد ما مضى، كان لأحد العلماء الصينين ورم فوق حاجبه، وكان يشعر بالحكة الشديدة، وذات يوم غيمت السماء فجأة وانهمرت أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد، وانفجر الورم مصدرا صوتا، وخرج منه تنين أسود عرج إلى السماء يخترق السحاب، فلو كان تنين قد وجد في مثل هذا الورم فليس من العجيب أن تحيا عشرات التنانين في قاع بحيرة كبيرة كهذه" هكذا فسر لها الراهب الأمر.

أما المرأة العجوز فقد كانت تعتقد أن الرهبان لايكذبون ولذلك فقد قالت بشجاعة:

"فهمت إذا، حتى أن لون الماء هناك يبدو مريبا"

ولأن اليوم الثالث من شهر مارس لم يأت بعد، فقد خلفت الراهب ورائها ورحلت مسرعة لاهثة وهي تتكئ على عصا الخيزران وتتلو الصلوات.

أما الراهب فلولا وجود الناس حوله لانفجر من الضحك، حيث إن هذا الراهب هو نفسه كورودة توكوجاو الملقب بهانازو، كان يتنزه حول حافة البحيرة، فقد جال بباله أن لافتته التي ثبتها البارحة قد قنصت بعض الفرائس، وبعد أن رحلت العجوز، وجد امرأة مسافرة قد خرجت مبكرة ومعها خادم يحمل لها أمتعتها، ترتدي ثيابا مزركشة برسوم الحشرات، أخذت تقرأ اللافتة من تحت قبعتها المصنوعة من نبات البردي، بذل الراهب جهدا كبيرا ليكتم ضحكاته، ووقف أمام اللافتة يتظاهر بأنه هو أيضا يقرؤها،

تظاهر ذو الأنف الأحمر الكبير بأنه تعجب لهذا الكلام، وعاد متمهلا إلى معبد كوفوكو.

التقى هانازو صدفة براهب يدعى ايمون أمام بوابة المعبد الجنوبية الكبيرة (نان داي مون) يقطن معه في الغرفة نفسها، عندما قابله قال له ايمون ضاما حاجبيه السمكين غزيرَي الشعر:

"لقد استيقظت اليوم مبكرا على غير العادة هناك احتمالية لأن يتغير الجو"

رد هانازو بحكمة وبراعة مطيلا أنفه

"نعم حقا ربما يتغير الجو.

سمعت أن تنينا سوف يصعد إلى السماء من بحيرة ساروساوا في الثالث من شهر مارس"

قالها ونظرة الانتصار بادية على وجهه، رمق ايمون هانازو بنظرة يملؤها الشك، وسرعان ما تنحنح وقال ساخرا:

"يبدو أنك رأيت حلما طيبا فقد سبق لي أن سمعت أن رؤية تنين يصعد إلى السماء هي علامة طيبة"

وهمَّ ايمون بتجاوز هانازو رافعا رأسه التى تشبه الوعاء المفتوح، ولكنه سمع تمتمة هانازو وهو يحدث نفسه

"إن هؤلاء الذين لا يستمعون للآخرين لا يمكن نجدتهم بعد ذلك"

التفت إلى الوراء على كرهٍ، وكادت دعامات نعله الخشبي المصنوع من نبات القنب تنثني، عندها سأل هانازو بلهجة قوية وكأنه سيدخل معه في جدال ديني

"هل لديك دليل على أن تنينا سيصعد إلى السماء؟"

عندها تمالك هانازو نفسه وأشار نحو البحيرة التي كانت الشمس قد بدأت في إلقاء ضيائها عليها

"لو كان عندك شك فيما أقول فاذهب واقرأ اللافتة المثبتة عند شجرة الصفصاف بالقرب من البحيرة"

خفف إيمون العنيد قليلا من موقفه العدائي، غمز بعينه من تأثير ضوء الشمس الذي زغلل عينيه

"لم يخب ظني، لابد أنه أنت من قام بوضع هذه اللافتة" أسمعه هذه الكلمات غير مهتم، وانصرف سائرا في طريقه، أمال رأسه التى تشبه الوعاء وقد بدا عليه أنه يفكر في شئ ما، ولكم أن تخيلوا كم كان الأمر مسليا وهو يراه يبتعد، أحس برغبة في حكِّ أنفه ولم يستطع أن يكتم ضحكه فانفجر به وهو يصعد السلم الحجري للبوابة الجنوبية الكبيرة.

أحدثت هذه اللافتة التى تركها ضجة كبيرة والتى تقول: إن تنينا سيخرج من هذه البحيرة ، وبعد يوم أو يومين أصبحت إشاعة تنين بحيرة ساروساوا حديث المدينة بأسرها، قال البعض: "لابد وأنها مزحة سخيفة وضعها أحدهم" ولكن كانت قد انتشرت في كيوتو أيضا قصة تنين شنسن إين الذي صعد إلى السماء، مما جعل هؤلاء المكذبين يترددون بين تصديق ماورد في اللافتة وتكذيبه، وأن مثل هذه الواقعة قد تتحقق في وقت ما، حدثت بعد ذلك واقعة غريبة غير متوقعة، فقد جاء راهب كان يخدم في معبد كاسوجا إلى المدينة مع ابنته التى ستتم تسع سنوات في أقل من عشرة أيام، وفي ذات ليلة افترشت الفتاة حجر

أمها ونامت عليه، عندها هبط تنين اسود كالسحابة من السماء وحدثها بلغة البشر

"لقد تقرر صعودي إلى السماء في اليوم الثالث من شهر مارس، ولكني لا أريد أن أضايق أهل مدينتكم على الإطلاق، فرجاء اطمئنوا، عندها استيقظت الفتاة وروت حلمها لأمها، وأثار الحديث عن حلم هذه الفتاة بتنين بحيرة ساروساوا ضجة كبرى في المدينة.

ثم بالغوا في رواياتهم فظهرت قصص عن طفل مسه تنين وجعله يلقي شعرا، وقصص عن راهب ظهر له تنين وعلمه شيئا من الوحي، كانت الجلبة الناتجة عن هذه القصص تضاهي أن لو كان التنين قد ظهر بالفعل على سطح الماء، لا بل ووصل الأمر أيضا إلى حد أن رجلا قد ادعى أنه رأى تنينا حقيقيا بأم عينه، كان هذا الرجل قد اعتاد الذهاب كل صباح إلى السوق لبيع السمك، وفي فجر ذلك اليوم اقترب من بحيرة ساروساوا حيث وضعت اللافتة تحت شجرة الصفصاف، رأى ماء البحيرة يلمع بتألق خافت قبل انقشاع الظلام كله، كان ذلك هو الوقت الذي ترددت فيه الشائعات عن خروج التنين، فاعتقد أن التنين قد خرج من البحيرة بالفعل، ارتعدت فرائسه من الفكرة السعيدة من جانب والمروعة من الجانب الآخر، تشبث بشجرة الصفصاف وحاول أن ينظر من خلال مياه البحيرة لما رأى شيئا مريبا يشبه سلسلة سوداء تستقر في قاع البحيرة المتألقة بصورة باهتة، ولكن هذا الشئ ربما يكون قد خاف من الصوت البشري فبسط ثناياه واختفى

في لمح البصر في مكان ما ، غمر العرق كل جسد الرجل الذي شهد هذا الموقف، ذهب الرجل يتفقد أسماكه فقد كان يحمل نحو عشرين سمكة من الشبوط والأنقليس، فإذا به يفاجئ أن أسماكه قد اختفت، أصبحت هذه القصة أضحوكة للبعض الذين أخذوا يقولون: "ربما خدعته قضاعة عجوز"، ولكن الكثيرين قالوا: "إنه لمن المستحيل أن تعيش قضاعة في بحيرة يحكمها تنين ملك، لابد أن التنين الملك قد أخذته الرأفة بالأسماك واستدعاها إلى البحيرة، أصبحت لافتة هانازو التي تقول: "في الثالث من شهر مارس سيخرج تنين من هذه البحيرة" موضوعا للمزيد والمزيد من الأقاويل، أما هانازو فقد أخذ يضحك بشدة وهو يداعب أنفه الكبير.

وعندما اقترب موعد حلول الثالث من مارس وتحديدا قبلها بأربعة أو خمسة أيام فاجأته عمته وهي راهبة في معبد ساكوراي بمدينة سيتسو أنها ستأتي لمشاهدة صعود التنين قاطعة الطريق الطويل إلى نارا، حاول بشتى الطرق أن يقنعها بالعودة إلى ساكوراي فأخذ يخوفها تارة ويخدعها تارة، ولكنها رفضت الاستماع إليه قائلة

"أنا امرأة عجوز تقدم بي العمر، ولو استطعت أن أرى شكل التنين الملك ولو لوهلة واحدة فسأموت سعيدة"

عندهل لم يستطع أن يعترف أنه هو نفسه الذي قام بوضع هذه اللافتة بغرض العبث مع الناس، ولم يكتفي فقط باستضافة عمته حتى الثالث من شهر مارس فحسب، بل وعدها أيضا بأنه سيصحبها لرؤية المكان الذي سيصعد

منه التنين عندما يحل اليوم الموعود، وإذا ما فكرنا في أن شائعة التنين قد وصلت حتى عمته الراهبة في ساكوراي فإنها وبلا شك قد انتشرت بدأ من سيتسو، إيزومين كاوااوتشي، ووصولا إلى هاريما، ياماشيرو، أومي، وتامبا، ناهيك عن انتشاره في ياماتو نفسها.

أسفرت خدعته الخبيثة التى كان قد بدأها مستهدفا أهل نارا عن خداع عشرات الألوف من الناس في شتى أنحاء البلاد، عندما فكر بهذا تملكه شعور بالانزعاج الشديد فاق شعوره بالسعادة، بينما استمر في إطلاع عمته على معابد نارا مان يشعر بالذنب لفعلته وكان يتخفى من مفوضي الشرطة شأنه كشأن المجرمين، ومن ناحية أخرى فبعيدا عن شعوره بالاستياء تملكه شعور بالسعادة عندما علم أن الزهور والبخور يقدمان أمام اللافتة.

مرت الأيام سريعا وحل اليوم الموعود، الثالث من مارس، يوم صعود التنين إلى السماء، ولما كان لا يستطيع التملص من وعده لعمته فقد اصطحبها إلى قمة الدرج الحجري للبوابة الجنوبية الكبيرة لمعبد كوفوكو المطل على بحيرة ساروساوا، كان يوما صافيا، ولم تكن هناك رياح يمكنها أن تقرع ناقوس الريح عند البوابة، تجمع المشاهدون الذين كانوا يتوقون لهذا اليوم فلم يكونوا من أهل نارا فقط بل كان منهم من أتى من كاوااوتشي، إيزومي، سيستو، هاريما، ياماشيرو، أومي، تامبا وغيرها

نظر من قمة الدرج الحجري فشاهد على مد البصر بحرا من البشر يمتد شرقا وغربا حتى نهاية الطريق الكبير المؤدي

إلى نيجو في الأفق البعيد الذي خيم عليه الضباب، تموجت قبعاتهم مصدرة صوت حفيف، وانتشرت عربات تجرها الأبقار مزينة بشرائط حمراء أو زرقاء أو بظلال ذهبية عالية الذوق وسط أمواج البشر المحيطة، وقد زُينت أسقفها باللونين الفضي والذهبي مما جعلها تتألق في سنا الشمس الربيعية على نحو يبهر العيون، كان بعض الناس قد نصبوا مظلات لتقيهم الشمس، ونصب البعض منهم خياما، وأقام آخرون أكشاكا، كان مشهد المنطقة حول البحيرة يبدو كما لو أنه كان موسم مهرجان كامو على الرغم من أنه لم يكن، أما الراهب هنازو فلم يكن يعتقد حتى في أحلامه أن لافتته هذه ستسبب كل هذه الضجة.

استدار إلى عمته وقال لها بدهشة كبيرة

"يالها من جموع حاشدة"

جلس القرفصاء عند قاعدة عمود البوابة الجنوبية الكبيرة، دون أن يكون لديه أية طاقة حتى ليأخذ أنفاسه، بالطبع لم يكن في وسع عمته أن تقرأ ما يدور بخلده من خواطر وأفكار، مدت رقبتها بشدة حتى كاد غطاء رأسها أن ينزلق، أدارت بصرها في المكان وأخذت تثرثر بلا توقف موجهة كلامها إلى هانازو

"إن مشهد بحيرة التنين الملك لرائع حقا، الآن وقد تجمعت كل هذه الحشود لا بد وأن التنين سيظهر لهم، ألا تعتقد ذلك"

لم يستطع هانازو أن يبقى جالسا عند قاعدة العمود، فنهض مترددا ليجد جموعا من الناس على الدرج الحجري

يعتمرون قبعات منها المجعد ومنها المثلث، في وسط الجموع رأى زميله الراهب إيمون برأسه التى تشبه الوعاء المفتوح تعلو بشكل واضح فوق الروؤس، كان يتطلع بانتباه إلى البحيرة، عندما رأه نسي فجأة شعوره التعس، داعبه شعور بالغرابة انتابه عندما علم أنه استدرج حتى هذا الزميل، ناداه قائلا

"أيها الراهب"

"هل جئت إلى هنا لمشاهدة التنين"

استدار إيمون إلى الخلف و اتخذ لنفسه مظهرا جادا على غير المعتاد وأجابه دون أن يحرك حاجبيه الأسودين الغليظين

"نعم، إنه يتمهل في الخروج إلينا"

عندها أحس هانازو بأن حيلته قد أدت أكثر مما يفترض بها أن تفعل، وحيث أنه لم يعد بإمكانه أن يخرج صوال فقد مضى ينظر من أعلى إلى بحيرة ساروساوا التى تجمعت من حولها الحشود، وهو في حالة من الشرود، تعتلي وجهه نظرة الوحدة التي طالما سيطرت عليه، بدا ماء البحيرة فاترا، يعكس على سطحه صورة واضحة لأشجار الكرز والصفصاف، لم يكن منظرها يوحي بأن تنين أو ما شابه سوف يخرج منها، حتى أنها كانت في هذا اليوم تبدو أصغر

من المعتاد مما يوحي بأن وجود تنين فيها هو كذبة بلهاء، ربما يرجع هذا للجموع المتزاحمة حولها لمسافات بعيدة في كل الاتجاهات.

انتظر جميع المشاهدين بطول بال كاتمين أنفاسهم وكأنما لم يشعروا بمضي الوقت، ومع مضي الوقت اتسع بحر البشر أسفل البوابة أكثر فأكثر، وزاد عدد العربات التي تجرها الأبقار، لدرجة أن محاور بعضها ارتطم بمحاور البعض الآخر، ربما يكون من الممكن من هذه الصورة استشعار مدى البؤس الذي شعر به هانازو حيال ذلك المشهد، وعندئذ وقع شئ غريب، فقد بدأ هانازو يشعر من أعماقه أن التنين قد يصعد بالفعل، فقد كان من البداية لا يستبعد كاية فكرة صعود التنين، بالطبع لم يكن يجدر به أن يفكر بمثل هذه الطريقة الساذجة فهو الذي وضع اللافتة بنفسه، ولكنه عندما أخذ في التطلع إلى بحر القبعات القابع بالأسفل بدا يشعر بأن أمرا جليلا كهذا قد يحدث بالفعل، ربما يكون هذا بسبب انتقال مشاعر الحشود إليه، أو ربما يكون هذا نابعا من شعوره بالذنب، ففي النهاية إنها حيلته التى أدت إلى كل هذه الضجة، وإنه ودون أن ينتبه إلى ذلك بدأ يتمنى من أعماقه أن يصعد تنين من البحيرة حقا، وعلى الرغم من يقينه التام أنه هو من كتب تلك الجملة على اللافتة، فإن شعوره بالبؤس قد انحسر تدريجيا، وأخذ يحدق في سطح البحيرة بانتباه مثل عمته، ولو لم يتنامى إليه هذا الإحساس ما كان ليستطيع أت يظل واقفا بلا حيلة تحت البوابة الجنوبية الكبيرة طوال اليوم في انتظار صعود

التنين.

لكن بحيرة ساروساوا ظلت على حالها، دون أن يتخللها تموج واحد، تعكس سنا الشمس الربيعية، كانت السماء صافية بشكل مبهج لاتشوبها شائبة من سحاب، أما المتفرجين فقد استمروا في التزايد تحت المظلات والخيام وأعمدة الأكشاك، مضوا ينتظرون لحظة خروج التنين ويمنون أنفسهم باقترابها غير شاعرين بمرور الوقت من الصباح إلى الظهيرة إلى المساء.

وبعدما مر نحو نصف يوم منذ وصول هانازو إلى المكان ظهر في السماء خيط رفيع من الغيام وكأنه دخان متصاعد من عود بخور، أخذ يكبر ويكبر، وفجأة اعتمت السماء التى كانت صافية حتى تلك اللحظة، هبت دفعة من ريح راسمة أمواجا على سطح البحيرة الذي كان ساكنا كالمرآة، وفي غمضة عين انهمر مطر مدرار على المشاهدين ولم يترك لهم فرصة الهروب هنا أو هناك، ثم أخذ الرعد يدوي فجأة، وتوالت ومضات البرق الواحدة تلو الأخرى، ثم بدا وكأن يدين متشابكتين تمزقان مجموعة من السحب، وفي غمار قوتهما رفعتا ماء البحيرة كعمود في السماء، في تلك اللحظة تحديدا لمحت عينا هانازو مشهدا يصعب معرفة أحقيقة هو أم خيال، فقد رأى تنينا أسودا يزيد طوله عن الثلاثة أمتار يفرد مخالبة الذهبية، رآه وهو يصعد إلى السماء من بين رذاذ الماء والسحاب، وبعد ذلك شوهدت براعم الكرز تتطاير حول البحيرة في السماء القاتمة وسط العاصفة، ولا يلزمنا القول بأن المشاهدين الذين سيطر

عليهم الاضطراب قد أسرعوا في الابتعاد مشكلين موجات بشرية تماثل تموجات البحيرة.

توقف المطر المدرار وبدأت السماء الزرقاء تظهر من بين السحب، أخذ هانازو ينظر لكل من حوله متناسيا أنفه الكبيرة، هل خانته عيناه فيما رأى، إنه هو الذي كتب اللافتة، وكان يعتقد أنه أمر غير ممكن، هل رآه حقا أم هُيئ له، سيطر عليه الفكر ولم يعد بإمكانه أن يتحمل أكثر من هذا، استدار لعمته التى كانت ممدة أسفل العمود المجاور له أقرب للموت، وسألها بجبن "هل رأيت التنين"

تنهدت عمته التي غمرها الذهول لوهلة، لم يسعها سوى أن تكرر إيماءها بالموافقة، وقالت في صوت مرتعد

"نعم لقد رأيته، ألم يكن تنينا أسودا ذو براهن ذهبية؟"

إذن لم يكن هو فقط الذي رأى التنين، ذاع بعد ذلك في أرجاء البلاد أنه في ذلك اليوم شاهد الجميع شيبا وشبانا رجالا ونساء تنينا يصعد إلى السماء من وسط الغيوم.

في وقت لاحق اعترف هانازو أن اللافتة لم تكن سوى خدعة ماكرة منه، ولكن يبدو أن أحدا من زملائة قد صدق اعترافه، وعلى رأسهم ايمون، حسنا هل أصابت خدعته هدفها أم لا، لا شك أنه حتى هو سيعجز عن الإجابة عن هذا السؤال.

قال أوجي دينجون تاكاكوني

"يالها من قصة مثيرة حقا، لقد كانوا يعتقدون قديما أن تنينا يقطن في قاع بحيرة ساروساوا، ماذا؟ لا تدري إذا كانت هذه حقيقة أم لا، بلى لابد أنه قد اقام في البحيرة في ذلك

العهد، كان جميع البشر قديما يعتقدون من كل قلوبهم أن التنانين تقيم في قاع البحيرات، وهكذا كانت التنانين تحلق بين السماء والأرض، واعتقد أنها في بعض الأحيان اتخذت هيئات غامضة كالآلهة، والآن أفضل أن استمع إلى قصص أخرى بدلا من تضييع الوقت في الجدال، أعتقد أنه دور الراهب الرحال"

"ماذا؟ قصتك تدور حول راهب طويل الأنف في معبد زنتشي بإيكي نو أو؟ ستكون مثيرة حقا بعد قصة هانازو، اسمعنا قصتك في الحال"

obeikandl.com

الإلـه أجونـي

(١)

وقعت هذه الأحداث في شنغهاي بالصين، كان رجل أمريكي يبدو عليه أنه تاجر يتناقش مع امرأة هندية عجوز قبيحة في غرفة بالطابق الثاني في المنزل الذي كان مظلمًا على الرغم من أن النهار كان لايزال في منتصفه.

"في الواقع يا جدتي لقد جئت إليك لتقرئي لي طالعي".

قالها الأمريكي وهو يشعل سيجارًا جديدًا.

obeikandl.com

"طالعك؟ لقد قررت أن أتوقف عن قراءة الطالع بعض الوقت" نظرتْ إليه بحدةٍ ثم قالت ساخرة منه: "هذا لأنّ الكثيرين أصبحوا لا يكافئونني على نحو كافٍ مؤخرًا بالرغم من أنني بذلت جهودًا عظيمة من أجلهم".

"سأكافئكِ بالطبع" قالها دون أن يظهر أي مقاومة وألقى أمامها شيكـًا بثلاثمائة دولار ثم استأنف قائلا:

"خذي هذا الآن وإذا ما تحقق ما ستخبريني به فسأدفع لك المزيد".

أخذت العجوز الشيك على الفور وأصبحت أكثر رضوخـًا.

"آسفة على أنني طلبت الكثير، ما نوع المعلومات التي تريدها هذه المرة؟".

"أريد أن أعرف...".

ثم نفث دخان سيجاره أمامها قبل أن ترتسم على شفتيه ابتسامة حذقة قائلاً لها:

"متى ستندلع الحرب بين أمريكا واليابان، إن التاجرَ يمكنه أن يجني الكثير من الأموال إذا ما عرف هذه المعلومة الصغيرة".

"حسنـًا، تعال في الغد، حينها سأكون قد عرفت".

"حسنـًا، فقد احرصى على ألا تخطئي".

رفعت العجوز صدرها عاليـًا وقالت:

"إنّ تنبؤاتِي لم تخطئ مرة واحدة منذ خمسين عامًا، هذا لأنّ الإله أجوني قد جعلني عرافته".

وبعد أن رحل الرجل الأمريكي ذهبت العجوز إلى باب

الغرفة المجاورة ونادت:

"إرين! إرين".

خرجت فتاة صينية جميلة استجابة لندائها، كانت وجنتاها حمراوتين كالشمع الأحمر وكأنها تعاني من شيء ما.

"ما الذي أخركِ هكذا؟ إنك حقا أوقح فتاة على الإطلاق، هل كنت سارحة تحلمين في المطبخ ثانية؟".

وقفت إرين هادئة وصامتة خافضة رأسها مهما تلقت من توبيخ.

"اسمعي جيدًا، لقد مضى وقت طويل ولكنني سوف أستدعي الإله أجوني ثانية الليلة، وسأحتاجكِ في هذا".

رفعت الفتاة عينيها الحزينتين ونظرت إلى العجوز السوداء متسائلة: "الليلـة؟".

"نعم الليلة عند منتصف الليل، هل فهمتي؟ إياكِ أن تنسي" رفعت العجوز إصبعها مهددة.

"إذا سببتِ لي أي مصاعب مثل المرة السابقة سوف أنهي حياتك؛ لأنّ قتل فتاة مثلك سيكون أسهل من كسر رقبة عصفور صغير".

كانت المرأة العجوز تتلوى وهي تتحدث، وفجأة أدركت أن الفتاة قد ذهبت إلى النافذة وأخذت تحدق بالشارع المهجور بالأسفل.

"إلى ما تنظرين؟".

شحبت إرين ونظرت مرة ثانية إلى وجه العجوز.

"حسنـًا إذا كنت تريدين السخرية مني فإنّ هذا يعني أنكِ لم تنالي كفايتك من العذاب".

اشتعلت عينا العجوز بالغضب وأخذت تلوح بالمكنسة، وفي تلك اللحظة بالضبط اقترب شخص ما من الخارج ودقّ الباب بعنف.

(٢)

في ذلك الوقت من اليوم مـرّ رجل ياباني بالمنزل ورأى فتاة صينية تنظر من نافذة الطابق الثاني، عندما رآها وقف عاجزًا عن الكلام، عندها جاءه رجل صيني عجوز، فنادى عليه وسأله إذا ما كان يعرف مَنْ يقطن بالطابق الثاني بهذا المنزل أو لا يعرفه.

نظر الصيني إلى الأعلى فور سماعه سؤال الياباني المفاجئ، فسأله: "بالأعلى هنا؟" ثم أجابة على غير راحة: "نعم، امرأة هندية عجوز" وبدا أنه يريد أن يسرع بالابتعاد.

"أرجوك انتظر، ماذا تعمل هذه العجوز؟".

"إنها عرافة، ولكن الإشاعات تقول إنها تستخدم السحر، إذا كانت حياتك تهمك سيكون من الجيد ألا تقترب من هذه العجوز".

obeikandl.com

عندما رحل الرجل الصيني وقف الياباني ضامًا يديه يفكر في الأمر، وأخيرًا عقد العزم على الذهاب إلى المنزل، وبمجرد أن فعل سمع صوت توبيخ العجوز مختلطًا بصوت بكاء الفتاة الصينية، فأفزعه الصوت مما جعله يخطو خطواتٍ واسعةٍ على السلم ضعيف الإضاءة، ثم طرق الباب بكل ما أوتي من قوة.

فُتح الباب بعد وهلة قصيرة، ولكن الياباني لم يرَ سوى المرأة الهندية العجوز، لم يرَ ولو ظلاً أو خيالاً للفتاة الصينية، لا بد وأنها خُبئت في الغرفة المجاورة.

سألته العجوز وهي تحدق بوجهه متشككة قائلة له:

"ماذا تريد؟".

سألها الياباني ويديه مضمومتين:

"هل أنت عرافة؟".

"نعم، هذا صحيح".

"إذا لا ينبغي لكِ أن تسألي سؤالاً مثل هذا، لقد جئت لأسألك عن بعض النبوءات".

"ماذا تريد أن تعرف؟" سألته وقد ازداد ارتيابها.

"لقد اختفت ابنة سيدي في ربيع العام الماضي، وأريدك أن تعرفي...".

تحدث الياباني مؤكدًا على كل كلمة يقولها.

"إن سيدي هو قنصل اليابان في هونج كونج، وابنته تدعى تاإيكو، أما أنا فأُدعى إندو، ما قولك، أين الفتاة؟".

وبينما كان إندو يتحدث مدّ يده في معطفه وأخرج مسدسًا، أليست في هذا الجوار؟ وفقًا لتحقيقات شركة

هونج كونج فإنّ التي خطفتها هندية، لن يفيدك الإنكار شيئا".

ولكن لم تبدُ أي علامة من علامات الخوف على المرأة العجوز، على العكس لقد ابتسمت ابتسامة ساخرة قائلة له:

"عمّا تتحدث؟ لأم يسبق لي أن رأيت هذه الفتاة أو غيرها".

"إنك كاذبة، إنني متأكد من أنني رأيت تاإيكو تنظر من النافذة الآن، ظل إندو محتفظًا بالسلاح في يده وأشار بيده الأخرى إلى الغرفة المجاورة، فقط أحضري الفتاة الصينية من هناك ولا تكوني عنيدة".

ظلت المرأة تغمز له بابتسامة ساخرة قائلة:

"إنها ابنتي بالتبني".

"نظرة واحدة تكفي لنتأكد من هذا، إذا لم تحضريها هنا فسأدخل لأراها بنفسي".

وعندما هَـمّ إندو بالتوجه إلى الغرفة المجاورة وقفت المرأة العجوز في الطريق لتمنعه.

"هذا منزلي، لماذا ينبغي علي أن أُدخل شخصًا مثلك لا أعرفه ولم أره من قبل".

"ابتعدي عن طريقي، سأقتلك إذا لم تبتعدي".

رفع إندو سلاحه أو بالأحرى حاول أن يرفعه، ولكن العجوز في تلك اللحظة صرخت صرخة مصاحبة لصوت غراب أسود فضُرب الرجل بما يشبه صاعقة كهربائية، سقط سلاحه من يده، وحين ذلك شعر إندو الذي تحلى

بالشجاعة حتى تلك اللحظة بأن تلك الشجاعة تتسلل منه، ووقف للحظات ينظر حوله في رعب.

ولكنه استعاد شجاعته فجأة وهجم على العجوز كالنمر سابـًا إيّاها: "يا شمطاء".

ولكن العجوز لم تكن هدفـًا سهلا، فسرعان ما تنحت جانبًا ثم قبضت قيضة من تراب ونثرتها بوجه إندو عندما حاول الإمساك بها ثانية، وتحول التراب إلى ألعاب نارية علقت بعيني إندو وفمه حارقة وجهه، لم يستطع إندو تحمل هذه وهرع إلى الهواء الطلق.

(٣)

اقترب الليل من الانتصاف وكان إندو واقفـًا أمام منزل العجوز ينظر بإحباط إلى انعكاس الضوء على نافذة الطابق الثاني.

"الآن وقد استطعت أن أحدد موقع الفتاة سيكون من العار عليّ ألا أستطيع استرجاعها، ربما ينبغي عليّ الذهاب إلى الشرطة، لا، لقد سبق وأن يئست الشرطة في هونج كونج، إذا لم أستعد الفتاة هذه المرة سيكون من المستحيل إعادتها ثانية، ومع ذلك فإنّ السلاح لا يُجدي مع سحرها،

وبينما هو يفكر إذْ بورقة تسقط عليه من نافذة الطابق الثاني.

تمتم قائلاً:

"لقد سقطت قصاصة من الورق، أيعقل أن تكون رسالة من الفتاة؟".

التقط القصاصة وأضاءها بمصباح كان في جيبه، كان هذا ولا شك خط تاإيكو:

"يا سيد إندو، إن المرأة التي تقطن هذا المنزل هي ساحرة مخيفة، وفي بعض الأحيان تستدعي إلـهـًا هنديًا يُدعى أجوني ليحتل جسدي، عندما يكون هو المتحكم أكون أنا كالأموات ولذا فأنا لا أعلم ماذا يفعل، ووفقـًا لما تقوله فإنّ هذا الإله يستعير فمي ليخبرها بتوقعات عن أشياء مختلفة، وعندما ينتصف الليل الليلة ستستدعيه ثانية، في العادة أكون فاقدة للوعي وعقلي غائب ولكني اليوم سأتظاهر بأن سحرها قد جاء بمفعوله قبل أن يحدث ذلك، عندها أستطيع أن أخبرها أنّ الإله أجوني سيقتلها إذا لم ترجعني إلى والدي، من المؤكد أنها ستعيدني إذا ما سمعت هذا فهي تخشى هذا الإله أكثر من أي شيء أخر، أرجوك تعال مرة ثانية إلى منزل العجوز في صباح الغد، هذه الخطة هي الأمل الوحيد الذي قد يمكنني من الفلات من قبضة هذه العجوز، إلى اللقاء".

بعدما قرأ إندو الخطاب تفقد الساعة في جيبه فعرف أنه بقيت خمس دقائق على انتصاف الليل فكر قائلا: "لقد اقتربت لحظة الحسم، إن خصـمتها ساحرة قـوية وما هي إلا

طفلة صغيرة، إذا لم يحالفها الحظ...".

وقبل أن يُنهي إندو حديثه كان الوقت قد حلّ ليبدأ مفعول السحر، انطفأ الضوء في النافذة، وانبعثت رائحة غريبة في صمت إلى الشارع.

(٤)

جلست المرأة العجوز على طاولة في الطابق الثاني الذي أُطفئت أنواره، وأمامها كتاب سحر مفتوح تتلو منه تعويذة، استطاعت أن ترى كلمات التعويذة في الظلام عبر ضوء محرقة البخور.

جلست تاإيكو بفستانها الصيني أمام العجوز بلا حراك، متسائلة إذا ما كان الخطاب الذي ألقته من النافذة قد وصل بسلام إلى إندو أم لا، صحيح أنها قد رأت شخصًا في الشارع يبدو مثل إندو ولكن ماذا إن كانت مخطئة؟ شعرت أنها لا تستطيع التحكم في قلقها وأن هذا قد يُلفت انتباه الساحرة إليها ويدمر خطتها التي هي ملاذها الأخير للهروب من منزل الساحرة المخيف؛ لذا فقد قامت تاإيكو بضم يديها المرتعشتين ووضعت كل تركيزها كما خططت

obeikandl.com

مسبقـًا في انتظار اللحظة التي ستتمكن فيها من الإدعاء بأن الإله أجوني قد حضر.

وبعد أن انتهت العجوز من إلقاء التعويذة أخذت تحوم حول تاإيكو محركة يديها، في بعض الأحيان كانت تقف أمامها وترفع كلتا يديها، وفي أحيان أخرى كانت تأتي من خلفها وتضع يديها على رأسها لتغمض عينيها، إذا كان أحدهم قد رأى العجوز وهي تفعل ذلك لكان استحضر صورة وطواط يحوم حول الضوء الخافت لحرقة البخور.

في تلك الأثناء بدأت تاإيكو تستشعر الدوار الذي يراودها دائمًا، ولكنها كانت تعلم أن خطتها ستذهب هباءً إذا ما نامت، وإذا حدث هذا لن تكون لها أية فرصة في العودة إلى أبيها.

"يا آلهة اليابان أرجوكم امنعوني من الخلود إلى النوم، إذا ما فعلتم واستطعت أن أرى وجه والدي مرة ثانية ولو للحظة واحدة فسأكون مستعدة للموت حينها من أجلكم، أرجوكم امنحوني القوة، يا آلهة اليابان اخدعوا هذه المرأة بأي طريقة".

أخذت تردد هذا الدعاء في أعماقها مرات ومرات، ولكن الدوار زاد شيئـًا فشيئـًا، وفي الوقت نفسه كان هناك رنين في أذنها يشبة الجرس، وبدأت تسمع صوت موسيقى خافتة، كان هذا ما تسمعه دائمًا عند نزول الإله أجوني من السماء.

وبمجرد أن حدث ذلك لم يعد بإمكانها أن تبقى يقظة مهما حاولت، اختفت صورة المبخرة والسيدة العجوز من

أمامها مثلما يختفى الكابوس.

"يا أيها الإله أجوني احضر بناء على كلماتي".

وبمجرد أن نطقت العجوز هذه الكلمات اُجلست تاإيكو على كرسي وبدت أقرب للأموات منها إلى الأحياء.

(٥)

كانت تاإيكو والمرأة العجوز كذلك تظنان أنه لا أحد يراهما وهما يمارسان طقوس السحر هذه، ولكن في الحقيقة كان هناك رجل يقف خارج الغرفة يختلس النظر عبر ثقب الباب، يا ترى من يكون هذا الرجل، إنه وبلا داع للقول، الطالب إندو.

عندما قرأ إندو رسالة تاإيكو احتار فيما إذا كان يتوجب عليه الانتظار حتى الفجر، وعندما فكر في أمن الفتاة الصغيرة لم يستطع أن يبقى واقفًا في مكانه، فتسلل إلى المنزل مثل اللصوص وتحرك بانسيابية إلى الباب وأخذ ينظر.

ولأنه كان ينظر عبر ثقب الباب لم يكن باستطاعته سوى أن يرى تاإيكو التي كان وجهها يشبه وجه الجثة في

obeikandl.com

ضوء المبخرة الخافت، لم يستطع رؤية الطاولة أو كتاب السحر أو منظر الساحرة وهي ساجدة على الأرض.

لم يبدُ على تاإيكو أنها تتنفس، كما كانت عيناها مغلقتين، ولكنّ فمها بدأ في الحركة عندما قالت الساحرة: "يا أيها الإله أجوني احضر بناء على كلماتي"، ولكن الصوت كان صوتًا خشنًا رجوليًا وليس صوت تاإيكو الصغيرة بأي حال من الأحوال.

"لا لن أستجيبَ لطلبك، دومًا ما فعلته أعمالاً شريرة متجاهلة تعليماتي، سوف أتجاهلكِ بعد هذه الليلة، لا بل سوف أُعاقبك على أفعالك الشريرة هذه".

ذُهلت المرأة العجوز من هذا الكلام، ولم تستطع الحركة لوهلة ولكنها أصدرت صوت شهيق عالٍ، استمرت تاإيكو في الحديث دون أن تعيرها أي اهتمام.

"لقد خطفتي هذه الفتاة من بين يدي أبٍ حزين، إذا كنت تكترثين لحياتك أعيدي هذه الفتاة في الحال، ليس الغد، بل الليلة".

ضغط إندو عينيه على ثقب الباب منتظرا رد االعجوز، عندها وقفت االعجوز أمام تاإيكو مباشرة وضحكت ضحكة كريهة ربما قصدت بها أن تصدم الفتاة.

"يكفي هذا استهزاءً بي، لست ساذجة لدرجة أنكِ تستطيعي خداعي، أعيدي الفتاة في الحال؟ إنه ليس رجل شرطة، هل من الممكن أن يقول الإله أجوني شيئًا كهذا؟".

جلبت المرأة العجوز سكينًا من مكان ما ووضعته أمام عيني تاإيكو المغلقتين قائلة لها:

"اعترفي، لقد تماديتِ كثيرًا بمحاولتكِ لتقليد صوت الإله أجوني".

"لقد اقترب موعدكِ، هل يبدو صوتي كصوت إنسي؟ على الرغم من أنه الأهدأ إلا أنه صوت يبث اللهب في السماء، هل تعلمين ذلك؟ إذا لم تكوني تعلمينه فافعلي ما تشائين، أريد فقط أن أسألكِ سؤالاً واحدًا، هل ستعيدين الفتاة على الفور أم أنك ستخالفين تعليماتي؟".

وهنا ظهر التردد على العجوز، ولكنها فجاة استرجعت شجاعتها وأمسكت السكينة في يدها وجذبت تاإيكو من شعرها إلى الخلف.

"أيتها الشيطانة، مازلت تعانديني، إذًا سأقتلك في الحال كما وعدتك".

رفعت العجوز سكينها، إذا ما تأخر إندو لحظة أخرى فإنّ حياة تاإيكو ستنتهي، لذا ركع إندو على ركبتيه وحاول فتح الباب بشتى الطرق، ولكنّ الباب لم ينكسر بسهولة، ولكنه أخذ يدفعه ويطرقه إلا أنه لم ينجح سوى في خدش يديه.

obeikandl.com

(٦)

في تلك الأثناء دوت صيحة مفاجئة من الغرفة وتلا تلك الصيحة صوت ما بدا وكأن أحدهم قد سقط على الأرض، جُنّ جنون إندو وأخذ يصيح باسم تاإيكو دافعًا الباب مراتٍ عديدةٍ بكل ما أوتي من قوة.

صدر صوت تشقق الخشب واهتزاز القفل وفي النهاية كُسِر البابُ، ولكن حتى بعد أن نجح في دخول الغرفة لم يستطع أن يرى شيئًا فقد كانت الغرفة مظلمة لا يتخلل هذا الظلام سوى الضوء الخافت الصادر من المبخرة.

أخذ إندو ينظر حوله في توتر معتمد على هذا الضوء، كان أول ما رآه هو تاإيكو التي كانت تبدو كالجثة وهي لاتزال على حالها على الكرسي، وبدا لإندو وكأن هناك شيئًا ساحرًا فيها وأخذ يناديها وهو واقفٌ بجوار الكرسي:

"يا آنستي".

وقرّبَ فمه من أذنها وأخذ يصيح بأقصى ما استطاع ولكن تاإيكو بقيت مغمضة العينين ولم يتحرك فمها.

"أرجوكِ يا آنستي لا تستسلمي، هذا أنا إندو".

وأخيرًا فتحت تاإيكو عينيها وكأنها تفيق من حلم.

"سيد إندو؟".

"نعم، هذا أنا إندو".

تحدثت تاإيكو بصوت ضعيف وكأنها لاتزال تحلم:

"أنا آسفة، لقد أفسدت الخطة، لم أستطع أن أبقى مستيقظة".

"لم يكن خطؤك إنّ الخطة كُشفت، ألم تتحدثي بصوت الإله أجوني كما وعدتني؟ لا يهم فلنبتعد من هنا حالاً".

حملها إندو وذراعاه يطوقانها.

"لا لم أتحدث بصوته، لقد فقدت الوعي، لا أعرف ماذا قلتُ".

قالتها وكأنما تحدث نفسها وهي مستندة على صدر إندو:

"لقد فشلت الخطة، لن أتمكن من الهرب الآن".

"لا هذا ليس حقيقيـًا، تعالي معي، لا يجب أن نهدر هذا الوقت".

"ولكنّ العجوز هنا، أليس كذلك؟".

أدار إندو نظره في الغرفة مرة أخرى، كان الكتابُ مفتوحًا على الطاولة كما كان من قبل، وتحته كانت المرأة العجوز ملقاة على وجهها في بركة من الدماء وسكينتها تخترق صدرها.

"هل هي موجودة؟".

"إنها ميتة".

نظرت تاإيكو إلى إندو بنظرة قلقة قائلة له:

"لم أكن أعي أي شيء، هل قتلتها أنت؟".

نقل إندو نظره من على المرأة العجوز وحولـه إلى وجه تاإيكو، وفي تلك اللحظة أدرك إندو أن خطة تاإيكو قد

فشلت، وأن فشلها هذا كان هو السبب وراء مقتل العجوز واسترداده لتاإيكو، وأن للحظ قوة عجيبة.

همس إندو قائلا لها:

"لا لم أكن أنا الذي قتلتها، لقد قتلها الإله أجوني الذي جاء هنا الليلة".

obeikandl.com

أوجين

هل وقعت هذه الأحداث في عصر جِنّا أو عهد كان إيه؟ عمومًا هي قصة وقعت في الماضى القديم، في العصر الذي كان حملة تعاليم الإله يصلبون ويحرقون بمجرد أن يُكتشفوا، وكلما زاد اضطهاد السلطات كلما زادت العطايا الإلهية للمؤمنين.

من حين لآخر كان الملائكة والقديسون يظهرون في الظلال وفي الأجواء المعتمة، في القرى المحيطة بناجاساكي، حتى قيل إنّ القديس جون باتيستا قد ظهر لميجيرو ياهيه أحد المسيحيين بأوراجامي، في الكوخ القريب من طاحونة الهواء. وفي هذا الوقت كانت الشياطين تتردد على مؤمني القرية لتكدر عليهم حياتهم الدينية الزاهدة متمثلين في

obeikandl.com

أشكال غريبة ما بين رجال سُود البشرة إلى نباتات أو أزهار مستوردة ومركبات مصنوعة من الخيزران المغزول، حتى قيل إنّ الفئران التي كانت تضايق ياهيه في سجنه المظلم كانت شياطينـًا متجسدة في هيئة فئران، وفي العام الثامن من عصر جنّا حُرق ياهيه ومعه أحد عشر رجلا حتى الموت، والقصة التالية هي قصة إما من عصر جنّا أو كان إيه.

عاشت فتاة صغيرة تُدعى أوجين في قرية أوراجامي الجبلية، مات والدي أوجين بعد فترة وجيزة من انتقالهما إلى القرية من مدينة أوساكا، وبما أنهما من خارج القرية فلم يكن لهما علم بتعاليم الإله، كانـا يؤمنان بتعاليم شاكا، البوذية والزن وسوترا اللوتس والأرض الطاهرة، ووفقـًا لجريدة الجيسويت الفرنسية فإن شاكا العبقري الماهر قد جال بلاد الصين مُروجًا لتعاليم مذهب أميدا البوذي، وفي نهاية المطاف أتى إلى اليابان ليروج التعاليم نفسها، ووفقـًا لتعاليمه فإنّ الأرواح تولد من جديد في هيئة طيور أو أبقار أو نباتات كل بحسب خطاياه، زد على ذلك أن شاكا قد قتل أمه عند ولادته، ولكن وكما ذكرنا من قبل فإن والدة أوجين لم تكن تعلم أي شيء عن هذه الأشياء، لقد آمنت هي وزوجها بتعاليم شكا حتى آخر نفس في حياتهما، ودُفنا تحت شجرة صنوبر في مقبرة مكشوفة، كانـا دائما يحلمان بجنة الأميدا جاهليْن بما ينتظرهما من مصير مستقبلي بالسقوط في الجحيم.

ولحسن الحظ فإنّ أوجين لم تتأثر بجهل والديها، قام فلاح مسيحي مخلص يدعى جوان ماجوشيتشي بنثر ماء المعمودية

على جبين أوجين وأطلق عليها اسم ماريا، لم تصدق قصة شاكا الذي كان يقول: "أنا الوحيد تحت وفوق السماء"، وهو يشير إلى الأرض والسماء، بل صدقت في مذهب مريم العذراء الأطيب والأرحم.

كما صدقت في المسيح الذي صُلب ودفن تحت الأرض في تابوت حجري ثم بُعث بعدها بثلاثة أيام، وأنّ الإله الأعظم بقوته العظيمة سوف يتنزل ويُحيي البشر من رماد أجسادهم، وبناءً على أرواحهم سيتنعم بعضهم في الجنة ويُعذب بعضهم في الجحيم مع أقزام قبيحين أنوفهم طويلة، صدقت بشكل خاص بمقولة: "إنه على الرغم من أن شكل الخبز والخمر لا يتغير إلا أنهما سيتحولان إلى جسد ودم المسيح"، وعلى العكس من والديها اللذيْن كانت عقولهما مثل صحراء تهب عليها الرياح الساخنة فقد كان عقل أوجين مثل حقل قمح جميل ملئ بالأزهار البرية.

بعدما فقدت أوجين والديها تباناها جوان ماجوشيتشي، فقد كانت زوجته جوانا طيبة القلب، وأمضت معهما أوجين أيامًا سعيدة تعتني بالأبقار وتحصد القمح، وبالطبع لم تنسَ الصلاة والصوم خلال تلك الأيام السعيدة، كانت مخلصة في صلواتها وهي تحدق بالقمر في ظل شجرة التين بجانب بئر القرية، كانت صلواتها تبجل مريم العذراء وتدعوها أن تنظر بعينيها الرقيقتين إلى نهر دموعها.

وفجأة وفي أحد الأيام الذي وافق عشية عيد الميلاد جاء بعض ضباط الحكومة يقودهم الشيطان إلى منزل ماجوشيتشي حيث كانت نيران الاحتفال مشتعلة والصليب

معلق على الجدار، أومأ الضباط إلى بعضهم البعض وقاموا بتقييد ثلاثتهم، ماجوشيتشي وزوجته وأوجين، ولكن ثلاثتهم بقوا هادئين عازمين على تحمل أي معاناة لينقذوا أرواحهم، لابد وأنّ الإله سيبعث لهم العون، بالإضافة إلى ذلك ألم يكن القبض عليهم في مثل هذه الليلة كافٍ ليظهر بركة الرب؟ كانوا جميعًا يؤمنون بهذا على الرغم من أنهم بقوا صامتين. اصطحبهم الضباط بعد تقييدهم إلى قصر الحاكم، وفي الطريق قام ثلاثتهم بتلاوة صلوات عشية عيد الميلاد.

احتفى الشيطان بالقبض عليهم بالتصفيق، ولكنه كان غاضبًا من الهدوء الذي أظهروه، وبمجرد أن أصبح وحده قام الشيطان المتخفي بالتحول إلى مطحنة حجرية أصدرت صوتًا ثم اختفى في الظلام، أُلقي بماجوشيتشي وزوجته وأوجين في سجن تحت الأرض وعُذبوا وضُغط عليهم ليرجعوا عن دينهم، ولكنّ إيمانهم لم يهتز حتى عندما عُذبوا بالماء والنار أيضًا، وحتى عندما قُطعت جلودهم ولحومهم؛ فقد كانوا يعلمون أن الجنة على بُعد خطوة واحدة من العذاب، عندما كانوا يفكرون في بركات الإله عليهم كان سجنهم يبدو مثل جنة بالنسبة لهم وإلى جانب ذلك فقد كانت الملائكة والقديسون يأتون لمواساتهم، وكانت أوجين تحديدًا هي أكثر مَنْ مُنّ عليها بهذه الزيارات؛ فقد رأت مرة القديس جوان باتيستا يحمل جرادًا في كلتا يديه ويقدمه لها لتأكله، وفي مرة أخرى رأت جبريلا ضامًا أجنحته البيضاء يقدم لها الماءَ في كوبٍ ذهبي جميل.

لم يكن الحاكم يعلم شيئًا عن تعاليم الرب ولا عن تعاليم شاكا، ولذلك لم يستطع أن يفهم سببَ عناد هؤلاء الثلاثة، ومن وقت لآخر ظن أنهم مجانين، وإذا لم يكونوا مجانينَ فهم لا يختلفون في نظره عن ثعابين عملاقة أو وحوش ذات وحيدة القرن، وسيكون إبقاء مثل هؤلاء الوحوش على قيد الحياة مخالفًا للقانون ومهددًا لأمن وبقاء الدولة، وعلى هذا فقد قرر الحاكم أن يبقيهم في السجن لمدة شهر ثم يحرقهم على أوتاد، وفي الواقع كان الحاكم مثل بقية السكان لم يكترث إذا ما كان الأمر متعلقًا بأمن الدولة أم لا، فأولاً هناك قوانين محكمة، وثانيًا هناك أخلاق. فلم يكن هناك داعٍ لاعتبار الأمن؛ لأنه لم يكن مسموحًا لشيء أن يسبب قلقًا أو يعكر صفو البلاد وأمنها.

لم يظهر أيّ منهم خوفًا أثناء التوجه إلى ساحة الإعدام الواقعة في ضواحي القرية بجانب المقبرة، وبعد أن وصلوا إلى ساحة الإعدام أُعلنت جرائمهم واحدة تلو الأخرى، كان ثلاثتهم مقيدين فى أوتادٍ كبيرةٍ دُقت وسط الساحة كان ماجوشيتشي في المنتصف أما زوجته فكانت عن يمينه وأوجين إلى يساره، وبسبب تعرضهم للتعذيب اليومي بدت جوانا أكبر بكثير مما هي عليه وبدت وجنتي ماجوشيتشي شاحبتين، وفي مقابل ذلك لم يبدُ أي تغيير على أوجين، وبقى ثلاثتهم هادئين وهم يقفون على أكوام الخشب. كان هناك العديد من المتفرجين يحيطون بالساحة فمالت أشجار الصنوبر بأغصانها لتشكل غطاءً فوق

المقبرة.

بعد الانتهاء من الاستعدادات ذهب الضباط إلى الثلاثة وأخبروهم أنّ الوقت قد حان ليفكروا إذا ما كانوا سيتركون دين إله الجنة أم لا، وأنّ سراحهم سيطلق فورًا إذا ما رجعوا عن دينهم، ولكنّـهم لم يستجيبوا وحدقوا في السماء البعيدة وابتسامة بسيطة تعلو وجوههم ثمّ ساد الصمت لفترة على الضباط والمتفرجين، كانت العيون مثبتة على الثلاثة ليس بداعي الشفقة أو التعاطف فقد كان المتفرجون ينتظرون بفارغ الصبر لحظة إشعال النيران.

فجأة سمعوا كلمات واضحة غير متوقعة "لقد قررت أن أرجع عن ديني" كان صوت أوجين، وفي التو عمت ضوضاء بين المتفرجين، أدار ماجوشيتشي رأسه لابنته وحدثها بصوت ضعيف قائلاً لها: "أوجين هل خدعك الشيطان؟ بقليل من الصبر يمكنك أن تري إلهك"، وفي اللحظة التي أنهى فيها حديثه حدثتها جوانا قائلة لها: " أوجين يا عزيزتي لقد تملكك الشيطان صلي، صلي"، ولكنّ أوجين لم تجبهما واكتفت بالتحديق في أشجار الصنوبر في المقبرة خلف المتفرجين.

أمر أحد الضباط بحل وثاق أوجين، وعندما رأى ماجوشيتشي هذا أغمض عينيه وكأنه قد يأس من كل شيء ودعا ربه قائلا: "يا إلهى سأترك كل شيء لتدابيرك".

ذهبت أوجين التي حُررت إلى والديها وركعت أمامهما وتساقطت دموعها دون أن تنطق بكلمة واحدة، ظل والدها مغمض العينين بينما أشاحت والدتها بوجهها عنها.

وفي النهاية تحدثت أوجين قائلة: "أرجوكما سامحاني، لقد تركت ديني لأنني أدركت بمشاهدتي لأشجار الصنوبر هذه أن والدي المدفونين تحت تلك الأشجار لم يكونا على علم بهذا الدين، ولعلهما الآن قد سقطوا في الجحيم وعلى عكسهما فقد يصبح مصيري إلى الجنة، فكيف سيمكنني هذا دون والدي الحقيقيين؟ ولذلك فقد قررت أن أذهب إلى الجحيم لأكون برفقتهما، أرجوكما يا أبي وأمي اذهبا إلى حيث المسيح وأمه مريم، أما أنا وبعد أن تركت ديني فلن أعيش بعد الآن".

أخذت أوجين تنتحب بعد أن انتهت من كلامها.

بعد ذلك بدأت دموع جوانا تتساقط على كومة الأخشاب عند قدميها، إنّ البكاء على أشياءٍ مثل موقف أوجين ليس بعمل طيب يفعله مؤمن كان على وشك الوصول إلى الجنة، وبّخ ماجوشيتشي زوجته قائلا لها: "هل خدعك الشيطان أنت أيضًا؟ إذا أردت ترك دينك فافعلي ما يحلو لكِ ولكني سأموت وحيدًا."

صرخت جوانا في وجه زوجها قائلة له: "لا سآتي معك، ليس لأنني أريد الذهاب إلى الجنة ولكني ببساطة أريد أن أكون معك".

بقي ماجوشيتشي صامتـًا لفترة طويلة وبدا وجهه شاحبًا في لحظة وحيويًا في اللحظة التي تليها، وفي الوقت نفسه تكوّن العرق على وجهه، وكان يرى روحه بعين عقله وهو يرى ملائكة وشياطينـًا يتقاتلون من أجله لو لم ترفع أوجين وجهها في تلك اللحظة، ولكنها كانت قد رفعته بالفعل،

كان وجهها مغطـًا بالدموع وأخذت تحدق به بعينيها التي احتويا على بريق غريب، لم يكن الشيء القابع في عينيها مجرد قلب طفلة بريئة ولكن كان قلب كل البشر.

"أبي! فلنذهب للجحيم، معي أنا وأمي ووالدي الحقيقيين، فلنسمح للشيطان أن يأخذنا إلى هناك" وفي نهاية الأمر هُزم ماجوشيتشي.

اعتبرت هذه القصة ولأجيال واحدة من أكثر القصص المخزية في تاريخ الشهداء الكثيرين لهذا البلد، لقد قيل إنّ جميع المتفرجين صغارًا وكبارًا، رجالاً و نساءً قد كرهوا هؤلاء الثلاثة عندما تخلوا عن إيمانهم بالرغم من أنهم لم يكونوا يعلمون شيئـًا عن هذا الدين ربما كان هذا لأنهم كانوا يشتاقون لرؤيتهم وهم يحترقون على الأوتاد، كما قيل أيضًا إنّ الشيطان من سعادته قد تحول إلى كتاب كبير وأخذ يحلق حول ساحة الإعدام طوال الليل، ولكنني أنا كاتب القصة أتعجب متسائلاً: هل حقق الشيطان فعلاً نصرًا يستحق أن يسعد به لدرجة الجنون؟.

في غيضة

شهادة حطاب تم استجوابه من قبل مفوض رفيع في الشرطة

كان ذلك في الصباح الباكر، إنه أنا ولا شك من وجد تلك الجثة، لقد ذهبت كعادتي هذا الصباح لقطع الأشجار خلف الجبل، وجدت هذه الجثة في الغيضة الموجودة في ظل الجبل،

الوقعة تحديدا؟

مكان يبعد نحو مائة وخمسين مترا من محطة ياماشينا، إنه

obeikandl.com

مكان غير مأهول ملئ بالخيزران والأشجار الهزيلة، كانت الجثة ممددة على ظهرها، مرتدية كيمونو حريري مائل إلى الزرقة، كما كان يعتمر قبعة مجعدة على طريقة أهل كيوتو، كانت هناك طعنة سيف واحدة غائرة بصدره مما جعل الأوراق المتساقطة حول الجثة مصبوغة بلون أحمر مائل إلى الأرجواني،

(هل كان الدم يتدفق منه؟)

لا، لم يكن الدم يتدفق منه، كان ما حول الجرح جافا، وكانت هناك ذبابة تتغذي على جرحه، استمرت في ذلك ولم تبالي بخفق نعليَّ،

ألم ترى سيفا أو ما شابه؟

كلا، لم يكن هناك شئ من هذا القبيل، فقط رأيت حبلا متدليا على جذع شجرة مجاورة ، كما كان هناك مُشطا بجوار الحبل، لم يكن هناك غيرهما بجوار الجثة،

ولكن لابد من أن هناك شجارا قويا قد احتدمَ قبل مقتله لأن العشب والأوراق المتساقطة حوله كانت مدعوسة بقوة،

ماذا؟ ألم يكن هناك حصان؟

كلا إنه مكان لا يمكن لحصان أن يدخله على الإطلاق، لأن الطريق الذي قد يسير فيه الحصان مغلق بالشجيرات.

شهادة الراهبِ البوذيِّ المسافرِ أمامَ مفوض رفيع في الشرطة

إن هذا الرجل كان متجها لمقابلة شخص ما البارحة، متى تحديدا؟

وقتَ الظهيرة تقريبا، في مكان يقع وسط الطريق بين سيكي ياما وياماشينا، كان ذلك الرجل سائرا بصحبة امرأة تمتطي فرسًا متوجهَيْن إلى سيكي ياما، لم أر وجه المرأة، فقد كانت ترتدي غطاء للوجه، لم أرِ سوى ردائِها الخريفي المائل إلى الزرقة، كان لون فرسها كُمَيْتًا (بنيا مائلا إلى الحمرة)، وكان شعره قصيرا.

طول المرأة؟

كان طولها نحو المائة وأربعون سنتيمترا، لم ألحظ هذه التفاصيل بدقة فأنا راهب لا يجوز لي أن أنعم النظر فيها، كان الرجل مسلحا بسيف كما كان يحمل كنانةً مليئةً بالسهام، وحتى الآن أتذكر أنه كان في الحقيبة نحو عشرون سهما، لم أكن أتخيل حتى في أحلامي أن يلاقي الرجل ذلك المصير، إن حياة الانسان حقا كندى الصبح في سرعة زواله، إنها كومضة البرق، لن تصف كلماتيَ أبدا شديد أسفي على هذا الرجل.

شهادة رجل شرطةٍ تم استجوابه من قبل مفوض رفيع في الشرطة

الرجل الذي ألقيت القبض عليه؟

إنه لص مشهور يدعى تاجومارو، كان قد سقط عن حصانه عندما ألقيت القبض عليه، كان يإنُّعلى الجسر الحجري عند أوادجوتشي،

الوقت بالتحديد؟

كان ذلك في الساعات الأولى من مساء البارحة، لقد سبق وأن فشلت في إحدى المرات ولكنه يومها كان وكما

توقعت يحمل سيفا في الكيمونو الأزرق الذي كان يرتديه، وكما تعلم فإنه كان مسلحا لدرجة أنه كان يحمل معه أيضا كنانة مليئة بالأسهم،

حسنا، المتوفي كان يحمل أسهما، إذا لابد أن هذا المجرم هو القاتل.

أعتقد أن كل ما كان يحمله في جعبته هو حقبة سوداء بها نحو سبعة عشر سهما مزينا بريش الصقور، نعم ، كما وصفته تماما، فالحصان كان قصير الشعر، ألجم بلجام طويل، وكان يأكل العشب على جانب الطريق.

إن تاجوومارو هذا به خصلة تميزه عن كل اللصوص المتسكعين في كيوتو ألا وهي حبه للنساء، كما يقال أنه وراء مقتل السيدة وطفلتها اللتان أتيتا في زيارة إلى الجبل خلف بينزورا في معبد توريبى، يقال أنها جاءت للتسول.

لي رجاء عندك يا سيدي، ابحث أيضا في أمر المرأة التي كانت معه، فإذا كان ذاك فعْله بالرجل فما ظنك بما فعله بالمرأة.

شهادة المرأة المسنة أمام مفوض رفيع في الشرطة

نعم يا سيدي، إنها جثة زوج ابنتي، إنه ليس من أهل كيوتو، لقد كان محاربَ ساموراي في قرية كوكوفو في مقاطعة وكاسا،كان يدعى كانازاوا تاكي هيكو، يبلغ من العمر ستة وعشرون عاما، لا لقد كان شخصا طيبا وديعا ولا أعتقد أنه كان لديه عداوات.

ابنتي؟

ابنتي تدعى ماساجو، تبلغ من العمر تسعة عشر ربيعا، كانت مُحبة للمرح ولكني واثقة أنها لم تعرف رجلا آخر قبل تاكي هيكو، وجهها بيضاوي الشكل مائل إلى السمرة ولديها شامة في طرف عينها اليسرى.

لقد رحلا معا إلى وكاسا بالأمس، كم من السيئ أن يواجها مثل ذاك المصير، ولكن ماذا حدث لابنتي؟ إن ما حدث لزوجها لشيء مؤسف حقا ولكن مصير ابنتي هو ما يقلقني أكثر شئ الآن، أرجوك إنه طلب امرأة مسنة لن تطلب سواه طُول العمر، أرجوك لا تترك أثرا إلا وتقتفيه لتعثر على ابنتي، كم أكره هذا التاجومارو أو أيما يدعى وأي لص آخر، فهم لم يكتفوا بزوج ابنتي بل أخذوها هي الأخرى

(أجهشت بالبكاء ولم تنطق ببنت شفة)

اعتراف تاجومارو

إنه أنا، أنا الذي قتلت ذلك الرجل، ولكننى لم أقتل المرأة.

أين ذهبت إذن؟

هذا شئ لا أعرفه أنا أيضا، حسنا؛ انتظر، لايمكن لأي تعذيب أن يدفعني لأعترف بما لا أعرف، أما الأمور التي أعرفها فلن أُجبن ولن أخفي أي شئ منها عنك.

لقد قابلت هذين الزوجين بُعَيْدَ الظهيرةِ أمس، في تلك اللحظة هبت رياح رفعت الغطاء الحريري عن وجهها فاستطعت أن ألمح وجهها ولكن سرعان ما اختفى وجهها ناظري، بدت لي وكأنها إلهة، ومابين هاتين اللحظتين قررت أن أحظى بها وإن اضطررت لقتل زوجها.

لم؟ إن قتل الرجل ليس أمرا مهما بالنسبة لي كما تحسبون، وفي كل الأحوال إذا ما أردت أسرَ امرأة فلابد من قتل رجلها، ولكنني حينما أقتل استخدم سيفي، كما أنني لست القاتلَ الوحيدَ هنا، فأنتم أيضا قتلة، نعم إنكم لا تستخدمون السيوف ولكنكم تقتلون الناس بسلطاتكم وبأموالكم، بل إنكم تقتلونهم أحيانا بذريعة العمل لمصلحتهم، نعم إن دمائهم لا تسيل، وإنهم يتمتعون بحياتهم، ولكنكم في الواقع قد قمتم بقتلهم، إنه من الصعب حقا أن نقول أينا أكثر إجراما وذنبا من الآخر.

(ابتسامة ساخرة)

ولكننى لا أقول إنني أصاب بعدم الرضا إذا ما استطعت أن أأسر امرأة دون قتل زوجها، لا، كنت قد قررت في بداية الأمر أن أحاول أن أختطف المرأة دون قتل زوجها، ولكن من المستحيل أن أقوم بهذا على قارعة محطة ياماشينا، ولذلك فقد ابتدعت طريقة لأستدرجهم إلى قلب الجبل لم يكن ذلك شاقا، فقد أصبحت رفيق سفرهما وأخبرتهما

بأنني قد وجدت رابية قديمة في الجبل، فنبشتها ووجدت بها الكثير من المرايا والسيوف، ولقد دفنتها في مكان لايعلمه أحد وسطِ الشجيرات خلف الجبل وإني أود بيعها بسعر زهيد لمن يريد شراءها، ولقد أبدى الرجل اهتماما بحديثي هذا، ثم... ألا تعتقدون أن الطمع شئ مرعب؟

وفي غضون ساعة أوأقل، كانا يقودا حصانهما إلى الجبل معي وعندما وصلنا قرب الشجيرات أخبرتهما أن الكنز مدفون بينها وطلبت منهما أن يأتيا لرؤيته، كان الطمع قد استحوذ على قلب الرجل فلم يبد أي اعتراض، أما المرأة فقد انتظرت على متن حصانها، كان من الطبيعي أن تقول هذا أمام منظر الغيضة الكثيفة هذه، ولن أكذبك القول فقد سارت خطتي كما أردت بالضبط، بعد ذلك دخلتُ معه وسط الشجيرات و تركناها خلفنا وحدها.

ولبعض المسافة لم يكن بالغيضة سوى الخيزران، وبعد مسافة نحو خمسين مترا وجدت منطقة مفتوحة إلى حد ما من أشجار الأرز وحينها فكرت إنه لا يوجد بقعة مناسبة أكثر من هذه لأقوم بعملي، كذبت عليه كذبة متقنة وأخبرته أن الكنز مدفون أسفل أشجار الأرز وأنا أشق طريقي خلالها، عندما أخبرته بذلك أسرع بجد نحو شجرة الأرز النحيلة الظاهرة وسط الغيضة، عندها خفت كثافة الخيزران وبدت أمامنا عدة شجيرات من الأرز، وبمجرد وصولنا إلى هناك أمسكت به من الخلف، ولأنه كان مدربا على حمل السيف فقد كان قويا إلى حد كبير، ولكني أخذته بغتة فلم يكن لديه شئ يفعله، بعد ذلك قيدته في جذع الشجرة، الحبل؟

أنا شاكر لكونيَ لص، لا أعلم متى قد أضطر إلى تسلق سياج، لذلك كان الحبل ملفوفا على خاصرتي بإحكام، بالطبع حشوت فمه بأوراق الخيزران المتساقطة لحبس صراخه، وبذلك تذللت أماميَ كل العوائق.

بعد أن تخلصت من الرجل عدت إلى المرأة وأخبرتها أن زوجها قد مرض فجأة وطلبت منها أن تأتيَ لتراه، ولا حاجة لي أن أقول أن الأمور سارت وفقا لخطتي، خلعت المرأة قبعتها، وأخذتُ بيدها وذهبنا إلى أعماق الغيضة، وعندما وصلنا ورأت زوجها مقيدا في جذع شجرة الأرز أخرجت سيفا صغيرا من حافظتها، لم أر في حياتي إلى الآن امرأة بهذا الغضب والمزاج السيئ، وإن لم أكن متيقظا لربما قُتلت بطعنة في جنبي، حاولت طعني كثيرا ولكنني لم أجرح قط، ولكوني أنا تاجومارو أيضا فاستطعت أن أسقط سيفها دون أن أستل سيفي، وحتى أبرع النساء لا تستطيع الدفاع عن نفسها بغيرسلاح، وبهذا أكون قد حققت غرضي بأسر المرأة دون قتل زوجها.

نعم دون أن أسلب الرجلَ حياتَه، لم تكن لدي نية قتلِه، ولكنني عندما كنت على وشك الهروب من الغيضة تاركا المرأة المنهارة من البكاء خلفي، وجدتها تتشبث بذراعي بجنون، وبصوت مرتعش طلبت منى أن يموت أحدنا، أنا أو زوجها، وقالت إنه من الصعب عليها أن يعرف عارها رجلان، قالت وهي تلهث إنها تريد أن تصبح زوجة لمن يبقى، وعندئذ تملكتني الرغبة لقتل الرجل.

(وبدا عليه الاكتئاب)

لابد وأنكم تعتقدون الآن بعد أن أخبرتكم بالقصة أنني رجل أكثر وحشية منكم، ولكنكم تعتقدون هذا لأنكم لم تروا وجهها، ولاسيماعينها المتقدة في تلك اللحظة، عندما وقعت عيني على عينها شعرت بأنني أرغب في اتخاذها زوجة لي حتى وإن قُتلت في سبيل ذلك، لم يكن الأمر الوحيد في ذهني من اتخاذها زوجة لي موضوعَ شهوةٍ فحسب كما تظنون، فلو كان الأمر كذلك لكنت طرحتها أرضا ولذت بالفرار، وبذلك لم أكن لألوث سيفي بدم الرجل أيضا، ولكننى في اللحظة التى حدقتُ فيها بوجهها في الغيضة المظلمة قررت ألا أغادر المكان دون أن أقتله.

ولكنني لم أرغب أن أقتله بطريقة قذرة، حللت وثاقة، وأمرته أن يبارزني بالسيف (الحبل الذي كان ملقيا عند جذع الشجرة هو الحبل الذي أسقطته عندها)، استل سيفا غليظا وقد رسمت لوحة الغضب على وجهه، وانقض علي بضراوة دون أن ينبس بكلمة واحدة، لا داعي أن أخبركم لمن حسمت تلك المبارزة، وفي الضربة الثالثة والعشرين طعنت صدر مبارزي، في الضربة الثالثة والعشرين أرجوكم لا تنسوا هذا، مازلت أشعر بالانبهار فهو الوحيد على وجه الأرض الذي اضطرني لأن أضرب بسيفي اثنتين وعشرين ضربة

(وابتسم مبتهجا)

عندما سقط الرجل، خفضت سيفي المخضبَ بالدماء والتفت إليها، اندهشت لمَّا لم أجدْها، بحثت عنها بين أشجار الأرزِّ، لم يكن هناك أثر لأقدامها على أوراق الخيزران

المتساقطة، حاولت أن أنصت، ولكنني لم أسمع سوى أنين الرجل وهو يصارع الموت.

لعلها هربت مخترقة الغيضة عندما بدأنا المبارزة بالسيوف، باحثة عن النجدة، وعند ذا صار الأمر حياة أو موتا بالنسبة لي، فسلبت سيفه وسهامه وعدت إلى طريق الجبل، فوجدت حصانها لايزال يأكل العشب في هدوء، وإنها لمضيعة للوقت أن أخبركم بالتفاصيل التي تلت ذلك، ولكنني تخلصت من السيف قبل أن أدخل البلدة، هذا هو كل ما لدي لأقوله، أعلم أن رأسي سوف يعلق بالجنازير على أية حال، لذا فلتذيقوني أشد العقاب.

(سلوك المتحدي)

اعتراف امرأة جاءت إلى معبد كيوميزو

بعد أن أخضعني الرجل ذو الكيمونو الأزرق الحريري، نظر إلى زوجي المقيد وكأنه يسخر منه، لابد وأن زوجي كان مغموما وقتئذ، وكلما حاول جاهدا أن يحل قيده كان الحبل يحفر في جسده أكثر، ركضت متعثرة نحوه دون أن أشعر، بل قل حاولت أن أفعل، ولكن الرجل واصل اسقاطي أرضا،

في تلك اللحظة تحديدا رأيت في عيني زوجي بريقا يفوق الوصف، تلك النظرة في عينيه تجعلني أقشعر حتى الآن، أخبرتني تلك النظرة بكل مكنونات صدره، بالذي لم يستطع أن ينبس منه ببنت شفة، لم تكن نظرة غضب، كما أنها لم تكن نظرة حزن، كانت نظرة باردة، نظرة اشمئزاز مني، صرخت دون وعي مصدومة من تلك النظرة في عينيه أكثر من تأثري بلكمة اللص، ثم فقدت الوعي بعدها.

أفقت بعد فترة وكان الرجل قد رحل، لم أر سوى زوجي مقيدا إلى شجرة الأرز، قمت بعناء من على أوراق الخيزران المتساقطة ونظرت في وجهه، لكن تلك النظرة لم تفارق عينه ولو قليلا عن ما سبق، بالفعل إنه يظهر خلف تلك النظرة ازدراء وكراهية لي، من الخجل، من الحزن من الغضب؟، لا أستطيع أن أصف شعوري في تلك اللحظة، قمت أترنح، وأتجهت نحوه.

"أنت، إذا كان هذا ما آل إليه الأمر فإنني لا أستطيع العيش معك، أنا مصرَّة على الموت، ولكنك لابد أن تموت معي أيضا، لقد شهدت عاري، فلا يمكنني تركك حيا هكذا"

هذا كل ما استطعت قوله، استمر في التحديق بي باحتقار، بحثت عن سيفه وقلبي يعتصره الألم، ولكن لا بد وأن اللصَ قد أخذه فلم أر أثرا للسيف أو للرماح في الغيضة، وجدت سيفي الصغير أسفل قدمي، التقطتهُ وقلت لزوجي ثانية:

"أرجوك امنحني حياتك، وسأمنحك حياتيَ فورا بعدها"

عندما سمع زوجي كلماتي هذه حرك شفتيه أخيرا، وبما أن فمه كان محشوا بالأوراق فإن صوته لم يكن مسموعا على الإطلاق، عندما رأيت هذا فهمت ما كان يريد قوله، لقد قالها وهو يزدريني، قالها كلمة واحدة "اقتليني"، عندها طعنت صدره طعنة اخترقت ملابسه، كنت وكأنني في حلم لا أميز بين الواقع والخيال.

أظنني فقدت الوعي مرة أخرى حينئذ، وعندما أفقت وأدرت عيني في المكان رأيته وقد لفظ أنفاسه الأخيرة، مقيدا كما كان في شجرة الأرز، وأشعة شمس الغروب تتخلل أشجار الأرز والخيزران، تسقط على وجهه الباهت، فحللت وثاقه وأنا أخفي صوت نحيبي، ماذا حدث لي عندئذ؟ لم يعد لدي أي قوة لأقص لكم هذا، على أي حال لم تكن لدي الشجاعة لأموت، طعنت حنجرتي بسيفي الصغير، ألقيت بنفسي في البركة عند سفح الجبل، حاولت بطرق عديدة ولكن ها أنا ذا أحيا في بعاري وخجلي.

(ابتسامة حزينة)

لإنسانة جبانة مثلي لن يرفق بها أحد حتى أرحم الرحماء، قتلت زوجي، اغتصبت من لص، ماذا عساي أن أفعل، ماذا عساي أنا أفعل.

(نحيب عنيف)

شهادة الزوج كما رويت على لسان وسيطة روحية

بعد أن اغتصب اللص زوجتي جلس وأخذ في مواساتها، بالطبع لم أستطع أن أقول شيئا فقد كنت مكبلا إلى شجرة الأرز، ولكنني غمزت لها عدة مرات، أردت أن أقول لها لا تصدقيه، أسيئي به الظن في كل ما يقول، ولكن زوجتي الجالسة بقلب مكلوم على أوراق الخيزران المتساقطة، كانت تحدق في حضنها، بدا وكأنها تنصت إلى كلام اللص، تملكتني الغيرة، تابع اللص حديثه الماكر، ينتقل من موضوع إلى أخر، وفي نهاية الأمر قدم عرضه الجرئ الوقح، قال لها

"لقد تلوث شرفك الآن، وأمرك لن يصبح على ما يرام بينك وبين زوجك، فهلا صرتِ زوجة لي؟ إن حبي لك هو الذي دفعني إلى استخدام العنف معك"

بينما كان اللص يتكلم رفعت زوجتي رأسها في نشوة، لم تبد أبدا جميلة كما كانت في تلك اللحظة، بماذا أجابته زوجتي وأنا جالس مكبل هناك؟ لقد ضعت في المكان، لا يمكنني أن أفكر في جوابها دون أن أحترق غضبا وغيرة، فقد قالت له "إذن خذني معك أينما ذهبت".

لم يكن هذا ذنبها الوحيد فحسب، لم أكن إذن لأتعذب

بهذا القدر في الظلام، فعندما كانت تغادر الغيضة ممسكة بيده، شحبت فجأة وأشارت إلي وأنا مكبل إلى جذع شجرة الأرز وقالت له:

"اقتله، لن أستطيع أن أتزوجك مادام زوجي على قيد الحياة"

وأخذت تصرخ قائلة "اقتله، اقتله" وكأنها قد أصيبت بالجنون، حتى الآن تهدد هذه الكلمات بإلقائي منكّس الرأس في جحيم الظلام الذي لا قعر له، هل خرجت كلمات بهذا القبح من فم إنسان من قبل؟ هل صعقت هذه الكلمات اللعينة أذن إنسي من قبل؟ ولو لمرة واحدة؟ (صرخة احتقار مفاجئة) بعد أن قالت كلماتها هذه شحب وجه اللص أيضا، صرخت ثانية وهي تتشبث بذراعه " اقتله" حدق بها دون أن يجيبها إجابة واضحة، وقبل أن أفكر بماذا سيكون جوابه كانت قد طرحت أرضا فوق أوراق الخيزران (صرخة احتقار ثانية) ثنى ذراعيه بهدوء ونظر لي وقال:

"ماذا ستفعل بها؟ تقتلها أو تنقذها؟ ماعليك إلا أن تشير برأسك، أأقتلها؟"

ومن أجل كلماته هذه أردت أن أصفح عن جريمته.

وفيما أنا حائر، أطلقت زوجتي صرخة مدوية وركضت إلى أعماق الغيضة، حاول اللص أن يلحق بها ولكنه فشل حتى في أن يمسك أكمامها.

بعدما هربت زوجتي سلب اللص سيفي وسهامي، وبضربة واحدة قطع إحدى قيودي، أتذكر وهو يهمس

ويقول: "مصيري هو التالي" ثم اختفى من الغيضة وخيم الصمت على المكان، لا بل سمعت أحدهم يبكي، حللت ما تبقى من وثاقي وأنصت بحرص، عندها تنبهت أن هذا هو صوت بكائي.

(صمت طويل)

رفعت جسدي المنهك من على جذع شجرة الأرز، وجدت أمامي سيف زوجتي الصغير الذي كانت قد أوقعته، أخذته وطعنت به نفسي في صدري، عندها اندفقت جَرعة من الدماء إلى فمي ولكني لم أشعر بأي ألم، عندما برد صدري خيم الصمت على المكان، صمت يماثل صمت الأموات في قبورهم، ياله من صمت رهيب، لم يسمع صوت زقزقة واحدة في السماء فوق هذه المقبرة في جوف الجبل، إلا بعض الضوء الذي تخلل أشجار الأرز والخيزران، خفت الضوء شيئا فشيئا، حتى لم تعد تُرى أشجار الأرز والخيزران، لفني الصمت العميق وأنا ممدد هناك.

ثم زحف أحدهم نحوي، حاولت معرفة هُويته لكن الظلام كان حالكا حولي، شخص ما، قام هذا الشخص بسحب السيف بخفة من صدري بيديه الخفيتين، عندها تدفقت جَرعة أخرى من الدماء إلى فمي، وغرقت للأبد في ظلمة المكان.

obeikandl.com

obeikandl.com

كـابّـا

هذه قصة يرويها المريض النفسي رقم ثلاثة وعشرين لأي شخص؛ إنه شابٌ مجنونٌ يتجاوز الثلاثين من عمره وقد قضى نحو نصف عمره في... لا ليس هذا بالأمر المهم كان دائمًا يجلس ضامًا ركبتية ينظر من خلال السلك الحديدي على النافذة ينظر إلى شجرة البلوط التي لا يُرى لها ولو حتى ورقة جافة وإلى السماء الغائمة التي تنذر بسقوط الثلوج، وأخذ يقص عليّ أنا والسيد (إس) رئيس المشفى قصته باستفاضة، ولم يكن يقصها بلا أي تعبيرات أخرى فقد كان يرجع رأسه إلى الوراء فجأةً إذا ما ورد في الحديث

لفظ "استغرب". أعتقد أنني قد نقلت قصته بدقة، ولكن إذا كان هناك من قد لا يكتفي بكتابتي فيمكنه أن يذهب ليزور مشفى الأمراض النفسية بقرية... بمدينة طوكيو، ربما يأتيه هذا الشاب خافضًا رأسه بأدب ويشير إلى المقعد الخالي ثم سيبتسم ابتسامة حزينة ويكرر القصة نفسها، وفي النهاية - مازالت أذكر رد فعله بعدما انتهيٍ من قص الحكاية- وقبل إنّ يقوم سيغضب ويصيح قائلاً: "اخرجوا من هنا أيها الأشرار، يالكم من حشرات مزعجة حاقدة غبية، اخرجوا".

(١)

قبل ثلاثة أعوام وفي فصل الصيف حملت حقيبة الظهر الخاصة بي وذهبت إلى نزل بكامي كوتشي استعدادًا لتسلق جبل هوكاياما، وكما تعلمون فإنه لابد من عبور نهر أزوساجاوا لتسلق الجبل، ولأنني قد قمت بتسلق جبل ياري قبل إنّ أحاول تسلق هوكاياما فإنني ذهبت للتسلق دون أن أصطحب مرشدًا ليدلني على الطريق في واد أزوساجاوا الذي خيم عليه ضباب الصباح، ولم يبدُ لي أنّ هذا الضباب سينقشع، لا بل إنه كان يزداد أيضًا، وبعد أن مشيت نحو ساعة قررت أن أعود إلى النزل، ولكنني حتى وإن حاولت العودة فلابد لي من أن أنتظر انقشاعٍ الضباب ولكن الضباب ازداد كثافة "إذا فلأتسلق قليلاً "هكذا فكرت وبناءً على هذا فقد سرت ملتزمًا جانب الوادي.

ولكن كل ما كان يحيط بي هو الضباب الكثيف، لم يكن كثيفًا لدرجة أنني لم أتمكن من رؤية بعض عيدان خشب الزان أو خشب التنوب في الطريق، كما قفزت أمامي فجأة بعض الأبقار والخيول، ولكنهم اختفوا في الضباب من حيث جاءوا، وبحلول ذلك الوقت كان التعب قد نال مني، كما أني كنت قد جعت، لم يكن ذلك ثقل ملابس التسلق والبطانية، وفي نهاية الأمر سمعت صوت ماء ينكسر على صخور فقررت أن أعبر نهر أزوساجاوا.

جلست على الصخر الموجود على جانب الماء، وقمت بتناول الطعام، قمت بفتح علبة لحم، وجمعت بعض الأغصان الجافة وأشعلت النار بها، مر الوقت وأنا أفعل هذه الأشياء، وفي تلك الأثناء بدأ الضباب العنيد ينقشع، نظرت إلى الساعة التي في معصمي فإذا بها تتجاوز الواحدة والعشرين دقيقة، ولكن الذي فاجأني أكثر هو الظل الآتي من أعلى على زجاج ساعتي الدائرية، استدرت خلفي من هول المفاجأة فإذا بي أرى لأول مرة في حياتي ما يسمى بالكابا، كان يقف كما يُرسم في الصور على الصخور خلفي جذع أبيض ويده الأخرى فوق عينيه، ينظر إليّ كأنني شيء غريب.

أخذتني الدهشة وبقيت لوهلة بلا حراك، وحتى الكابّا بدت عليه علامات الاستغراب حتى إنه لم يحرك يده التي كانت فوق عينه، قفزت اليه فهرب في اللحظة نفسها لا بل على ما يبدو فقد هرب واختفى في مكان ما، فبحثت عنه وسط الخيزران وأنا مندهش، فإذا به ينظر إليّ من الخلف

من مسافة نحو مترين أو ثلاثة، وكان أكثر ما بدا غريبًا ليّ هو لون الكابا؛ فقد كان لون الكابا الذي رأيته فوق الصخرة رماديًا، أما الآن فقد تحول لونه تمامًا إلى الأخضر، قفزت أمامه ثانية وغدا به بالطبع يهرب ثانية، بعدها قضيت نحو نصف ساعة أبحث عنه وسط الخيزران وعلى الصخور.

إن سرعة ساقي الكا تفوق القرود بدا لي عدة مرات وأنا أبحث عنه بهوس أنني فقدته، كما تعثرت عدة مرات، ولكن ولحسن الحظ فإن ثورًا قد اعترض الكابا وهو يشق طريقه وسط أغصان شجرة سميكة الجذع، ولأنه كان ثورًا أحمرَ العين فقد صرخ الكابّا عندما رآه، وقفز إلى أعواد الخيزران، اعتقدت أنني قد نلت منه وحاولت تتبعه، لكن يبدو أن هناك حفرة لم أنتبه لها في طريقي، فبمجرد أن اقتربت من لمسه بطرف أصابعي حتى وجدت نفسي أسقط رأسًا على عقب في حفرة مظلمة، عندها تذكرت أن هناك جسرًا بالقرب من النزل في كامي كوتشي يُسمى جسر كابّا ثم لا أتذكر ما حدث بعدها فقد رأيت أمامي ما يشبه الرعد ثم فقدت الوعي.

(٢)

عندما استعدت الوعي وجدت نفسى ملقيًا كما كنت محاطًا بالعديد من الكابّا، وكان أحدهم يرتدى نظارة فوق منقاره راكعًا أمامي، يضع سماعة طبيب على صدري، عندما رأى هذا الكابّا أنني أتنبه أشار لي بيده أن أبقى هادئًا وقال لكابّا آخر خلفه: "كواكس كواكس"، عندها جاء إثنان بي وسط جموع الكابّا في هدوء إلى مدينة ما، لم يكن المكان من الكابّا يحملان نقالة، فحملوني على هذه النقالة ومروا الذي مررت به يختلف كثيرًا عن جينزا، وكان هناك العديد من المحلات تصطف وسط أشجار الزان، وكانت عدة سيارات تمر بالطريق.

وفي النهاية أدخلوا النقالة التي كنت محمولاً عليها إلى إحدى البيوت علمت فيما بعد أنه منزل الطبيب الذي كان يرتدى النظارة ويُدعى تشاكّو، جعلني تشاكّو أنام على السرير، وأعطاني دواءً شفافًا على هيئة شراب، نمت على السرير ورضخت لكل ما يفعله تشاكّو؛ ففي الحقيقة كان جسمي يؤلمني لدرجة لم يمكنني من الحركة.

لقد كان تشاكّو يأتي ليفحصني مرتين أو ثلاث مرات في اليوم الواحد، كما جاء الكابّا الذي رأيته في البداية

لزيارتي وهو صياد يُدعى باجّو. إنّ الكابّا يعلمون عنا نحن البشر أكثر بكثير مما نعلمه عنهم؛ ذلك لأنّ الكابا يأسرون من البشر أكثر مما يأسر البشر من الكابّا، حاول تخمين السبب وراء ذلك، إننا لسنا كابّا فنحن نحمل امتياز كوننا بشرًا أي أننا يمكن أن نحصل على قوتنا دون أن نعمل، ووفقـًا لما قاله لي باجّو فقد أتى أحدهم إلى هذه البلد واتخذ زوجة له من الكابّا وعاش معها حتى وفاته، كانت هذه الكابّا هي أجمل واحدة في البلد وكانت تفعل كل شيء لتخدع زوجها.

وبعد مرور نحو أسبوع ووفقـًا لقوانين البلد فقد أصبحت مواطنـًا استثنائيًا وأصبحت أسكن إلى جانب تشاكّو، كان منزلي صغيرًا، وبالطبع لم تكن حضارة هذا البلد تختلف عن حضارتنا الإنسانية أو على الأقل الحضارة اليابانية؛ ففي حافة غرفة الضيوف كانوا يضعون بيانو، ولكن الطاولات والكراسي كانت تلائم أطوالهم ومقاساتهم، ولذلك كنت أشعر بالضيق فقد كنت أشعر وكأنما وُضعت في غرفة أطفال.

كنت أستقبل تشاكّو أو باجّو وقت الغروب وأتعلم منهما لغة الكابّا لا ليس هما فقط بل كان كابا آخر يُدعى جيرو وهو رئيس شركة زجاج يأتي كل يوم بناءً على طلب من تشاكّو ليقيس ضغط الدم لي؛ فقد كان الجميع يتملكهم فضول تجاهي، ولكن أكثر من أصبح مقربًا مني في نصف الشهر الأول لي هو باجّو الصياد.

وفي وقت الغروب في أحد الأيام الدافئة، كنت أجلس

أنا وباجّو الصياد وبيننا طاولة لا أدري فيما كان باجّو يفكر ولكنه صمت فجأة وحدّق بي بعينيه اللاتي ازدادت كبرًا، استغربت بالتأكيد وقلت له: "كواكس باج كويل كوان؟"، ولكنه لم يجبني، وأخرج لسانه وأخذ يقفز كالضفدعة، وعندما هممن بالوقوف من على الكرسي كاد أن يقفز إلى الباب، ولحسن الحظ فقد جاء الطبيب تشاكّو في تلك اللحظة.

"ماذا تفعل يا باجّو؟".

سأله تشاكّو، وهو يرتدي نظارته.

وضع باجّو يديه على رأسه في خوف وقال لتشاكّو معتذرًا:

"أنا آسف للغاية، لقد كنت أضايقة لأنّ رؤيته متضايقـًا كانت ممتعة، أرجوك سامحني أنت أيضًا يا سيدي".

(٣)

لابد لي أن أشرح أولاً "ما هو الكابّا ؟" قبل إنّ أبدأ حديثي هذا، إنّ الكابّا حيوان لا يزال مُختلف في وجوده حقـًا، ولكن بما أنني أصبحت أسكن وسطهم فلم يعد لدي أي شك في هذا الموضوع.

هو حيوان لديه شعر رأس، أصابع يديه وقدميه متصلة ببعضها كالبطة، متوسط طوله نحو المتر، أما الوزن فإنّ وزنه يتراوح بين العشرين والثلاثين باوندًا وقد تصل بعض الكائنات الكبيرة منهم إلى خمسين باوندًا وهذا وفقًا لما قاله لي الطبيب تشاكّو، كما توجد علامة بيضاوية تتوسط رءوسهم تزداد قساوة بالتقدم في العمر، حتى إن ملمسها عند باجّو العجوز يختلف تمامًا عن ملمسها عند تشاكّو الطبيب الشاب، ولكن أكثر ما يثير الدهشة في الكابّا هو لون جلده، فليس لديهم لون محدد مثلنا نحن البشر؛ أي إنهم يستطيعون أن يغيروا لونَ جلودهم بحسب المكان الذي يتواجدون فيه؛ فمثلاً يتحولون إلى اللون الأخضر إذا ما تواجدوا وسط العشب، ويتحولون إلى اللون الرمادي إذا ما تواجدوا فوق الصخور، عندما اكتشفت هذه الخاصية تذكرت القصص الشعبية التي تروي أن لون الكابّا في الغرب أخضر، وفي الشمال والشرق أحمر، وبالطبع فإنّ هذه الخاصية لا تقتصر على الكابا فالحرباء أيضًا بوسعها أن تفعل ذلك، كما تذكرت أيضًا كيف اختفى باجّو فجأة وأنا أطارده وكيف لم يعد بوسعي أن أراه، كما يتمتع الكابّا بطبقة من الدهون تحت جلده تجعله لا يحتاج إلى ملابس على الرغم من انخفاض درجة الحرارة في بلادهم التي تقع تحت الأرض، وبالطبع قد يرتدى العديد من الكابا النظارات أو يحملون علب السجائر أو حافظات للنقود ولكنهم لا يتضررون من عدم وجود ملابس؛ لأنّ لديهم جيوبًا مثل جيوب الكانغرو، ولكنني مع هذا تعجبت من

أنهم لا يغطون ولو حتى المناطق الحساسة وعندما سألت باجّو عن هذا ضحك كثيرًا ثم قال لي: "إنني أستغرب من أنك تغطيها".

(٤)

حفظت تدريجيًا اللغة التي يستخدمها الكابّا في حياتهم اليومية، وبذلك فقد أصبحت أعرف أيضًا عاداتهم وتقاليدهم، وكان أكثر ما استغربت له أنهم يعتبرون ما نأخذه نحن البشر بجدية أمرًا غريبًا، ويأخذون بجدية ما نستغرب منه نحن البشر؛ فمثلاً نعتبر نحن البشر "العدالة والإنسانية" شيئين مهمين، أما الكابّا فهم يضحكون بشدة عندما يسمعون مثل هذه الكلمات؛ أي إن فكاهتهم تختلف عن فكاهتنا تمامًا، لقد كنت أتحدث في يوم مع الطبيب تشاكّو عن تحديد عدد المواليد، فإذا به يفتح فمه الكبير ويضحك حتى كادت نظارته تسقط فأخذت أسأله غاضبًا عن سبب ضحكه، أتذكر أن إجابته كانت كالتالي:

"لأنه من الغريب أن نفكر في مدى ملائمة الأمر للوالدين وفقط فهو أمر أناني للغاية".

بالطبع قد يختلف المعنى قليلاً فلم أكن على دراية كافية بلغة الكابّا. وفي مقابل هذا فليس عندنا نحن البشر ما هو أغرب من طريقة الوضع عند الكابا، فقد ذهبت إلى منزل باجّو قبيل أن تضع زوجته حملها، إنهم يلدون مثلنا نحن البشر؛ أي إنهم يلجأون إلى الطبيب أو الداية أثناء الولادة،

ولكن إذا ما حل موعد الولادة فإنّ الأب يقرب فمه من أعضاء الأم التناسلية ويصيح كأنما يتحدث في الهاتف سائلاً:

"أنت! هل ستأتي إلى هذا العالم؟ لا تـُجبْ إلا بعد أن تفكر جيدًا".

وقد قام باجّو بثني ركبتية وكرر هذا السؤال أكثر من مرة ثم قام بالغرغرة بالمطهر الذي كان موضوعًا على الطاولة، عندها أجاب الطفل الذي كان في أحشاء زوجته بصوت صغير:

"لا أريد أن آتي لهذا العالم، فأولاً كل ميراثي عن أبي هو المرض النفسي ثم إنني أعتقد أن وجود الكابّا أمرٌ سيء".

خجل باجّو عندما سمع هذه الإجابة، عندها قامت الدايات بإقحام علبة زجاجية في أعضائها التناسلية وحقنوها بسائل ما، عندها أخذت الزوجة نفسًا عميقًا وكأنها ارتاحت، وبدأت بطنها التي كانت كبيرة حتى هذه اللحظة في الانكماش كالبالون الذي يُفرّغ من الهواء.

وبالطبع فإن أطفال الكابا اللذين يستطيعون أن يجيبوا مثل هذه الإجابة يتمكنون من المشي والحديث بمجرد ولادتهم، وقد روى لي تشاكّو عن كابّا قام بإلقاء محاضرة عن وجود الإله من عدمه بعد ستة وعشرين يومًا من ولادته، ولكن هذا الكابُا قد مات وهو في عمر الشهرين.

فلأقص عليكم الآن قصة ملصق كبير رأيته على ناصية أحد الشوارع بعد نحو ثلاثة أشهر من مجيئي إلى أرض

الكابّا؛ كان الملصق يحتوى على رسم لما يفوق عشرة من حيوانات الكابّا بعضهم ينفخ أبواقًا وبعضهم يحمل سيوفًا مكتوبًا فوقها بالحروف الحلزونية التي يستخدمها الكابا، وإذا ما ترجمنا هذه الحروف الحلزونية فسيصبح معناها كما يلي، مع العلم أن فهمي قد يحوي شيئًا من الخطأ، وعلى العموم فقد قمت بكتابة كل ما قرأه عليّ رابّو وهو تلميذ كان يسير معي:

"نبحث عن متطوعين
أيها الكابّا الأصحاء ذكورًا وإناثًا
من أجل القضاء على الجينات السيئة
فليتزوج غير الأصحاء من بعضهم".

وعندما قلت له إننا لا نفعل ذلك انفجر في الضحك وكلٍ مَنْ كان معه من الكابّا الواقفين بالقرب من الملصق قائلاً:

"ماذا تقصد؟ أعتقد أنكم تفعلون هذا مثلنا تمامًا أو لم تعتقد أن ابنك يقع في غرام خادمة أو أنّ ابنتك تقع في غرام سائق؟ إنكم تحاولون أن تقضوا على الجينات السيئة ولكنكم دون أن تعوا ذلك، وعلى الأقل فمتطوعينا أفضل من متطوعيكم الذين قصصت بنفسك أنهم قتلوا بعضهم من أجل سرقة خط السكك الحديدية".

قالها رابّو بجدية ودموعه لا تتوقف، ولكنني بدلاً من أن أضحك حاولت أن أمسك بكابّا خلفي؛ لأنني انتبهت أنه قد سرق قلمي، ولكن كان من الصعب أن أمسك به فالكابّا كائنات ناعمة الجلد، وما لبث أن هرب من أمامي.

(٥)

لقد عرفت رابّو هذا عن طريق باجّو الذي طلب منه أن يهتم بي، ومما لا يمكنني أن أنساه هو عندما عرّفني على كابّا آخر يُدعى توكّو، كان توكّو شاعرًا لا يختلف عن شعراء البشر الذين يطيلون شعورهم، كنت في بعض الأحيان أذهب إلى منزل توكّو لأتغلب على الملل، لقد كان تاكّو يعيش حياة مرحة يشرب السجائر، ويكتب الشعر في غرفته الصغيرة، كما كانت هناك أنثى كابّا تجلس في ركن الغرفة تحيك أو تفعل شيئًا ما كهذا.

(كان يؤمن بالحب الحر ولذلك فلم يكن متزوجًا)، كان كلما رآني يبتسم قائلاً: (وأصلاً لا تعد ابتسامة الكابّا شيئًا جيدًا، فقد شعروا أنني كنت أفعل شيئًا سيئًا في البداية).

"لقد شرفتنا بزيارتك، تفضل واجلس على هذا الكرسي".

كان يحكي لي الكثير من أخبار الكابا وفنونهم، لم يكن توكّو يؤمن بالحياة العائلية؛ فالأباء والأبناء والأزواج والزوجات والأخوة يعيشون من أجل متعة واحدة هي أن يعانوا من أجل بعضهم، كان يؤمن أن النظام الأسري نظامٌ جنوني يفوق الجنون، وفي أحد المرات أشار توكّو من وإلى خارج النافذة قائلاً: "انظر إلى هؤلاء الحمقى"، وعندما نظرت رأيت كابا شابًا يسير لاهثًا برفقة ما بدا لي أنهم والداه ويتعلق في رقبته العديد من الكابا ذكورًا وإناثًا،

ولكنني شعرت بمدى العبء النفسي الذي يتحمله هذا الشاب ولذلك فقد قمت بمدحه.

"إنك تمتلك الصفات اللازمة لتصبح مواطنًا بهذا البلد، هل أنت اشتراكي؟".

فأجبت بالطبع قائلاً له: "كوا"، وهي التي تعني "بالطبع" بلغة الكابّا.

"إذن لا يهمك أن تضحي بفرد من أجل مائة شخص؟".

"إذن فما مذهبك أنت؟ لقد قال لي أحدهم أنك معارض للحكومة".

"أنا، أنا إنسان فريد من نوعي". (وإذا ما ترجمنا ما قاله حرفيًا سيكون أنا كابا فريد من نوعي).

قالها توكّو بثقة كاملة، كان تاكّو هذا يملك تفكيرًا متفردًا بخصوص الفن؛ فالفن عنده فن للفن لا يمكن لأحد التحكم فيه، ولذلك فإنّ الفنان لابد وأن يكون متميزًا يتخطى مفهومي الخير والشر، ولم يكن هذا رأي تاكّو وحدَه، فقد كان أصحابه من الشعراء يتبنون نفس الفكر، كنت أذهب أحيانـًا إلى نادٍ للمتميزين مع تاكّو حيث كان يتجمع الشعراء، والكتّاب، والنقاد والرسامون، والموسيقيون، والنحاتون، وكل الفنانين المبتدئين، ولكنهم كانوا جميعًا متميزين، وكانوا يتحدثون بإشراق في النادي صالونهم المضيء، كانوا من حين لآخر يظهرون تميزهم هذا، فقد قام أحد النحاتين مرة بإمساك كابّا صغير في إناء الزرع الكبير الذي يحوي السرخس وأخذا يفعلان الفحشاء، كما قامت

إحدى الكاتبات باعتلاء منضدة وقامت باحتساء نحو ستين كأسًا من الخمر القوي، وبمجرد انتهائها من الكأس الأخير حتى سقطت من على المنضدة وماتت.

أما أنا فقد عدت مع توكّو من نادي المتميزين في ليلة مضيئة، كان توكّو مكتئبًا على غير العادة ولم ينطق بكلمة واحدة ثم مررنا تحت نافذة كان ضوء النيران واضحًا منها، وفي الجانب المقابل للنافذة جلس زوجان من الكابّا ومعهم أطفالهم الثلاثة إلى طاولة العشاء، وإذا بتوكّو يتنهد وقال لي فجأة:

"أنت تعتقد أنني شخص متفرد لا أؤمن بالعائلة، ولكنني أشعر بالغيرة عندما أرى منظرًا مثل منظر هذه العائلة".

ظللت أنظر إلى الطاولة التي جلس إليها ثلاثتهم وفي النهاية أجبته قائلاً:

"هذا لأنّ البيضَ الموضوع على الطاولة أصح من الحب، أليس كذلك؟".

(٦)

愛

في الواقع كان الحب في عالم الكابّا يختلف عن الحب في عالمنا نحن البشر، فمبجرد أن تجد الأنثى مَنْ تعتقد أنه مناسب لها فهي تحاول الإيقاع به بشتى الطرق بل إنّ الكابّا المخلصة قد تطارد الذكر بتهور، وقد رأيت قبل ذلك إحداهن تطارد أحدهم، ليس هذا وفقط بل إنهم يطاردون آباء الهدف وأخواتهم؛ أي إن الذكر هو المسكين لأنه حتى وإن أفلح من محاولات تتبع إحداهن فسوف يتكرر الأمر بعد عدة أشهر، لقد كنت في إحدى المرات أقرأ ديوانًا من شعر توكّو في منزلي وإذا بالتلميذ رابّو يهرع إلى المنزل، وبمجرد أن دخل إلى المنزل حتى انكفأ على الأرض وأخذ يقول لاهثًا:

"يا للهول، لقد أصبحت أُطارد".

ألقيت الديوان الذي كان في يدي وقفلت الباب بالقفل، ونظرت من فتحة المفتاح فرأيت كابّا قصيرة لا تزال منتظرة، قضى بعدها رابّو عدة أسابيع في منزلي، وأصبحت رائحة منقارة عفنة.

ولا نستطيع القول إنه لا يوجد بعض الذكور الذين

يطاردون الإناث بكل ما أُوتوا من طاقة، فقد سبق لي وأن رأيت هذا أيضًا، ورأيت الذكر يحاول إيقاف الأنثى إذا ما حاولت الهرب، وفي بعض الأحيان قد يحلو للذكر الحظ فتسمح له الأنثى بالإمساك بها، أما الذكر الذي رأيته فقد احتضن الأنثى وأخذ يتدحرج بها وعندما قام اعتلت وجهه نظرات حسرة لا توصف لا تدري إذا ما كانت خيبة أمل أم ندم أو ماذا؟، ولكن هذه القصة لا تزال في نطاق المعقول؛ فقد رأيت مرة ذكرًا صغيرًا يطارد أنثى وكالعادة كانت الأنثى تهرب بطريقة مغرية، فإذا بذكر كبير مسموعة أنفاسه يجيء من الجهة الأخرى من الشارع، وما أن رأته الأنثى حتى صرخت:

"يا للهول، أرجوك أنقذني، إنّ هذا الكابا يحاول قتلي".

وبالطبع فقد أمسك الكابّا الكبير بالكابا الصغير وطرحه بوسط الطريق، وأخذ الكابّا الصغير يحرك يديه بضع مراتٍ في السماء ثم مات، وعندها أخذت الأنثى تضحك وتعلقت برقبة الكابا الكبير.

لقد طـُورد كل من أعرفهم من ذكور الكابا من قبل الإناث، وبالطبع فحتى باجّو المتزوج قد طـُورد أيضًا بل وأُمسك به عدة مرات، ولكن ماجّو الفيلسوف (وهو جار توكّو الشاعر) لم يُمسك به من قبل، وهذا لأنه كان شديد القبح، لقد ذهبت عدة مرات إلى منزله لنتجاذب أطراف الحديث، فكنت دائمًا أجده جالسًا في غرفته المظلمة يقرأ كتبـًا سميكة على مكتبه العالي في ضوء المصباح الزجاجي، وفي إحدى المرات تناقشنا سويًا عن الحب:

"لماذا لا تتعامل الحكومة بشكل أكثر صرامة مع الإناث اللواتي يطاردن الرجال؟".

"إنّ قلة عدد الإناث اللواتي تعملن هو أحد الأسباب، فالغيرة عند النساء أعلى بكثير منها عند الرجال، وإذا ما ازداد عدد الإناث اللواتي تعملن فإن الرجال سيستطيعون العيش دون أن يُطاردوا، ولكننا قد سبق لنا أن عرفنا نتيجة هذا، فالإناث يطاردن زملاءَهم في العمل".

"إذا فأكثر الناس حظـًا هو مَنْ يحيى مثلك أنت".

عندما قلت هذا قام ماجّو من على كرسيه وضم ذراعيه وتنهد تنهيدة عميقة وقال لي:

"لن تستطيع أن تفهم فأنت في الأصل لست واحدًا منّا، ولكنني في بعض الأحيان أشعر أنني أريد أن تطاردني بعض الإناث المخيفات".

(٧)

كنت أذهب مع تاكّو الشاعر إلى حفلات موسيقية، ولكنني لا أستطيع أن أنسى حتى الآن ثالث حفلة ذهبنا إليها سوية، لم يكن منظر المكان المقام به الحفل يختلف عن اليابان، كان الكابّا يستمعون إلى الموسيقى وهم يحملون في

أيديهم ورق برنامج الحفل، في تلك المرة كنت قد ذهبت مع الأول، وبعد انتهاء العزف المنفرد قامت كابا ضيقة العينين توكّو وصديقته وماجّو الفيلسوف وكنا نجلس بالصف باعتلاء المسرح حاملة معها كتابًا للنوت الموسيقية، ووفقًا لما كان مذكورًا في البرنامج فإنّ هذا الكابّا هو مؤلف موسيقي شهير يُدعى كورباكّو، ووفقًا للبرنامج، لا ليس هذا مذكورًا في البرنامج، كنت أعرف وجه كورباكّو فقد سبق لي أن رأيته في نادي المميزين الذي ينتمي إليه توكّو.

"ليد كراباك" (لقد كانت أغلبية برامج هذا البلد تكتب بالألمانية).

اتجه كورباكّو إلى البيانو بهدوء بعد أن حيّانا وسط تصفيق حار من الجمهور ثم أخذ يعزف المزمار الذي كان قد صنعه بنفسه، كان توكّو يقول إنه موهبة لا مثيل لها في هذه البلاد، أخذت أستمع إلى عزفه وكلماته، أما توكّو وماجّو فقد سُلب عقلهما بعزفه، أما تلك الأنثى الجميلة (في أعين الكابّا) فقد بقيت ممسكة بورقة البرنامج وأخذت تخرج لسانها من حين لآخر، أخبرني ماجّو أنها كانت قد فشلت في الإمساك بكورباكّو قبل نحو عشر سنوات ولذلك فهي تكرهه حتى اللحظة.

استمر كورباكّو في العزف متأثرًا، وفجأة دوّى من وسط القاعة صوت كصوت الرعد يقول: "ممنوع العزف"، تفاجئت من هذا الصوت والتفت خلفي وعرفت أن صاحب الصوت هو شرطي يجلس في آخر القاعة، وعندما التفت كرّر كلماته وهو جالس على المقعد بكل هدوء:

"ممنوع العزف" وبعدها...

وبعدها عمت الفوضى، كراسي تتكسر، وأوراق البرنامج تتطاير، وعلب مشروبات غازية فارغة وأحجار تُلقى، وسط أصوات متعالية "سلطات مزعجة". اعزف يا كورباكّو، "غبي"، "حيوان"، "انسحب"، "لا تهزم"، أما أنا فقد أخذتني المفاجأة وحاولت أن أسأل توكّو عن سبب كل هذا، ولكنه كان قد انخرط في وسط كل هذا واعتلى كرسيًا وأخذ يصيح: "اعزف يا كورباكّو"، أما صديقته فلم تكن تختلف عنه حيث أخذت تصيح: "تسقط الشرطة"، وكأنها نسيت ثأرها القديم، فلم أيأس وذهبت إلى ملجّو سائلاً إياه: "ماذا حدث؟".

"هذا الذي يحدث الآن؟ إنه أمر متكرر في هذ البلاد".

خفض رقبته متفاديًا شيئًا ما كان يطير في الهواء وأخذ يشرح لي بهدوء.

"لا يوجد منع في هذه البلاد للبيع أو لعرض اللوحات الأصلية أو الأعمال الفنية؛ لأن الجميع يفهم ما هي، أما الموسيقى فمنها ما يدمر التقاليد ولذلك يوجد ما يُسمى بمنع العزف".

"حسنًا لدي سؤال، ألم تتذكر وأنت تسمع هذا اللحن نبض قلبك وأنت نائم إلى جوار زوجتك؟".

في تلك الأثناء ازدادت الضوضاء، التفت كورباكّو إلينا وهو جالس إلى البيانو كما كان، ومهما تظاهر بالبراعة فلم يمنع هذا من تطاير العديد من الأشياء، ولذلك فقد تغير سلوكه بعد عدة ثوان، ولكنه احتفظ بهيبته ولمعت عيناه

الصغيرتان، أما أنا فقد اختبأت وراء توكّو لأحمي نفسي، ولكن الفضول أخذني واستكملت حديثي مع ماجّو قائلاً:

"ما كل هذا العنف؟".

"أليس أفضل من الحال في بلاد كثيرة؟ انظر إلى حال بلاد...، فقد حدث الشهر الماضي أن...".

وفي اللحظة التي كان يقول فيها هذا سقطت على رأسه إناء فأخذ يصرخ: "كـواك"؛ وهي (من الكلمات المستخدمة للتعبير عن المشاعر ورد الفعل والنداء) ثم سقط مغشيًا عليه.

(٨)

لقد اهتممت اهتمامًا غريبًا بجيرو رئيس شركة الزجاج، لقد كان جيرو رأسماليًا حقيقيًا ولا خلاف على أن جيرو كانت لديه بطن التي رأيتها في الكابا، أما زوجته التي تشبة الليتشي؛ وهي (ثمرة صينية كبيرة الحجم شكلها يـُشبه البيضة)، وابنه الذي يشبه الخيارة فقد كانا محظوظين لتمكنهم من الجلوس على كرسي، كنت أذهب لتناول العشاء معهم في بعض الأحيان برفقة القاضي بيبّو والطبيب تشاكّو، كما دعاني جيرو لزيارة مصنعه ومصانع العديد من أصدقائه، كان مصنع المطبوعات هو أكثر المصانع التي تمتعت بزيارتها، عندما دخلت إلى المصنع برفقة أحد المهندسين فدهشت من مدى تقدم المصانع المميكنة عند الكابّا عند ذلك نظرت إلى ماكينة كبيرة تعمل

بالكهرباء المتولدة من الطاقة المائية، وكما قيل لي فإن هذا المصنع ينتج نحو سبعة ملايين كتاب في العام الواحد، ولكن ما أدهشني لم يكن عدد الكتب، فليس إنتاج هذا العدد من الكتب بالأمر الصعب بالنسبة لهم، فكل ما كانوا يفعلونه هو إدخال الورق والحبر وبودرة رمادية اللون إلى الماكينة، وبعد مرور نحو خمس دقائق تخرج الكتب في عدد لا حصر له من المقاسات المختلفة، سألت المهندس الذي كان يقف مُرجِعًا ظهري إلى الوراء وأنا أنظر إلى الكتب الخارجة مثل النهر المتدفق من مكان عال: "ما هي هذه البودرة الرمادية؟"، فأجابني بفتور وهو يقف أمام الماكينة التي قد أضاءت ضوءًا أسودًا:

"هذه؟ إنها من مخ الحمير، نعم، ليست سوي بودرة مجففة من مخ الحمير، وهي زهيدة الثمن".

وبالطبع لم يكن هذا يحدث في مصنع الكتب فقط، كان أمرًا متكررًا في مصانع الصور والموسيقى، ووفقًا لما قاله لي جيرو فإنّ البلاد بها في المتوسط نحو سبعمائة أو ثمانمائة نوع من الماكينات، ولذلك فإن بإمكانهم أن ينتجوا بكميات ضخمة دون الاحتياج للأيدي العاملة، ولذلك فإنّ عدد المُستغنى عنهم من العمال لا يقل عن أربعين ألفًا أو خمسين ألفًا، ومع ذلك فلا يوجد خبر واحد في الصحف يتحدث عن البطالة، استغربت كثيرًا من ذلك وسألت جيرو وتشاكّو وبيبّو عن سبب ذلك ونحن نجلس على طاولة العشاء في يوم من الأيام:

فقال لي جيرو ببساطة وهو يدخن سيجارة: "لأنّ الجميع

يأكلهم"، ولكنني لم أفهم معنى هذه الجملة، فإذا بتشاكّو يشرح لي وهو مرتدٍ نظارته:

"إنّ هؤلاء العمال يتم قتلهم وتحويلهم إلى لحوم، انظر هذا الخبر في الجريدة، يقول أنّ أسعار اللحوم قد انخفضت لفقد أربعة وستين ألفًا وسبعمائة وتسعة عشر عاملاً لوظائفهم".

"وهل يقفون مكتوفي الأيدي أمام قتلهم؟".

أجاب بيبّو قائلاً:

"لن يفيدهم الاعتراض بشيء؛ لأنّ هناك قانونًا يسمح بذلك".

بالطبع شعرت بالضيق، ولكنّ جيرو وتشاكّو وبيبّو كانوا يعتبرونه أمرًا طبيعيًا، قال تشاكّو ممازحًا إياي:

"أي إنّ البلاد توفر عليهم عناء الموت جوعًا أو الانتحار، وهم لا يتألمون كثيرًا فهم فقط يتعرضون للغاز السام".

"ولكن أكل لحومهم...".

"لا تمزح، ألم تتحول نساء الطبقة الفقيرة في بلادكم إلى عاهرات؟ إن أكل لحوم العمال لأمر مؤلم".

أما جيرو الذي سمع هذه الإجابة فقد قام بتقريب صحن الشطائر الذي كان موضوعًا على الطاولة، وقال لي:

"تفضل شطيرة، إنها من لحم العمال".

شعرت بالقرف، بل إنني رحلت من بيت جيرو تاركًا إياهم يضحكون، كانت ليلة مظلمة لا يُرى فيها حتى ضوء للنجوم، تقيأت وأنا عائد إلى منزلي في هذا الظلام.

(٩)

ولكن جيرو رئيس شركة الزجاج كان شخصًا ودودًا، لقد ذهبت معه إلى ناديه وقضينا الليلة هناك، وهذا لأنه كان مكانا أفضل بكثير من نادي المميزين الذي يذهب إليه توكّو، وحتى إن لم يكن كلام جيرو بعمق كلام ماجّو الفيلسوف فقد أراني عالمًا مختلفًا تمامًا، كان كثيرًا ما يتحدث معي وهو يعطيني كوبَ القهوة.

وفي ليلة كثيفة الضباب أخذت أستمع إلى حديث جيرو تتوسطنا زهرية من زهور الشتاء، أتذكر أن الغرفة كلها كان بها كراسي وطاولات حوافها بيضاء مذهبة، حدثني جيرو وهو يبتسم ابتسامة ماهرة عن مجلس الوزراء الذي سيطر عليه حزب كوراكس، أما كلمة كوراكس فلم يكن لها أي معنى، وعمومًا فقد كان حزبًا سياسيًا يدعو إلى مصلحة جميع الكابّا.

"كان المتحكم في حزب كوراكس يُدعى روبّى، وقد قال عنه السياسي الألماني بيسمارك: (إنه دبلوماسي أمين من الطراز الأول)، وكان روبّى يدير السياية الداخلية للبلاد بأمانة".

"وماذا كان مبدأه؟".

"استمع جيدًا لما سأقوله لك، لقد كانت مبادءة عبارة عن أكذوبة، وكان الجميع يعلم ذلك إلا إنه كان أمينـًا في نهاية الأمر، أنتم فقط متحيزون، أما نحن الكابا فالأمر بالنسبة لنا سواء، ما أريد الحديث عنه هو روبّى نفسه، لقد كان يتحكم في الحزب، وكان كوي كوي رئيس جريدة بوفو (وهذا الاسم أيضًا ليس له معنى) يتحكم بدوره في روبّى، أما المتحكم في كوي كوي فهو جيرو الموجود أمامك الآن.

"اعذرني قد يبدو هذا سوء أدب مني، ولكنّ هذه الجريدة موالية للعمال، فكيف تقول أنك تتحكم بكوي كوي".

"إن الصحفيين في جريدة بوفو هم بالتأكيد من الموالين للعمال، ولا يوجد متحكم بهم سوى كوي كوي، وكوي كوي لا يستطيع أن يستمر دون معوناتي".

أخذ جيرو يحرك ملعقته الذهبية وهو يبتسم كالعادة، لم أشعر بالغضب من جيرو ولكنني شعرت بالتعاطف مع الصحفيين في جريدة بوفو، شعر جيرو بتعاطفي الصامت هذا فقال لي وهو ينفخ بطنه الكبيرة:

"ليس كل الصحفيين في بوفو مواليين للعمال، لأننا نحن الكابا نوالي أنفسنا قبل أنْ نوالي الآخرين، ولكن الأمر السيء هو أن هناك مَـنْ يتحكم بي أنا شخصيًا، مَنْ تعتقد أنه؟ إنها زوجتي، زوجة جيرو الجميلة".

وضحك بصوت عال.

فقلت له: "ولكنك سَعيد بهذا، أليس كذلك ؟".

فأجاب: "إنني راضٍ في أي حال، ولكـنني لا أستطـيع أن

أعترف بهذا سوى أمامك أنت؛ لأنك لست من الكابا".

"إذا فالمتحكم في مجلس وزراء كوراكس كانت زوجتك".

"يمكنك أن تقول هذا، ولكن الحرب التي قامت منذ سبع سنوات كانت بسبب امرأة".

"حرب؟ أتتحاربون في هذه البلاد أيضًا؟".

"لقد قامت الحرب قبل هذا، ولكن هذا لا يعني أنها ستقوم في المستقبل على الأقل مع الدولة المجاورة لنا".

علمت عندها فقط أن بلد الكابا ليست منعزلة؛ فمما فهمته من كلام جيرو أنهم يعادون دولة القضاعات على الدوام، ولكن القضاعات يمتلكون معدات حربية لا يمكن أن تنهزم أمام الكابا، تملكني الفضول عن هذه الحرب بين الكابا والقضاعات

"لابد وأن كلا البلدين لم يكن متجاهلاً للموقف قبل الحرب وكان يتقصى عن الآخر، فكل منهما كان يخشى الآخر، وفي إحدى المرات قامت قضاعة موجودة بهذا البلاد بزيارة إحدى الإناث من الكابا، وكان ينتوي قتل زوجها، ربما يكون قد أغراه أن الزوج كان لديه تأمين على الحياة"

"هل تعرف هذين الزوجين؟".

"نعم، لا إني أعرف الذكر فقط كانت زوجتي تقول عنه: (إنه رجل سيء)، أما أنا فكنت أعتقد أنه مجنون لديه رعب شديد من أن تمسك به إحدى الإناث، أما زوجته فقد قامت بدس سم قوي له في كوب مشروب الكاكاو الخاص به، ولكنه أخطأ وجعل القضاعة الضيف يشربه، وبذلك

مات الضيف، بعد ذلك...".

"بعد ذلك نشبت الحرب؟".

"نعد، فقد كان يحمل وسامًا".

"مَنْ انتصر في تلك الحرب؟".

"بالطبع لقد انتصرنا نحن، فقد مات منا ثلاثمائة وستة وتسعون ألفـًا وخمسمائة كابا ماتوا بشرف، ولكن العدو لم يتكبد مثل هذه الخسائر، فالفراء الذي يتوافر في بلادنا معظمه من القضاعات حتى أنا كنت إلى جانب صناعة الزجاج أبعث بالفحم إلى أرض المعركة".

"وماذا يفعلون بالفحم؟".

"إنهم بالطبع يجعلون منه طعاما، فنحن الكابا بامكاننا تناول أي شيء إذا ما نقص الغذاء عندنا".

"إذن – وأرجوك ألا تغضب مني- إن هذه تعتبر فضيحة في البلاد التي أتيت منها".

"لا يوجد لدينا ما يُسمى بالفضائح في هذه البلد، وإذا ما كنت أنا نفسي أقول هذا فيمكنك أن تقول إنه لا يوجد من يعتبرها فضيحة، ألم يقل لك ماجّو الفيلسوف أن تعرف أخطاءك قبل تفكر في أخطاء الآخرين، وأن تبدأ بمحو الشر من نفسك أولا، كما أنني كنت أحترق من أجل مصلحة هذا البلد".

وفي هذه اللحظة تحديدًا جاء نادل من النادي، وبعد إلقاء التحية على جيرو قال وكأنما يتلو شيئـًا:

"إنّ المنزل المجاور يحترق".

"حريق حريق".

فوجئ جيرو وهبّ واقفـًا، وبالطبع فقد قمت أنا أيضًا، لكن النادل قال بصوت هادئ:

"ولكننا انتهينا من إطفائها".

ودّع جيرو النادل وهو يكاد يبكي من الفرح، وعندما رأيت وجهه هذا لاحظت أنني كنت أمقت رئيس شركة الزجاج هذا، ولكن جيرو كان يقف هناك ليس بصفته رأسماليًا أو ما شابه ذلك، لقد كان مجرد كابّا عادي، أخذت الأزهار الشتوية التي كانت في الزهرية وناولتها لجيرو، وقلت له:

"حتى وإن كانوا قد أطفأوا الحريق فلابد وأن زوجتك مصدومة، احمل هذه الأزهار وعد إلى المنزل":

"شكرًا".

أمسك جيرو بيدي ثم ضحك، وقال لي بصوت منخفض:

"إنه منزل صنعته بنفسي، وسيمكنني أن أحصل على أموال التأمين".

مازلت أتذكر أنني عندما رأيت هذه الابتسامة لم أستطع أن أحتقره أو أكرههُ.

(١٠)

"ما بك اليوم؟".

كان هذا في اليوم التالي للحريق، أشعلت سيجارة وقلت لرابّو التلميذ الذي كان يجلس على كرسي في غرفة الضيوف، وكان يضع رجله اليمنى فوق اليسرى ويحدّق بالأرض دون أن يلحظ حتى مدى عفانة رائحة منقاره.

"ما بك يا رابّو؟" كررتها عدة مرات.

"لا شيء إنه مجرد أمر تافه".

وأخيرًا رفع رابّو رأسه، وقال:

"لقد فتحت النافذة اليوم، وقلت بصوت هامس: (لقد تفتحت أزهار البنفسج التي تجمع الحشرات)، وإذا بأختي الصغرى تقول لي وقد تغيّر لون وجهها: (ألست تنفس غضبك عليّ بهذه المقولة)؛ لأنّ أمي تفضل أختي عليّ فقد قامت بالطبع بتوبيخي".

"ولّما شعرت أختك بالضيق من تفتح أزهار البنفسج؟".

"ربما تكون قد فهمت أنني أعني الإمساك بذكر من الكابّا، وقد تدخلت خالتي التي هي على علاقة سيئة بأمي

مما زاد الأمر حدة، وعندما سمع والدي السكران أصواتنا أخذ يضربنا دون أن يميز بيننا، وفي أثناء ذلك قام أخي الصغير بسرقة محفظة أمي وذهب إلى السينما، أنا، أنا حقـًا قد...".

وضع رابّو وجهه بين يديه وأخذ يبكي دون أن ينطق بكلمة واحدة، بالتأكيد تعاطفت معه، وبالطبع تذكرت توكّو الذي يعارض النظام الأسري، وأمسكت بكتفي رابّو وحاولت أن أواسيه بشتى الطرق.

"إنّ مثلَ هذه الأمور تحدث للجميع، لا تأبه بها".

"ولكن... ولكن إذا لم يكن منقاري كريه الرائحة هكذا...".

"ليس بإمكانك أن تفعل شيئـًا حيال ذلك، هيا نذهب إلى منزل توكّو".

"إنني أكره توكّو؛ لأنني لا أستطيع أن أتخلى عن أسرتي مثلما فعل".

"إذا فلنذهب إلى منزل باجّو".

وبما أنني كنت قد كونت صداقة مع كوراباكّو بعد الحفل الموسيقي فقد اصطحبت رابّو وذهبنا إليه، كان كوراباكّو يعيش حياة مرفهة إذا ما قورن بتوكّو، ليس معنى هذا أن معيشته كانت مثل معيشة جيرو الرأسمالي، ولكن غرفته كانت مليئة بالأشياء العتيقة ودمى يونانية قديمة ومصنوعات خزفية فارسية، وكان لديه أيضًا أريكة تركية، لا أدري ماذا كان به اليوم ولكنّه كان يجلس ضامًا ذراعية على صدره وعلامات الضيق تعتلى وجهه، كما كانت الأوراق مبعثرة عند قدميه، كان رابّو قد قابل كوراباكّو عدة مرات مع توكّو

الشاعر، ولكنه كان قلقـًا عندما رأه على هذه الشاكلة وحيّاهُ بأدب ثم دخل إلى الغرفة صامتا وجلس بركن الغرفة.

"ما بك يا كوراباكّو؟".

سألته هذا السؤال بدلاً من أن أحييه.

"ماذا أفعل؟ لقد قام ناقد غبي فقال إن شعري لا يمكن أن يقارن بشعر توكّو".

"ولكنك موسيقي".

"كان يمكنني التحمل إذا كان الأمر مقصورًا على هذا، ولكنه قال إنني كموسيقي لا أُقارن بروكّو".

أما روكّو هذا فهو موسيقي كثيرًا ما يُقارن بكوراباكّو، ولكن لأنه ليس عضوًا في نادي المميزين فلم يسبق لي أن رأيته مرة واحدة، ولكني كثيراً ما رأيت وجهه الذي يُوحي بالغرابة.

"لا شك في أن روكّو أيضًا موهوبٌ، ولكنّ موسيقاه لا تحمل العاطفة التي تحملها موسيقاك".

"أتعتقد ذلك حقـًا؟".

"نعم".

وبمجرد أن قام كوراباكّو أمسك دمية من الدمى اليونانية القديمة وألقاها على الأرض بقوة، دُهش رابّو من هذا التصرف فأصدر صوتـًا وهَـمّ بالهروب، ولكننا أشرنا له ألا يفزع وقال لنا كوراباكّو ما يلي بهدوء:

"هذا لأنك لا تمتلك أذنـًا مثل الناس العاديين، إنني أخاف من روكّو...".

"أنت؟ تـوقف عن التواضع".

"مَنْ الذي يتوقف عن التواضع؟ كان من الأبدى أن أظهر هذا أمام النقاد إذا ما كنت سأظهره أمامكم، إنني... كوراباكّو العبقري، ليس هذا ما أخاف منه".

"إذا مما تخاف؟".

"إنني أخشى من النجم المتحكم به ".

"لا أفهمك".

"حسنـًا، ربما ستفهم إذا ما قلت لك إنّ روكّو ليس متأثرًا بي، ولكنني – لا أدري متى – تأثرت به".

"أليس هذا نابعًا من حساسيتك؟".

"اسمعني جيدًا، لا علاقة للحساسية بالأمر، إنّ روكّو يعمل وهو مرتاح البال، أما أنا فينتابني القلق، قد يعتقد روكّو أن الفرق بيننا هو خطوة واحدة، أما بالنسبة لي فهو كبير".

"ولكنّ ألحانك البطولية....".

ضيّق كوراباكّو عينيه الضيقتين أكثر وحدّق برابّو بشدة قائلاً له:

"اصمت، ماذا تفهم أنت وأمثالك؟ إنني أعرف روكّو جيدًا، أعرفه أكثر من الكلاب التي تؤدي له فروض الولاء".

"اصمت قليلاً".

"لا أستطيع أن أصمت، لقد وضعني هذا الشخص الذي لا نعرفه وضعني أنا كوراباكّو في مقارنة مع روكّو ليضايقني وفقط. إنّ ماجّو الفيلسوف يمكنه أن يفهم هذا أيضًا، على الرغم من أنه يمضي كل وقته تحت ذلك

المصباح ذي الزجاج الملون يقرأ الكتب القديمة".

"لماذا؟".

"انظر إلى الكتاب الذي كتبه ماجّو والذي يُدعى (كلمات الحمقى)".

ثم أعطاني كوراباكّو نسخة من هذا الكتاب أو بالأصح ألقاه إليّ ثم قال لي وهو يضم يديه:

"فلنفقد تأدبنا اليوم".

قررت أنا ورابّو المكتئب أن نعاود أدراجنا، سرنا في صمت، وبالصدفة التقينا بالشاعر توكّو صاحب الشعر الطويل، وبمجرد أن رآني أخرج منديلاً من الجيب الذي في بطنه وأخذ يجفف وجنته:

"لقد مرّ وقت منذ أن تقابلنا آخر مرة، لقد كنت أنتوي الذهاب إلى منزل كوراباكّو اليوم".

عندها رأيت أنه سيكون شيئًا مؤسفًا إذا ما تشاجر هذان الفنانان فأخبرت توكّو أنّ كوراباكّو متضايق جدًا.

"أهو كذلك؟ إذن لن أذهب، فهو شخص مرهف الإحساس، وأنا أيضًا متعب لأنني لم أنم جيدًا منذ عدة أسابيع".

"ما رأيك أن نتمشى قليلاً؟".

"لا، لن أفعل شيئًا اليوم".

وبمجرد أن قال هذا حتى تمسك بذراعي وهو يتصبب عرقًا:

"ما بك؟".

"ما بك؟".

"أعتقد أنني رأيت قردًا أخضر ينظر من نافذة تلك العربة".

قلقت عليه ونصحته بالذهاب إلى منزل الطبيب تشاكّو ليفحصه، ولكنه لم يفهمني أبدًا حتى إنه أخذ ينظر إليّ في شك قائلاً:

"أنا لست مَنْ يعارضون وجود الحكومة، تذكر هذا دائمـًا، إلى اللقاء".

أخذنا ننظر إلى ظهر توكو ونحن متعجبان، نحن، لا أنا فقط، فقد وقف رابّو التلميذ في وسط الطريق وفتح ساقيه وأخذ ينظر من خلالهما إلى المارة والسيارات، عندها اعتقدت أنه قد جُنّ جنون هذا الكابا وجذبته من وسط الطريق.

"هذا ليس مزاحـًا، ماذا تظن نفسك فاعلا؟".

"من فرط اكتئابي فكرت أن أرى العالم رأسـًا على عقب، ولكنني لم أجد أي اختلاف".

(١١)

هذه بعض الجمل التي وردت في كتاب (كلمات الحمقى) الذي كتبه ماجّو الفيلسوف:

يعتقد الأحمق دائمًا أن الجميع باستثنائه حمقى.

إنّ الحياة الذكية هي أن تعيش وأنت تحتقر عادات العصر وألا تخرقها على الإطلاق.

إنّ أكثر ما نرغب في الفخر به هي الأشياء لا نمتلكها.

إنّ الفكر الذي يلزمنا في حياتنا موجود منذ نحو ثلاثة آلاف عام، ونحن فقط نُشعل نارًا جديدة في الحطب القديم.

إنّ صفاتنا دائمًا ما تتعدى معرفتنا.

ماذا لو صاحبَ السعادةَ ألمٌ وصاحبَ السلامَ مللٌ؟

إنّ دفاع الإنسان عن نفسه أصعبُ من دفاعه عن شخص آخر، ومَنْ يشك في هذا فلينظر إلى محامي.

إنّ كل الجرائم التي وقعت منذ آلاف السنين بدأت من الشك والشهوة والفخر، ومن هذا أيضًا نبعت معظم الفضائل.

لا يجلب تخفيض شهوتك للأشياء المادية لك السلام في

كل الأحوال، لابد أن نخفض أيضًا من رغباتنا المعنوية (كان أثر ظفر كورباكّو باقيـًا على هذه الجملة).
إننا أكثر تعاسة من البشر، ولكن البشر ليسوا بمثل تقدمنا (ضحكت دون أن أدري وأنا أقرأ هذه الكلمات).

(١٢)

ذهبت في ظهيرة أحد الأيام البارحة بعد أن مللت من قراءة هذا الكتاب إلى ماجّو الفيلسوف، وإذا بي أرى في الطريق كابا نحيل كالذبابة يقف في مقابلة الحائط، كان هذا هو الكابا الذي سرق قلمي من قبل، اعتقدت أنني قد فزت فوزًا عظيمًا اقتربت منه وناديت على شرطي قوي:
"أرجوك حقق مع هذا الكابا؛ فقد سرق قلمي قبل نحو شهر مضى".
رفع الشرطي العصاة التي كان يحملها في يده اليمنى (الضباط في هذه البلاد يحملون عصي بدلا من السيوف)، ونادى على ذلك الكابا، كنت أعتقد أنه سيلوذ بالفرار، ولكنه وعلى عكس ما توقعت اقترب هادئـًا من الشرطي وشبك يديه وأخذ يحدق بي وبه، ولكن الشرطي لم يغضب على الإطلاق وأخرج من جيبه مفكرة وأخذ يسأله:

obeikandl.com

"ما اسمك".
"جوروكّو".
"ماذا تعمل؟".
"لقد كنت قبل بضعة أيام أعمل كساعي بريد".
"حسنـًا، وفقـًا لأقوال هذا الرجل فإنك قد سرقت قلمه".
"نعم سرقته من نحو شهر".
"لماذا؟".
"فكرت أن أهديه لطفلي ليلعب به".
"وأين هذا الطفل؟".
كانت أول مرة ينظر فيها الشرطي إليه نظرة حادة.
"لقد مات قبل أسبوع".
"هل تمتلك شهادة وفاته؟".
أخرج الكابّا الهزيل ورقة من جيبه، وبمجرد أن ناولها إلى الشرطي حتى انفجرا في الضحك وأخذا يربتا على كتف أحدهما الآخر".
"حسنـًا، نحن آسفين على الإزعاج".
أخذت أحدق بوجه الشرطي، وفي تلك الأثناء أخذ الكابا الهزيل يتمتم بكلمات وأعطانا ظهره وذهب، سألت عندها الشرطي:
"لِمَا لم تقبض عليه؟".
"لأنه ليس بمجرم".
"ولكنه سرق قلمي".
"سرقه ليلعب به طفله، وهذا الطفل قد مات، إذا كنت

لا تثق بي فابحث في المادة رقم ألف ومائتين وخمس وثمانين من قانون العقوبات"

قالها ثم اختفى، أسرعت إلى منزل ماجّو وأنا أشعر بأنه لا شيء بيدي لأفعله، إن ماجّو الفيلسوف يحب استقبال الضيوف، وجدت عنده القاضي بيبّو والطبيب تشاكّو ورئيس شركة الزجاج جيرو وكان دخان سجائرهم يتصاعد إلى المصباح المصنوع من الزجاج الملون، فشعرت بأنني محظوظ لوجود القاضي بيبّو، وما أن جلست حتى سألته عن هذا القانون بدلا من أن ابحث عنه بنفسي:

"بيبّو، أنا آسف ولكن ألا تعاقبون المجرمين في بلادكم؟".

"نفث بيبّو الدخان من فمه وأجابني والملل يبدو عليه:

"نعاقبهم حتى إننا نعدمهم".

"ولكنني قبل شهر...".

وبعدما رويت له التفاصيل سألته عن ذلك القانون:

"نعم إنه يقول إنه لا يمكن معاقبة شخص بعد أن تتغير الظروف التي ارتكب فيها الجريمة، وإذا ما طبقنا هذا على حالتك فإن ذلك الكابا كان أبـًا، ولكنه لم يعد أبـًا ـ ولذلك تمحى جريمته" "ولكن هذا غير منطقي"

"لا يمكنك المزاح بهذا الشأن، اللامنطقي هو أن نقول أن الكابّا الذي كان أبـًا كالكابا الذي هو أبٌ بالفعل، نحن أيضًا لدينا الكثير مما نعتقده مضحكـًا في قانون اليابان".

ألقى بيبّو السجائر وأخذ يضحك، عندها رفع تشاكّو نظارته وسألني:

"هل توجد عندكم باليابان عقوبة الإعدام؟".

"نعم، عقوبة الشنق".

كنت قد شعرت بالضيق من بيبّو الذي كان يجلس هادئـًا فقررت أن أمطره بسخريتي:

"لابد وأن عقوبة الإعدام في هذه البلاد أكثر تحضرًا من اليابان".

"بالطبع هو كذلك".

كم كان هادئـًا:

"نحن لا نستخدم الشنق أو ما شابه في هذه البلاد، ونادرًا ما نستخدم الكهرباء، نحن فقط نقوم بإسماعه الجرم الذي ارتكبه".

"وهل يموت الكابّا بمجرد سماع جرمه؟".

"نعم يموت؛ فالعمليات العصبية في أجسادنا أكثر غرابة منها عندكم".

"لا تستخدم هذه الطريقة في الإعدام فقط، بل تستخدم في القتل أيضًا".

ابتسم رئيس شركة الزجاج جيرو الذي كان وجهه قد صُبغ باللون البنفسجي لانعكاس ضوء المصباح الملون عليه:

"لقد أصيب أحد الرأسماليين بسكتة قلبية عندما قيل له: (إنك لص)".

"إن هذه الحوادث ليست بقليلة، لقد مات محامي أعرفه بذات الطريقة نفسها".

استدرت لأنـظر إلى ماجّـو الفـيلسوف الـذي قال هـذه

العبارة، استمر ماجّو في الحديث وعلى وجهه ابتسامة ساخرة كالعادة:

"لقد قال له أحدهم: (إنك ضفدع)، وقد مات من التفكير فيما إذا كان ضفدعًا بالفعل أم لا، وبالطبع فإنك تفهمني حيث إنّ الضفدع يعتبر من الوحوش في هذا العالم".

"إذن فقد قتل نفسه؟".

"لكن الشخص الذي ناده بلفظ الضفدع ينتوي قتله، ولكن هذا يعتبر بمثابة الانتحار عندكم".

وفي تلك اللحظة دوى صوت عيار ناري بدا، وكأنه قادم من بيت توكّو الشاعر.

(١٣)

هرعت إلى منزل توكّو، كان توكو ملقيـًا على وجهه فوق الزرع وهو ممسك بسلاح في يده اليمنى والدم يتدفق من فمه، وكان بجوراه أنثى دفنت وجهها في صدره وأخذت في البكاء بصوت عال، احتضنتها (على الرغم من أني لا أحب لمس جلد الكابّا الزلق)، وسألتها: "ماذا حدث؟".

"لا أعلم ماذا حدث، لقد كنت أعـتقد أنه يكـتب شيئـًا

وإذا به يطلق النار على رأسه، ماذا أفعل، كررررر، كررررر"؛ (كرر هو صوت بكاء الكابّا).

"لقد كان توكّو أنانيـًا".

قالها جيرو وهو يهز رأسه في حزن للقاضي بيبّو، ولكن بيبّو لم يقل شيئـًا، واكتفي بإشعال سيجارة، بعدها أعلن تشاكو الذي كان قد أخذ يتفحص موقع الجرح لخمستنا:

"إنها النهاية، لقد كان شخصًا يسهل أن يصاب بالاكتئاب".

"ولكن يبدو أنه كان يكتب شيئـًا".

قالها ماجّو الفيلسوف وكأنما يحدث نفسه والتقط الورقة التي كانت على المكتب، مددنا رقابنا لننظر إلى الورقة متخطين كتف ماجّو العريض.

"لا يمكنني الصمود، فلأذهب إلى الواد الذي يتخلل هذا العالم.

فصخورة منحدرة والماء القادم من الجبل نقي.

فلأذهب إلى الوادي حيث يمكنني أن أشم رائحة الأعشاب الطبية".

التفت ماجّو إلينا وابتسم ابتسامة مريرة، وقال:

"إنها كلمات مسروقة من أغنية بإحدى روايات جوث الألماني، إذا فقد كان السبب وراء انتحار توكّو هو أنه تعب من كونه شاعرًا".

وفي تلك اللحظة تصادف أن وصل الموسيقي كورباكّو بسيارته، وعندما رأى هذا المنظر بقى واقفـًا عند الباب لوهلة، ولكنه عندما اقترب منا أخذ يحدث ماجّو بلهجة

غاضبة قائلاً:

"أهذه وصية توكّو؟".

"لا، بل هي آخر شعر كتبه".

"شعر؟".

أعطى ماجّو الذي لم يقاوم ولو قليلاً الورقة لكوراباكّو الغاضب، وأخذ كوراباكّو يقرأها في حماس لدرجة أنه حتى لم يجب على كلام ماجّو:

"ما رأيك في موت توكّو؟".

"لا يمكنني الصمود...لا أدري متى أموت...الوادي الذي يتخلل هذا العالم...".

"ألم تكن من أصدقائه المقربين؟".

"المقربين؟ لقد كان توكّو وحيدًا دائمًا، إلى الوادي الذي يتخلل هذا العالم... لقد كان حزينـًا.... الصخور منحدرة...".

"حزينـًا؟".

"الماء القادم من الجبل... أنتم سعداء... الصخور منحدرة...".

احتضنت الفتاة التي كانت لا تزال تبكى وذهبت لأجلسها على الأريكة في طرف الغرفة، وإذا بكابا في الثانية أو الثالثة من العمر يضحك، احتضنته بدلا من الفتاة، ثم شعرت بالدموع تتجمع في عيني، كانت هذه المرة التي بكيت فيها في بلاد الكابا.

"لابد وأن الأسرة التي صاحبت هذا الأناني ستشعر بالأسى".

"لا تفكر فيما هو آت".

أجاب القاضي بيبّو سؤال الرأسمالي جيرو وهو يشعل سيجارة جديدة كعادته، ثم فاجأني صوت كورباكّو، قال كورباكّو، وهو يُمسك بالورقة في يديه:

"وجدتها، أستطيع أن أصنع عزف وداع مبهر".

قفز كورباكّو إلى الباب بعد أن أمسك بيد ماجّو وعيناه تلمعان، وبحلول ذلك الوقت كان الجيران قد تجمعوا حول منزل توكّو وأخذوا ينظرون إلى داخل المنزل الذي لم تتح لهم فرصة النظر إليه كثيرًا، ولكن كورباكّو أخذ يدفعهم يمينًا ويسارًا حتى وصل إلى سيارته، وفي اللحظة نفسها أصدرت السيارة صوتًا مدويًا وانطلقت إلى مكان ما؟.

"هيا! هيا! لا يمكنكم النظر هكذا".

"قام القاضي بيبّو بدور الشرطي وأبعد المتجمهرين عن المكان ثم أغلق باب منزل توكّو، أخذنا نتشاور حول الترتيبات التي يجب عملها ورائحة دم توكّو المختلطة برائحة الأزهار الجبلية تداعب أنوفنا، ولكنّ ماجّو أخذ يُحدّق بجثة توكّو وكأنما يفكر بشيء، فوضعت يدي على كتيفه وسألته:

"فيما تفكر؟".

"أفكر بحياة الكابا".

"ما بها؟".

"علينا نحن الكابا في الحفاظ على حياتنا أن...".

ثم أكمل على استحياء قائلا بصوت منخفض:

"ألا نثق بقوة من هم ليسوا منّا".

(١٤)

لقد ذكرتني كلمات ماجّو بما يُسمى بالدين، ولأنني أؤمن بالأشياء المادية فإنني لم يسبق لي وأن فكرت بجدية في أمر الدين، ولكنني تأثرت بموت توكّو مما جعلني أتساءل عن دين الكابّا، وسألت رابّو التلميذ فأجابني قائلاً:

"المسيحية، البوذية، الإسلام، عبادة النار وغيرها، ولكن أكثرهم قوة هو الدين العصري، ويسمى أيضًا الدين الحياتي".

"إذا فلديكم كنائس ومعابد في هذه البلاد؟".

"لا تستهزئ بنا، إنّ المعبد الكبير للدين العصري هو أهم المعالم المعمارية في البلاد، ما رأيك في أن تزوره؟".

ذهبت في ظهيرة أحد اليام الغائمة الدافئة مع رابّو إلى ذلك المعبد، إنه مبنى عملاق تبلغ مساحته عشرة أضعاف مساحة كنيسة نيكولاي، شعرت بالغرابة وأنا أنظر إلى أبراجه العالية وسقفه المستدير، فقد بدت لي وكأنها مجسات نباتات متجهة إلى السماء، وقفت بالمدخل (كم كان حجمي صغيرًا بالمقارنة بحجم ذلك المدخل) أحدق بالمعبد الذي بدا لي كالمسخ وليس كمبنى.

كان المعبد رحبًا من الداخل أيضًا، وكان هناك العديد من الأشخاص الذين جاءوا للصلاة يسيرون حول الأعمدة المستديرة، ولكنني رأيتهم في غاية الصغر مثلي، وفي تلك الأثناء قابلنا كاهنًا منحني الظهر، عندها خفض رابّو رأسه وحياه قائلاً:

"سيدي الراهب، تسعدني رؤيتك في أحسن حال".

انحنى الراهب ثو أجابه بأدب قائلاً:

"أنت رابّو؟ أنت أيضًا (وتوقف عن الحديث ربما بسبب رائحة منقار رابّو الكريهة) حسنًا، يبدو أنك بخير، لماذا جئت اليوم؟".

"لقد جئت برفقة هذا الرجل، فهو كما تعلم...".

بعدها أخذ رابّو يتحدث عني ثم تحولت إلى عذر يبرر عدم مجئ رابّو إلى هذا المعبد على الإطلاق.

"ولذلك جئت به لأريه المكان".

ابتسم الراهب العجوز وحياني ثم أشار غلى مكان الصلاة، وقال:

"حسنًا، قد لا أكون دليلاً نافعًا، إن أتباع ديننا يصلون لشجرة الحياة الموجودة في مكان الصلاة هناك، وكما ترى فإنّ بها ثمارًا ذهبية وأخرى خضراء، أما الذهبية فتسمى ثمرة الخير والخضراء تسمى ثمرة الشر".

شعرت بالملل أثناء شرحه هذا، كما بدت لي كلماته كتشبيه قديم، ولكنني تظاهرت أنني أستمع له باهتمام، ولكنني لم أنسَ أن أجول ببصري في أنحاء المعبد من حين للآخر.

كان جماله متفردًا وغريبًا فقد كانت عمدانة مبنية على الطراو الكورينثي، والقبب على الطراز القوطي، والأرضية على الطراز العربي، ولكن أكثر ما لفت نظري هي التماثيل الحجرية الموضوعة على التجاويف المخصصة لوضع الصور والتماثيل على الجانبين، أحسست أني أعرف هذه التماثيل، ولم يكن هذا شيئًا غريبًا، فما أن انتهى العجوز من تقديم شجرة الحياة لنا حتى سرنا إلى هذه التماثيل وأخذ يشرحها لنا قائلاً:

"إنّ هذا أحد القديسين لدينا، القديس ستريندبرغ، عانى كثيرًا ويقال أنه أُنقذ بفضل الفيلسوف سويدنبرغ، لقد كان يصدق في ديننا الحياتي هذا، أو قل لم يكن أمامه سوى أن يفعل، جرب أن تقرأ الكتاب الذي تركه لنا، لقد اعترف فيه أنه قد حاول الانتحار".

انتابني شعور بالاكتئاب ثم نظرت إلى التجويف الثاني الذي كان يحتوي على تمثال رجل ألماني كثيف اللحية.

"هذا هو الفيلسوف الألماني نيتشه، لقد طلب النجاة من بطل صنعه هو ثم جنّ جنونه دون أن يُنقذ، وإن لم يكن قد جُنّ لما كان قد احتسب من بين القديسين".

صمت الراهب العجوز قليلاً ثم قدم لنا التمثال الثالث:

"أما هذا فهو تولستوي، لقد عانى أكثر من أي شخص، ولأنه كان من عائلة ثرية فقد كان يكره أن يظهر معاناته للعامة، لقد حاول قدر جهده أن يؤمن بالمسيحية، لا بل وقد أعلن أنه يؤمن بها، ولكنه لم يحتمل أن يكون كاذبًا بعد أن

تقدم به العمر، ولكنه اشتهر بشعوره بالرعب من شعاع العلم، وبما أنه في عداد القديسين لدينا فهو بالطبع لم ينتحر".

كان التمثال الرابع لياباني، وكم شعرت بالحنين عندما رأيت وجهًا يابانيًا.

"أما هذا فهو كونيكيدا دوبّا، كان شاعرًا يعرف شعور العمال الذين يلقون حتفهم تحت عربات القطارات وغيرها، لابد وأنك لا تحتاج إلى مزيد من الشرح، فلنذهب لرؤية التمثال الخامس".

"أليس هذا فاغنر؟".

"بلى، الثائر الذي كان صديقًا لملك البلاد، لقد كان فاغنر بعدما تقدم به العمر يتلو الصلوات حتى قبل تناول الطعام، ولكنه كان حياتيًا أكثر منه مسيحيًا، ووفقًا لما تركه في خطابه فإنّ مآسي هذا العالم قد دفعت به للموت عدة مرات".

في ذلك الحين كنت أقف أمام التمثال السادس.

"هذا أحد اصدقاء ستريندبرغ، وهو رسام فرنسي اتخذ لنفسه نحو ثلاث عشرة زوجة بدلاً من من زوجة كثيرة الأطفال، لقد كان دم البحارة يجري في عروقه، انظر إلى شفتيه وسترى أثر زرنيخ أو ما شابه، أما التمثال السابع...، لابد وأنك تعبت، تفضل هنا".

ولأنني كنت حقًا قد تعبت؛ فقد خضعت لكلام رابّو والراهب العجوز ودخلت إلى غرفة في الرواق الذي كانت رائحة البخور تنبثق منه، رأيت في ركن الغرفة تمثالاً

لفينوس وتحته بعض العنب الجبلي، شعرت بالغرابة فكل ما قد تبادر إلى ذهني هو أنه راهب تخلو حياته من الزخرفة، تنبه الراهب إلى مظهري فأخذ يشرح لي في مرارة دون أن يقدم لنا كراس نجلس عليها

"لا تنس أن ديننا هو الدين الحياتي، وإلهنا –وتعاليم شجرة الحياة تقتضي أن نحيا بقوة– رابّو، هل أريته كتابنا المقدس؟".

"لا، وفي الواقع فلم يسبق لي أن قرأته من قبل".

أجاب رابّو بصراحة وهي يخدش العلامة التي على رأسه، ولكن الراهب لم يتأثر وابتسم في هدوء واستمر في الحديث:

"ليست هذه هي النهاية، لقد خلق إلهنا الكون في يوم واحد، خلق أنثى أولا فملت وطلبت وجود ذكر معها فأخذ الإله من دماغها وخلق ذكرًا وباركهما قائلاً: "كُلا وتزاوجا وعيشا بقوة".

ذكرتني كلمات الراهب العجوز بتوكّو الشاعر، فقد كان توكّو لتعاسته مثلي لا يؤمن بالإله، وبما أنني لست كابّا فلم أعلم بالدين الحياتي هذا، أما توكّو الذي ولد في بلاد الكابّا فقد كان بالطبع يعرف شجرة الحياة، أشفقت على توكّو الذي لم يتبع هذه التعاليم وقاطعت الراهب وأخذت أتحدث عن توكّو:

"يا له من شاعر مسكين".

أخذ الراهب نفسًا عميقًا، وقال:

"ثلاثة أشياء هي التي تحدد قدرنا الإيمان والظروف

والصدفة، ولسوء الحظ فإن توكّو لم يكن مؤمنـًا".

"ولكن توكّو كان يحسدكم، وأنا أيضًا أحسدكم، وأحسد رابّو صغيري السن من أمثاله".

"لو كان منقاري جيدًا ربما كنت استطعت أن أصبح متفائلاً".

تنفس العجوز نفسًا عميقـًا ثانية عندما سمع كلامنا، واستمر في التحديق بتمثال فينوس الأسود بعينيه الممتلئتين بالدموع:

"في الحقيقة... أرجوكم لا تخبروا أحدًا بسري هذا، في الحقيقة أنا لا أؤمن بإلهنا هذا، ولكنني في صلواتي...".

وفي اللحظة التي قال فيها تلك الكلمات فُتح الباب فقفزت أنثى كبيرة على العجوز، وبالتأكيد فقد حاولنا إيقافها، ولكنها كانت قد أطاحت به على الأرض في لحظات.

"أيها العجوز، لقد سرقت اليوم أيضًا بعض المال من محفظتي".

وبعد مرور بعض الوقت تركنا الزوجين وتوجهنا نحو المدخل.

"إذن فالراهب لا يؤمن بشجرة الحياة".

هكذا قال رابّو بعد برهة من الصمت، وبدلاً من أن أجيبه استدرت لأنظر إلى المعبد، كان يبدو بأبراجه العالية وسقفه المستدير كمجسات النباتات التي تحاول الوصول إلى السماء، تبدد شعوري بالاستياء كما يتبدد السراب في السماء.

(١٥)

بعد أسبوع من هذه الواقعة سمعت كلامًا غريبًا من تشاكّو الطبيب؛ ألا وهو أنّ هناك أرواحًا تخرج من منزل توكّو، فقد رحلت الأنثى عن المكان وتحول منزل توكّو إلى إستوديو خاص بإحدى المصورين، ووفقـًا لكلام تشاكّو فإنّ توكّو كان يظهر في خلفية أي صورة تؤخذ في هذا الإستوديو، ولأنّ تشاكّو يؤمن بالأشياء المادية وفقط فلم يؤمن بوجود حياة بعد الموت، ولذلك فقط أخذ يلقي بتعليقات على شاكلة:

"يبدو أن الأرواح تعتبر شيئـًا ماديًا"، لم أكن أختلف عن تشاكّو في عدم إيماني بالأرواح، ولكنني كنت قد اشتقت لتوكّو فذهبت إلى محل الكتب وبحثت عن مقالات تتعلق بشبحه أو مجلات أو صحف تظهر فيها صور شبحه ذاك، وبالنظر إلى تلك الصور فإنّ كابّا يشبه توكّو كان يظهر بها خلف الصغير والكبير والإناث والذكور، ولكن ما أدهشني أكثر من صور توكّو هو المقالات المتعلقة بشبحه، وبالتحديد تقرير جمعية الدراسات النفسية، فقد قمت بترجمته ترجمة حرفية، وسألخص ما ورد به بالأسفل، أما ما يرد بين الأقواس فهو توضيح أضفته من عندي.

تقرير عن شبح توكّو الشاعر

(العدد المائتان وأربعة وسبعون بعد الألف من مجلة جمعية الدراسات النفسية)

لقد قامت جمعيتنا للدراسات النفسية بتشكيل لجنة تحقيق في أمر العقار رقم ٢٥١ بشارع×× الذي كان منزل الشاعر توكّو الذي انتحر وهو حاليًا إستوديو××، واللجنة مكونة من (سأختصر الأسماء):

ذهبنا نحن اللجنة المكونة من سبعة عشر شخصًا ورئيس الجمعية بيكّو برفقة الزوجين هوبّو وهما أكثر من نثق بهما من الوسطاء الروحيين في تمام الساعة العاشرة والنصف من صباح اليوم السابع عشر من االشهر التاسع إلى الإستوديو موضع البحث، وبمجرد أن دخلنا المكان حتى استشعر الزوجان هوبّو جوًا روحانيًا وانتابهما تقلصات وتقيأ عدة مرات، وقد قالا: "إنّ هذا حدث لهما بسبب أن الجو كان معبأ برائحة النيكوتين حيث إن توكّو كان يحب السجائر القوية".

جلسنا نحن أعضاء اللجنة والزوجان هوبّو في صمت إلى المائدة المستديرة، وبعد ثلاثِ دقائق وخمس وعشرين ثانية سقطا في حالة فجائية من النوم، وتملكتهما روح توكّو الشاعر، وبدأنا في استجواب توكّو الأكبر منا فالأصغر:

س: لماذا تخرج كشبح؟.

ج: لأنني لا أعرف الشهرة بعد الموت.

س: ألازلت أنت أو الأرواح عامة ترغب في الشهرة بعد الموت؟.

ج: على الأقل أنا أرغب بها، ولكن أحد الشعراء اليابانيين الذين قابلتهم كان يحتقر الشهرة بعد الموت.

س: هل تعرف اسم هذا الشاعر الياباني؟.

ج: لقد نسيته من كثرة التعاسة، ولكني أتذكر أحد أشعاره المكونة من سبعة عشر حرفًا.

س: هلا تلوته علينا؟.

ج: البحيرة القديمة.

وصوت الضفدع يقفز وسط الماء.

س: وهل تعتقد أنها قصيدة جيدة؟.

ج: لا أعتقد أنها سيئة، ولكن أعتقد أنها ستكون أفضل بكثير إذا ما استبدل الكابا بالضفدع.

س: وما السبب في هذا؟.

ج: لأننا أكثر إحساسًا منهم بالفنون.

س: وكيف هي حياة الأرواح؟.

ج: إنها لا تختلف عن حياتكم.

س: إذا فهل تندم على إقبالك على الانتحار؟.

ج: لا لست نادمًا، فإذا مللت من هذه الحياة يمكنني أن أنهيها بالسلاح.

س: وهل يمكنك فعل هذا بسهولة؟.

أجابت روح توكّو على السؤال بسؤال، ومَنْ يعرف توكّو يعرف أن هذا معتاد بالنسبة له.

ج: هل الانتحار سهل أم لا؟.

obeikandl.com

س: هل الأرواح خالدة؟.

ج: لا تصدق ما يقال عنا نحن الأرواح، لا تنسَ أنّ منا المسيحي، ومنا البوذي، ومنا المسلم، ومنا عابد النار، وآخرين.

س: وما دينك أنت؟.

ج: أنا مذهبي الشك.

س: ولكنك لا تشك في وجود الأرواح؟.

ج: أنا مثلكم لا يمكنني الجزم.

س: ومَنْ هم أصدقائك؟.

ج: لدي نحو ثلاثمائة صديق في الشرق والغرب قديمًا وحديثًا، ومنهم فون كليست الكاتب المسرحي الألماني، وميللندر الفيلسوف الألماني، ووينينجر المفكر الاسترالي .... إلخ.

س: وهل كلهم أنهوا حياتهم بالانتحار؟.

ج: ليس بالضرورة، فهناك مَنْ هم مثل صديقي العزيز مونتين الذي يدافع عن الانتحار، وهناك مَنْ لم ينتحر مثل أتباع شوبنهور.

س: وهل شوبنهور في صحة جيدة؟.

ج: لقد أسس الآن مذهبًا تشاؤميًا للأرواح يبحث فيه إمكانية إيقاف الحياة، كما علم أن الكوليرا مرض جرثومي، وارتاح كثيرًا.

أخذنا نحن اللجنة نسأل عن أحوال العديدين مثل: "نابليون، وكونفشيوس، وداون، وكليوباترا، وبوذا، ودانتي، وغيرهم"، ولكنه لم يجبنا باستفاضة، ثم أخذ يسألنا عن

الشائعات المتعلقة به:

س: هل اشتهرت بعد موتي؟

ج: لقد ذكرك أحد النقاد كواحد من الشعراء الصغار.

س: لابد وأنه يحمل لي الكثير من الكراهية؛ لأنني لم أهدي له مجموعتي الشعرية، هل صدرت مجموعة أعمالي؟

ج: نعم، صدرت ولكنها يبدو أنها لم يُباع منها كثيرًا.

س: سيشتريها الكثير بعد ثلاثمائة عام، وبالتحديد بعد أن تفقد حقوق الملكية الفكرية، وماذا عن فتاتي؟.

ج: لقد تزوجت من راكّو صاحب محل بيع الكتب.

س: لسوء الحظ أنها لا تعلم شيئًا عن عينه الزجاجية، وماذا عن الطفل؟.

ج: سمعنا أنه في الملجأ القومي.

توقف توكّو قليلاً عن الكلام ثم استانف أسئلته:

س: وماذا عن منزلي؟

ج: لقد تحول إلى استوديو للتصوير.

س: وماذا حدث لمكتبي؟.

ج: لا نعلم شيئًا عن هذا.

س: لقد وضعت في أحد أدراجة مجموعة من أوراقي المفضلة، لن أزعجكم بهذا الأمر فمشاغلكم كثيرة، لقد ظهر الغسق في عالمنا الآن، لابد أن أقطع اتصالي بكم الآن.

استيقظ الزوجان هوبّو مع كلمات توكّو الأخيرة، ونحن نقسم بإله السماء أن هذا الاستجواب كان حقيقيًا، (وأننا دفعنا للزوجين هوبّو اللذين هما موضع ثقة عندنا راتبًا يوميًا).

obeikandl.com

(١٦)

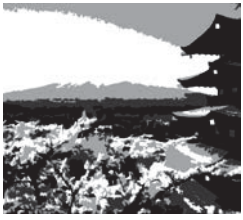

زاد شعوري بالاكتئاب لوجودي في هذه البلاد بعد أن قرأت هذه المقالة، وقررت أنني أريد العودة إلى عالم البشر بأي طريقة، ولكنني ومهما بحثت لم أعثر على الحفرة التي سقطت منها إلى هذا العالم، كان باجّو الصياد قد أخبرني عن كابا عجوز يعيش بهدوء في ضواحي المدينة يقضي وقته في قراءة الكتب وعزف الناي، خرجت إلى الضواحي باحثًا عن هذا الكابا لعله يرشدني إلى طريق للخروج من هذا العالم، وفي طريقي وجدت كابا يعزف الناي في منزل صغير ولكنه لم يبدُ عجوزًا؛ فقد كانت العلامة الموجودة على رأسه غير قاسية كما كان يبدو في الثانية عشرة من العمر، ظننت أنني أخطأت المنزل ولكني عندما سألته عن اسمه تبين لي أنه هو الكابا الذي قصده باجّو.

"ولكنك تبدو كالطفل...".

"ألا زلت لا تعرف؟ لقد كان قدري أن أخرج من بطن أمي شائب الرأس وأخذت أصغر تدريجيًا، والآن أصبحت هذا الطفل الذي تراه، ولكن إذا حسبت سني فإني قد ولدت في الستين وأبلغ الآن نحو مائة وخمسة عشر عامًا".

أخذت أدير نظري في أرجاء الغرفة، ربما يكون قد هيئ لي ولكني رأيت بين الكرسي والمائدة المتواضعين سعادة فائضة.

"إنك تعيش في سعادة لا يعيش فيها الكابا الآخرون؟".

"ربما تكون محقًا، فقد كنت عجوزًا في شبابي وأصبحت شابًا في هرمي، ولذلك لم أكن متعطشًا للرغبات مثل

الشيبان، ولم أغرق في الشهوة كالشباب، فحتى إن افترضنا أن حياتي لم تكن سعيدة فقد كانت هادئة على الأقل".

"معك حق، إنّ هذا لشيء مريح".

"ليس بهذا فقط تُدرك الراحة، فأنا صحيح الجسد ولدي ممتلكات تكفيني طوال العمر، ولكن أكثر ما يسعدني هو أنني ولدت عجوزًا".

أخذت أحدثه لبرهة عن توكّو الذي انتحر، وعن الطبيب تشاكّو الذي كان يفحصني كل يوم، ولكن علامات عدم الاهتمام كانت بادية على وجهه.

"ولكنك لا تمتلك هاجس العيش بشكل متفرد مثل باقي الكابّا؟".

أجابني الكابا العجوز في هدوء وهو ينظر إلى وجهي:

"أنا مثل بقية الكابا، خرجت من بطن أمي بعد أن سألني أبي إذا ما كنت أريد المجيء إلى هذا العالم أم لا".

"أما أنا فقد سقطت إلى هذا العالم، أرجوك دلني على طريق أخرج به من هذا البلد".

"لا يوجد سوى طريق واحد".

"وما هو؟".

"إنه الطريق الذي جئت منه".

وقف شعر جسدي متعجبًا عندما سمعت إجابته هذه:

"ولكنني لا أستطيع العثور عليه".

نظر الكابا العجوز إليّ نظرة تفيض بالمشاعر، وأخيرًا تحرك من مكانه واتجه نحو ركن في الغرفة وسحب حبلاً كان يتدلى من السقف، عندها فُتحت نافذة في السقف لم أكن

قد انتبهت لها من قبل، ظهرت السماء الزرقاء الصافية التي تخللتها أغصان أشجار الصنوبر والسرو الياباني من النافذة المستديرة، غمرتني فرحة تشبه فرحة الطفل الصغير عند رؤية طائرة.

"يمكنك الخروج من هنا".

أشار الكابّا العجوز إلى الحبل الذي ذكرته آنفًا، لاحظت أن ما ظننته حبلاً كان في الحقيقة سُلمًا مصنوعًا من الحبال.

"ولكن سأقول لك مسبقًا، احرص على ألا تندم على الخروج من هنا".

"لا تقلق، أنا لا أندم".

وبمجرد أن أجبته أسرعت في تسلق السلم محدقًا في علامة رأس الكابّا العجوز البعيدة.

obeikandl.com

obeikandl.com

(١٧)

أزعجتني رائحة جلد البشر لقترة بعد عودتي من بلاد الكابّا؛ فالكابا في الحقيقة كائنات نظيفة، كما أنني استغربت كثيرًا وجوه البشر فقد كنت لا أرى سوى وجوه الكابّا، لن تستطيعوا أن تفهموا هذا الإحساس حتى وإن تغاضيت

عن الأفواه والعيون فإنّ شكل الأنف كان مخيفـًا بشكل غير عادي، حاولت على قدر المستطاع ألا أقابل أحدًا، ولكنني اعتدت تدريجيًا على البشر، وفي خلال ستة أشهر كنت أستطيع الذهاب إلى أي مكان أريده، ولكني كنت أواجه مشكلة تكمن في أنني في بعض الأحيان كنت أستخدم لغة الكابا وسط الحديث.

"هل أنت موجود بالمنزل غدًا؟".

"كوا".

"ماذا؟".

"نعم، أنا موجود".

وبعد مرور عام على عودتي من بلاد الكابا فشلت في أحد المشروعات و.....

(عندما رويت هذه القصة على الدكتور×× وبخني قائلاً: "توقف عن هذا الهراء"، ووفقـًا لِمَا قاله فإنّ هذا استمراري في هذا الكلام سيجعل الممرضات غير قادرات على التعامل معي).

فلنتوقف عن هذا الكلام، بعد أن فشلت في إحدى المشروعات رغبت في العودة إلى بلاد الكابّا، نعم، لم أرغب في الذهاب، رغبت في العودة، فقد كنت أشعر أن بلاد الكابّا هي موطني.

خرجت من منزلي وذهبت لأستقل قطار الخط المركزي، وفي الطريق قبض عليّ أحد الضباط وأحضرني إلى هذا المشفى، وفي اللحظة التي دخلت فيها أخذت أتذكر بلاد الكابا، يا ترى كيف حال الطبيب تشاكّو؟، ربما يكون

الفيلسوف ماجّو لا يزال يجلس تحت المصباح ذي الزجاج الملون، وصديقي رابّو ذو المنقار عفن الرائحة - جالت ببالي هذا الذكريات في يوم غائم كيومنا هذا وحاولت أن أرفع صوتي، بدا أمامي باجّو الصياد، وقف أمامي وأخذ يخفض رأسه عدة مرات، وبعد أن استعدت قواي- لا أذكر إذا ما كنت ضحكت أم بكيت، ولكني تأثرت؛ لأنني تمكنت من استخدام لغة الكابا بعد فراق طويل:

"باجّو، لِمَا أتيت؟".

"جئت لزيارتك في مرضك؛ لأنهم أخبروني أنك مريض".

"كيف عرفت هذا؟".

"سمعتها في المذياع".

ثم ضحك:

"كيف استطعت الحضور؟".

"ليس هذا بالأمر الصعب، فنحن نستطيع المجئ من خلال أنهار طوكيو وقنواتها".

تنبهت عندها أن الكابا كائنات برمائية مثل الضفادع:

"ولكن لا يوجد أنهار قريبة من هنا".

"نعم، لقد جئت عبر ماسورة مياه، ثم فتحت صنبورًا...".

"فتحت صنبورًا؟".

"هل نسيت؟ أن الكابا لديهم آلات؟".

ولبضعة أيام زارني العديد من الكابّا، شخّصَ الدكتور ×× مرضي على أنه خرف مبكر، ولكن تشاكّو أخبرني أنّ

هذه إهانة واضحة في حقي، لست مصابًا بالخرف المبكر، فقد زارني تشاكّو وبالطبع رابّو وماجّو، لم يأتِ لزيارتي في الظهيرة سوى باجّو الصياد، أما الباقون فقد أتو ليلاً في ليلة مقمرة، لقد تحدثت في ضوء القمر مع جيرو رئيس شركة الزجاج، ومع ماجّو الفيلسوف بل وعزف لي الموسيقار كوراباكّو لحنًا على الكمان، كما أن هناك باقة من الزنبق الأسود على المكتب على الجهة المقابلة، لقد كانت هدية جلبها كوراباكّو معه.

(استدرت خلفي ولم يكن هناك أي باقة للزهور).

كما جلب لي ماجّو الفيلسوف هذا الكتاب، اقرأ أول قصيدة فيه، لا، أنت لا تعرف لغة الكابا، سأقرأه أنا لك، إنه كتاب من المجموعة الكاملة لأعمال توكّو التي صدرت حديثًا.

(فتح الرجل دليل تليفونات قديم وأخذ يقرأ الشعر بصوت مسموع):

وسط النخيل والخيزران.
ينام بوذا منذ وقت بعيد.
مع ثمار التين الجافة على حافة الطريق.
أما المسيح فقد مات.
ولكن لابد لنا أن نرتاح.
أمام منظر الحقول.

ولكنني لست متشائمًا من هذا الشاعر، لقد أنستني زيارات الكابّا من حين لآخر هذا الأمر، هل تذكرون صديقي القاضي بيبّو، لقد جُنّ جنونه بعدما فقد عمله،

ويقال أنه موجود الآن بمشفى الأمراض النفسية في بلاد الكابّا، كم أرغب في زيارته إذا ما تفهم الدكتورُ×× الأمر.

obeikandl.com

قصة الرأس التي سقطت

ألقى كاشووجي بسلاحه العسكري وتعلق برقبة حصانه الذي قد استحوذ على كل تفكيره، كان هذا قطعًا؛ لأنه اعتقد أن رقبته قد قُطعت، لا، بل إنه فكر في هذا بعدما تشبث برقبته، تشبث برقبة الحصان عندما صدر صوت غريب منها، ربما يكون الحصان قد جُرح أيضًا، سقط كاشووجي فجأة من على الحلقة الأمامية للسرج، وسرعان ما صهل الحصان عاليًا ورفع مقدمة أنفه إلى السماء، مرت على كاشووجي لحظة لم يعرف فيها إذا ما كان الحصان عدوًا أم صديقًا، ثم أخذ الحصان يجرى متثاقلا في حقول الذرة الممتدّة على مرمى البصر، ظن أنه يسمع صوت بضع طلقات نارية تأتي من خلفه، ولكنها لم تكن سوى بمثابة الحلم بالنسبة له.

دهسته الخيول الجامحة التي أخذت تقطع حقول الذرة التي يتجاوز ارتفاعها طول بنى آدم وجعلته يتدحرج كالأمواج على اليمين وعلى اليسار، نازعين شعر رأسه نافضين

ملابسه العسكرية، ماسحين الدم الأسود الداكن عن رقبته، لم يكن بوسعه أن يدرك كل هذه الأحداث، كانت حقيقة قطع رقبته تسيطر على عقله بشكل واضح وقوي، "لقد قُطعت، لقد قُطعت".

أخذ يردد هذه الكلمات بشكل تلقائي متكرر وهو يركل بطن الحصان الذي غمره العرق بكعب حذائه.

قبل هذا الحدث بفترة طويلة كان كاشووجي برفقة فارس صديق قد عبرا نهرًا بعد حدودهما ذاهبيْن لقرية صغيرة للاستطلاع وإذا بهما فجأة يقابلان جنودًا يابانيين وسط حقول الذرة الذهبية، ولهول المفاجأة لم يكن لديهم أي فرصة لإطلاق السلاح سواء أكان مَنْ أمامهما صديقًا أو عدوًا، وعلى الأقل فإن الأعداء يرتدون قبعات بها رقع حمراء وتُحلي صدورهم علامات حمراء، لا تعرف مَنْ بدأ ولكنهم استلوا سيوفهم ووجهوا رؤوس خيولهم كل تجاه الآخر، وبالطبع فإن المرء في هذه اللحظة لا يفكر في مثل هذه اللحظة أنه ربما يُقتل، إنه لا يفكر سوى في أنّ مَنْ أمامه ليس إلا عدوًا يجب أن يُقتل، وبعد أن رفعوا رؤوس خيولهم تأهبًا أظهر كل منهما أسنانه للآخر مثلما تفعل الكلاب، وانطلقا بكل قوة كل تجاه الآخر، وبعد لحظات أخذت وجوه ارتسمت لهم كأنما يرونها في مرآة تظهر وتختفي من على يمينهم ويسارهم، ومع هذه الوجوه بدأوا يسمعون صوت سيوف مشغولة بقطع الهواء من حولهم.

بعد ذلك لم يعد هناك وضوح في فكرة الوقت، ولكنهما تذكرا جيدا اهتزاز عيدان الذرة وكأنما قابلت عاصفة

وتذكرا أيضًا حمرة رؤوسها التي بدت كوهج الشمس، ولكنهما في المقابل لم يتنبها للفترة التي استغرقها القتال ولا ما حدث به ولا بأي ترتيب سار، وعلى أي حال فإن كاشووجي كان يدير سيفه، وهو يصرخ بجنون أمام الموقف الذي لا يفهمه، لقد سبق وأن احمرّ سيفه من قبل ولكن بدون مقاومة من خصمه، وفي تلك الأثناء أخذ مقبض سيفه ينزلق من العرق الذي ملأه، بعدها جف فمه، فتح عينيه حتى كادت تخرج من مقلتيهما، وفجأة قفز الجندي الياباني الذي احمرّ وجهه بشدة فاتحًا فمه الكبير أمام حصانه، وقف ذو القبعة ذات الرقعة الحمراء محدقًا من الشق الذي تخلل منتصف قبعته، عندما رأى كاشووجي هذا استلّ سيفه وهَمّ بشق القبعة بكل ما أوتي من قوة، ولكن سيفه لم يلمس أيّ من القبعة أو الرأس التي تقع أسفلها، لكنه لمس السيف الفولاذي الذي رفعه خصمه، ومع تكرار هذا الصوت ملأ الضجيج الأجواء، وتخللت رائحة الحديد البارد أنفيهما، اقترب السيف العريض الذي عكس أشعة الشمس ليقع على عين كاشووجي، وفي تلك اللحظة أصدر شيءٌ بارد صوتًا وهو يخترق جذور رقبته.

ركض الحصان كالمجنون وسط حقول الذرة وعلى متنه كاشووجي الذي كان يأن من ألم جرحه، لم يبدُ لحقول الذرة نهاية مهما ركض، لم يعد هناك صوت للخيول ولا للبشر، كما اختفى صوت صليل السيوف حتى ضوء الشمس والخريف لم يكن بينهما اختلاف في اليابان وشرق نهر لياو في الشمال الشرقي للصين.

وتأكيدًا على ما ذكرناه سابقـًا فإنّ كاشووجي كان يهتز فوق ظهر حصانه يأن من أثر جرحه، ولكن الصوت الصادر من أسنانه لم يكن مجرد صوت أنين من الألم، بل كان له معنى أكثر تعقيدًا؛ أي أنه لم يكن يأن من الألم الجسدي فقط لقد كان يبكي بأعلى صوته من الألم النفسي المتمركز في خوفه من الموت والأحاسيس المختلفة تمر من أمام عينيه.

لقد كان في غاية الحزن لأنه سيفارق هذا العالم ثم إنه كان يلقى باللوم على كل الأشخاص والأحداث التي جعلته يفارق هذا العالم، عذبته هذه المشاعر المعقدة لأقصى حد، ولذلك فإنّ هذه الأفكار أخذت تجول بباله فقد حاول أن يصرخ قائلا: "سأموت! سأموت!" أو أن ينادي على والديه أو أن يَسبّ الجندي الياباني، ولكن لسوء الحظ فإن هذه المحاولات خرجت من فمه على هيئة أنين أجش، وعند ذلك تملكه التعب.

لا يوجد مَنْ هو أتعس مني حظـًا، جئت وأنا في مثل هذا السن الصغير للقتال في مثل هذا المكان، ونهايتي أن أُقتل مثل الكلب بدون سبب بالإضافة إلى أنني في الأصل أكره الياباني الذي طعنني، وأكره أيضًا قائدنا الذي أرسلنا للاستطلاع، ونهاية فإنني أكره الذي بدأ الحرب بين اليابان والصين، وهناك شيء آخر أكرهه، إن كل الظروف وكل الأشخاص الذين كان لهم علاقة بكوني جنديًا لا يختلفون عن العدو في نظري، فبفضل هؤلاء سأفارق الآن العالم

الذي يمتلئ بالأشياء التي أريد أن فعلها، كم أنا أحمق لأني سمحت لهم وللظروف أن يفعلوا هذا بي.

كانت هذه هي المعاني التي يحملها صوت أنينه وهو متشبث بشعر رأس الحصان الذي أخذ يجري وسط الذرة، فقد كانت أسراب السمان تفاجئهم بالاقتراب منهم من هنا ومن هناك ولكن الحصان لم يعرهم أي اهتمام، لم يكترث حتى لصاحبه الذي كان يوشك على السقوط من على ظهره من حين للآخر.

وهكذا أخذ كاشووجي يشكو سوء حظه للسماء وسط أنينه اللامنقطع، ومضى يهتز من على ظهر حصانه حتى قاربت الشمس الحمراء من المغيب، ولكن تلك الأرض المنبسطة بدأت تشكل منحدرًا خفيفًا وظهر في الأفق نهر صغير تصطف على ضفته بعد أشجار الصفصاف، لم يكد حصانه يمر من وسطها حتى التقفته الأغصان المتشابكة ورفعته وألقت به رأسًا على عقب وسط الطين، عندها رأى كاشووجي اللهب الأصفر المحترق في السماء وقد كان اللهب مماثلا للهب الفرن الكبير الذي رآه في مطبخ منزل صديق له أيام طفولته، وفي اللحظة التي خطرت بباله فكرة أن النار تشتعل غاب عن الوعي.

هل فقدَ كاشووجي الذي سقط من على الحصان الوعي كليًا؟ لقد توقف إحساسه بألم جرحه بالفعل، كان ملطخًا بالطين والدم، تذكر وهو ملقيّ على جانبه على ضفة النهر المهجور أنه قد سبق له وأن حدّق في السماء الزرقاء العالية التي تشير إلى أوراق الصفصاف، لقد بدت

له أكثر زرقة من ذي قبل، بدت له وكأنه ينظر من أسفل إلى وعاء أزرق مقلوب، تخلل هذه الزرقة سحب لا تعلم من أين ولدت ولا أين تختفي، بدت هذه السحب وكأنها تختفي بين أوراق الصفصاف التي لا تتوقف عن الحركة.

إذن فكاشووجي لم يفقد الوعي تمامًا، ولكن بعض الأشياء أخذت تلوح له وتختفي من أمامه كالظلال بين عينيه والسماء الزرقاء، كان أول ما ظهر له رداء أمه المتسخ بعض الشيء، فكم ارتمى في هذا الرداء أثناء طفولته في لحظات سعادته وفي لحظات حزنه، وبمجرد أن مدّ يده ليمسك به اختفى من أمام نظره حيث أصبح رفيعًا كخيط حريري واختفى في طيات السحاب مثل حجر الميكا، بعدها ظهر له حقل السمسم الذي كان يقع خلف منزله الذي وُلد به منزلقًا من أمام عينيه، كان حقلا صيفيا تتفتح فيه الأزهار الوحيدة التي تنتظر غروب الشمس، وكان يقف في منتصفه محاولا أن يبحث عن نفسه أو عن إخوته، ولكنه لم يجد حتى خيال أي إنسان، لم يكن هناك سوى أزهار تعانق أوراق الشجر تحت ضوء الشمس الخافت، أخذ هذا المشهد يتحرك بميل حتى اختفى.

بعدها ظهر شيء عجيب في السماء، وبتدقيق النظر تبين أنه مصباح على هيئة تنين، كبير الحجم، طويل، هيكله من الخيزران، ملفوف بورق مطلي بالأحمر والأزرق، لم يكن مظهره يختلف عن مظهر التنين الحقيقي، ومع أنه كان في الظهيرة إلا أن شمعة مشتعلة قد ظهرت في السماء الزرقاء، زاد هذا غرابة أنّ المصباح بدا وكأنه حي يشبه الحية في

تحركه يمينـًا ويسارًا، بعدها اختفى هذا المشهد فجأة من أمام بصره.

وبمجرد أن اختفى هذا المشهد حتى ظهرت في السماء قدم امرأة رقيقة، ولأنها قدم قد قُيدت منذ الصغر كالعادة الصينية القديمة فإن طولها لم يزد عن عشرة سنتيمترات، أظهر ظفرها الأبيض في إصبعها المرن لون اللحم من تحته، حمّل هذا المنظر شووجي شعورًا بالحزن العميق، فتمنى أن يتمكن من لمس هذه القدم مرة أخرى، ولكن هذا بالتأكيد كان أمرًا مستحيلا فالمسافة بينهما ليست سهلة، وبينما هو يفكر في هذا أصبحت القدم شفافة شيئـًا فشيئـًا واختفت وسط السحاب.

عندما اختفت القدم شعر شووجي من أعماق قلبه بوحدة لم يشعر بها من قبل، كانت السماء الزرقاء تغطيه بصمت؛ فالإنسان مجبر على الاستمرار في العيش ببؤس تحت هذه السماء تهب عليه الرياح التي تسقط منها حتىً وإن كره ذلك، كيف يمكن أن تُشرح هذه الوحدة، ثم كم هو عجيب أنه لم يلحظ هذه الوحدة حتى الآن ودون أن يلحظ. ووجد شووجي نفسه يتنهد تنهيدة طويلة.

وفي تلك اللحظة اعترض المسافة بين عينيه والسماء الزرقاء فرقة من الجنود اليابانيين ذوي القبعات ذات الرقعة الحمراء. تقدموا إليه بسرعة وبقوة غير معتادة، ولكنهم اختفوا بنفس السرعة التي ظهروا بها، نعم، لابد وأنهم يشعرون بنفس الوحدة، وإن لم يكونوا خيالا لكانوا

اجتمعوا على أن ينسوا هذه الوحدة ولو للحظات، ولكن الآوان قد فات الآن.

أخذت الدموع تتدفق بلا توقف من عيني كاشووجي، عندما حاول مراجعة عينيه التي اغرورقت بالدموع، ووجد أن حياته كانت مليئة بالأشياء القبيحة، ولكن ما من ضرورة لذكر هذا الآن، لقد كان يريد الاعتذار لشخص ما، كما كان يريد أن يسامح شخصًا ما.

متحدثًا إلى نفسه: "إذا ما نجوت من هنا فإنني سأراجع كل ما قمت به في الماضي".

تمتم بهذه الكلمات وهو يبكي من أعماق قلبه، ولكن السماء العميقة اللامحدودة الزرقة أخذت تهبط تجاه صدره وكـأنها لم تسمع نداءه، وفي وسط هذه السماء الزرقاء كان هناك نجم يُرى في الظهيرة يلمع برفق، تنهد شووجي مرة أخرى وحرّك شفتيه فجأة وفي النهاية أغمض عينيه.

في صباح أحد الأيام في بداية فصل الربيع، وبعد مرور نحو عام على انعقاد السلم بين البلدين، جلس كل من العقيد كيمورا وعالم من وزارة التجارة والزراعة يُدعى ياماكاوا إلى منضدة في إحدى غرف مفوضية اليابان في بكين، أخذا يحتسيان القهوة ويدخنان السجائر متناسين مشاغلهما وانغمسا في حديث هادئ، ومع أن الربيع كان في بداياته إلا أن النيران المشتعلة في المدفئة جعلت الغرفة دافئة لدرجة تجعل العرق يتساقط من الجبين.

استمرا في الحديث عن ملكة الغرب ثم تطرقا للحديث عن حرب اليابان والصين حتى وقف العقيد كيمورا

وجلب ملف التقارير اليومية للبلاد ووضعه على المنضدة، وأشار ياماكاوا إلى إحدى الورقات وأخذ يقرؤها، ولأنه كان أمرًا فجائيًا فقد دُهش ياماكاوا. أما العقيد الذي لم يكن كجندي عادي فقد كان إنسانـًا حكيمًا يعلم ما كان يحدث في تلك الأيام، ونظرا إلى ورقة وتوقعا أن تكون قصة متعلقة بالحرب فقد كانت مقالة من جريدة مكتوبة بشكل رسمي بالحروف الصينية.

وأخذ ياما كاوا في قراءة القصة:

"لقد شارك كاشووجي صاحب محل الحلاقة في الحرب بين اليابان والصين، وقد كان محاربًا باسلا، وبعد أن عادوا منصورين أدمن الخمر والنساء، وفي يوم من الأيام دخل في شجار مع رفقائه في الشرب انتهى بإصابته بجرح في الرقبة أودى بحياته، والغريب في الأمر أن هذا الجرح لم يكن ناتجًا عن سلاح ولكنه كان جرحًا قديمًا أُصيب به في ساحة المعركة قد فُتح مرة أخرى، وروى شاهد عيان أن منضدة قد سقطت وسقط معها الضحية، وفي اللحظة التي سقط فيها سقطت رأسه، ولكنها بقيت معلقة بقطعة من الجلد وانتشرت الدماء في كل مكان، وقيل إن السلطات ساورتها شكوك قوية حول حقيقة هذه القصة وأنها تجرى تحقيقات جادة وموسعة حول الواقعة، ولكنّ المخطوطات الصينية القديمة بها ذكر لقصة رجل يُدعى كاشووجي سقطت رأسه، فهل نستطيع أن نقول إن هذه القصة لم تحدث في الواقع؟".

وعندما انتهى ياما كاوا من قراءة القصة بدت على وجهه علامات الاستغراب وقال متسائلا:

"ما هذا؟".

عندها أجابه العقيد كيمورا وهو ينفث دخان سجائره ببطء مبتسمًا ابتسامة هادئة:

"أليست قصة مضحكة؟ ولا تعقل إلا إذا كانت من بلاد الصين".

فردّ عليه ياما كاوا وهو ينثر رماد سيجاره الطويل: "ولا في أي مكان".

قال العقيد:

"والأمر الأكثر إثارة...". وفجأة توقف العقيد عن الكلام وبدت على وجهه الجدية:

"إنني أعرف هذا الكاشووجي".

فردّ ياما كاوا معلـقًا على كلام العقيد: "تعرفـه؟ لقد تفاجأت، لابد وأنك قد اتفقت مع كاتب المقال على هذه الكذبة".

فأجابه العقيد: "وهل يعقل أن يقوم أحد بهذا؟ لقد جُرحت مرة في قتال وقابلت شخصًا يُدعى كاشووجي في المشفى الذي ذهبت إليه، وقد درّبني على اللغة الصينية عدّة مرات، لابد وأنه الرجل نفسه الذي كان مصابًا في رقبته، لقد قال لي: إنه أُصيب في رقبته بسيف ياباني في نزاع مع أحد الفرسان".

"يا له من قدر، ولكنّ الجريدة تقول إنه كان مجرمًا، ألم يكن من الأفضل لهذا العالم أن يموت مثل هذا الشخص؟".

"لقد كان إنسانـًا صادقـًا، مُحبًا للناس، نادرَ الوجود، وحتى أطباء الجيش رأوا فيه شخصًا طيبًا بشكل غير معتاد وعاملوه معاملة إستثنائية، فأنا مازلت أتذكر عندما قصّ عليّ كيف جُرح في رقبته وسقط من على حصانه؛ لقد أخبرني أنه عندما سقط من على حصانه وسط الطين ورأى في السماء التي تخللتها أشجار الصفصاف رداءَ والدته، وقدمًا حافية لامرأة، وحقولَ سمسم متفتحة الأزهار".

رمى العقيد الورقة من يديه ورفع فنجان القهوة إلى شفتيه، وقال وكأنما يحادث نفسه:

"أتذكر أنه قال إنه خجل من حياته عندما رأى هذه الأشياء".

"إذن فقد أصبح مجرمًا بعد انتهاء الحرب، حقـًا إن الإنسان لا يستحق الثقة".

"ماذا تعنى بأن الإنسان لا يستحق الثقة؟ أيعنى هذا أنه كان يظهر ما هو مغاير لشخصيته؟ حسنا".

"لا أعتقد هذا، ولكن على الأقل فإنني كنت أشعر بجديته في ذلك الوقت، واعتقد أنه شعر بالشعور نفسه عندما سقطت رأسه إذا ما استخدمت اللفظ الذي استخدمته الجريدة، وإليك كيف أرى الأمر، لقد كان ثملا وقت القتال، ولذلك استطاع خصمه النيل منه بسهولة، وعندما سقط فُتح جرحه وتدحرجت رأسه بذيل الحصان المتدلي منها، وهنا مر أمام عينيه العديد من الأشياء ابتداءً من رداء أمه إلى قدم المرأة الحافية إلى حقل السمسم، وعلى الرغم من وجود سقف فوقه إلا أنه رأى السماء الزرقاء

تعلو رأسه، عندها شعر بالخجل من حياته، ولكن الأوان كان قد فات، في المرة الأولى عثرت عليه مجموعة من الأطباء اليابانيين وهو فاقد الوعي واعتنوا به، أما هذه المرة فقد استمر الرجل في لكمه وركله حتى مات مليئـًا بالندم.

اهتزّ كتف ياماكاوا مع ضحكاته قائلاً له: "يا لك من حالم، إذا كان ما تقوله حقيقي فلِمَا سمح لنفسه أن يصبح مجرمًا بعد ما حدث له في المرة الأولى؟".

"ذلك لأنه من غير الممكن أن تثق بأي إنسان، ولكن بمعنى مختلف عما قصدته أنت".

أشعل كيمورا سيجارًا آخرًا وابتسم واستأنف حديثه في نغمة مبهجة قائلاً:

"إنه لمن المهم بل من الضروري أن نفهم حقيقة هي أننا لا يمكن أن نثق في أنفسنا، والوحيدون الذين يمكنك أن تثق بهم هم مَنْ يعون هذه الحقيقة، لابد لنا من أن نوضح هذه المسألة أولا، وإلا فإن رؤوسنا قد تسقط يومًا ما مثلما سقطت رأس كاشووجي، وهذه هي الطريقة التي ينبغي لك أن تقرأ بها الصحف الصينية".

obeikandl.com

اليوسفي

في مساء أحد أيام الشتاء الغائمة جلست في ركن عربة الدرجة الثانية من القطار المتجه من يوكوسوكا إلى طوكيو، جلست شارد الذهن منتظرًا الصافرة لتعلن عن انطلاق القطار، وعلى غير العادة لم يكن هناك ركاب آخرون سواي في العربة التي كانت أنوارها مضاءة بالفعل، نظرت إلى الرصيف خافت الإضاءة بالخارج، وعلى غير العادة أيضًا فإن أحدًا لم يأت لتوديع أحد، ولم يكن هناك سوى كلب محبوس في قفص كان ينبح بحزن من حين لآخر، وكان هذا المشهد مقاربًا لشعوري بشكل غريب، انتابني تعب لا يوصف

وشعور بالملل ألقيا بظلالهما على تفكيري كسماء ملبـدة بالغيوم تنذر بتساقط الثلوج، لم أحرك يدي من جيبي ولم يكن لدي الطاقة حتى لأحاول أن أصل إلى الجريدة المسائية.

بعد وهلة قصيرة انطلقت صافرة القطار، أسندت رأسي على إطار النافذة خلفي وأنا أشعر بشيء من الراحة في قلبي الوحيد منتظرًا أن يبدأ موقف السيارات أمام عيني في التراجع إلى الخلف، وقبل أن يحدث هذا سمعت صوتـًا عاليًا لوقع حذاء خشبي آتٍ من عند بوابة التذاكر، وفي لحظات علا صوت محصل التذاكر لتـُفتح أبواب عربة الدرجة الثانية التي كنت بداخلها وتهرع فتاة صغيرة في نحو الثالثة عشر أو الرابعة عشر من العمر إلى داخلها، وفي تلك اللحظة اهتز القطار بقوة وبدأ يتحرك ببطء، أما أعمدة الرصيف وعربة نقل الماء التي بدا أنها منسية، ومنظر حامل الحقائب وهو يقدم الشكر لأحد المسافرين على البقشيش الذي قدمه له، كل هذا أخذ يتراجع إلى الخلف وسط الدخان الذي هبّ على النافذة، وأخيرًا شعرت بالراحة ولأول مرة فتحت جفني متثاقلا ونظرت إلى الفتاة الجالسة على المقعد المقابل لي وأنا أشعل سيجارة.

كان شعرها جافـًا مربوطـًا ربطة اتشوجايشي، وكان خدها الذي ملأته آثار الجروح بسبب التشققات أحمر لدرجة تشعر بالسوء، فكان مظهرها مظهر فتاة ريفية حقيقية، يتدلى من حول عنقها وشاح صوفي أخضر يميل إلى الصفرة يغطيه الوسخ، وعلى ركبتيها أغراض ملفوفة

بقماشة، قبضت يدها التي لسعها البرد بإحكام على تذكرتها حمراء اللون للدرجة الثالثة، فلم يعجبني منظر وجهها الفقير، كما لم يرحني اتساخ ملابسها، وفي النهاية أغضبني عدم قدرتها على التمييز بين الدرجة الثانية والدرجة الثالثة، ولأنني كنت أريد أن أتناسى وجودها فقد أشعلت تلك السيجارة ثم فردت الصحيفة المسائية التي كانت في جيبي على ركبتي، وفجأة تغير الضوء المنعكس على الجريدة الذي كان يأتي من الخارج ولكنه الآن يأتي من سقف العربة مما جعل الطباعة تبدو واضحة أمام عيني، كان القطار قد دخل إلى أول أنفاق خط يوكوسوكا الذي تكثر به الأنفاق.

عندما ألقيت نظرة على الجريدة التي كانت مضاءة بالإضاءة الكهربائية لم أجد سوى أحداثًا عادية من شأنها أن تخفف شعوري بالاكتئاب؛ قضية السلام، المتزوجون حديثًا، الرشاوي، الوفيات، وفي اللحظة التي دخل القطار فيها النفق خُيل لي أنّ القطار يسير في اتجاه عكسي وأنا أطوف بعيني بين الأخبار بشكل يكاد يكون أوتوماتيكيا، ولكن لم يسعني أن أظل متجاهلا للفتاة التي كانت تجلس أمامي والتي كانت تجسد الواقع المزري، إن القطار وهو يعبر النفق وهذه الفتاة الريفية وهذه الجريدة المسائية، أليسوا جميعًا رموزًا؟ ألا يرمزون لحياة الإنسان صعبة الفهم غير العادلة والمملة؟ انتابني شعور بأن الحياة لا تساوي شيئًا وألقيت بالجريدة التي لم أكن قد انتهيت من قراءتها

فأسندت رأسي على إطار النافذة وأغمضت عيني وكأنني مت ثم نمت.

مرت عدة دقائق، فجأة شعرت أن شيئًا ما يهددني، نظرت حولي فوجدت الفتاة قد غيرت مكانها من المقعد المقابل لي إلى المقعد المجاور لي، وحاولت أن تفتح النافذة بفارغ الصبر، ولكن النافذة الثقيلة لم تُفتح كما كانت تريد، وازدادت وجنتاها المتشققتان حمرة، ووصل صوت أنفاسها وشهيقها إلى مسامعي، ولكن الشيء المؤكد هو أن القطار كان على وشك الدخول إلى نفق آخر محاط بالجبال من الجانبين وكان ضوء الشفق منعكسًا على العشب الجاف بالقرب من نافذة القطار، ومع ذلك فقد حاولتْ أن تفتح النافذة عن عمد، فلم أستطع أن أفهم السبب وراء ذلك، لم أستطع سوى أن أفكر في أنها كانت تفعل ذلك بدافع الرغبة فقط، وأخذت أحدق بها ببرود وأنا يسيطر عليّ إحساس بالعداوة تجاهها وهي تحاول فتح النافذة بيديها التي قد آذاها الصقيع وتمنيت ألا تنجح محاولاتها أبدًا.

دخل القطار إلى النفق مصدرًا ضوضاءً شديدة وعندها فُتحت النافذة أخيرًا، ثم بدأ دخان أسود خانق أسود كالسخام يملأ العربة، ولأن حنجرتي ضعيفة في الأصل فقد حاولت أن أغطي وجهي بمنديل يحميني من الدخان ولكني فشلت، ونتيجة لذلك فقد أخذت في السعال بشدة لدرجة أنني لم أستطع أن أتنفس، لم تكترث الفتاة لأمري ووضعت كل تركيزها على الاتجاه الذى سار فيه القطار، فأخرجت

رأسها من النافذة مما جعل شعرها يتطاير بفعل الرياح في الظلام.

عندما نظرت إليها كان الجو قد أصبح أكثر إشراقًا خارج النافذة التي تسلل من خلالها رائحة التربة والعشب الجاف والمياة الجارية، وإن لم يكن هذا قد حدث لوبخت الفتاة آمرًا إياها بغلق النافذة على الرغم من أن السعال كان قد هدأ.

وبعد أن خرج القطار من النفق اقترب من تقاطع قريب من ضواحي بلدة فقيرة تقع بين الجبال االمغطاه بالأعشاب الجافة، وبالقرب من التقاطع كانت هناك منازل رثة ضيقة ذات أسقف من قش وبلاط، وفي الغسق كان رجل البوابة يلوح بفتور بعلم أبيض، وفي تلك اللحظة اعتقدت أنّ القطار قد عبر النفق أخيرًا، عندها رأيت ثلاثة أولاد ذوو الخدود الحمراء يقفون بالقرب من بعضهم في صف خلف سور التقاطع، وكانوا جميعًا قصيري القامة وكأن السماء قد قيدتهم، وكانوا يرتدون ملابس لونها يماثل المشهد الكئيب لضواحي البلدة، رفعوا جميعًا أيديهم في الوقت نفسه وهم ينظرون إلى القطار وهو يعبر أمامهم، وأحنوا رقابهم إلى الخلف وأخذوا يصرخون صرخات مبهمة بكل ما أوتوا من قوة.

ثم حدث ما يلي، قامت الفتاة التي أخرجت نصف جسدها من النافذة بمد يدها المتأذية من الصقيع بنشاط وأمطرت الصبية الذين جاءوا لتوديعها بخمس أو ست حبات من اليوسفي الجميل الملون بلون الشمس الذي

يُدخل البهجة إلى القلب، فأسر المشهد غير المتوقع لبي، عند ذلك فهمت كل شيء، لقد قامت الفتاة التي هي غالبًا في طريقها إلى عملها الجديد برمي بعض ثمار اليوسفي من جيب ملابسها كمكافأة لأخواتها الذين قطعوا كل هذا الطريق إلى التقاطع ليودعوها.

وفي لحظة، اختفى كل هذا المشهد، وبدا تقاطع الضاحية في الغسق والصبية المهللين مثل الطيور الصغيرة وثمار اليوسفي التي انهالت عليهم، ولكن المشهد قد انطبع في قلبي بشكل مفطر للقلب، ثم انتابني شعور مبهج نبع أيضًا من ذلك المشهد، فرفعت رأسي بثقة وحدقت بالفتاة وكأنها شخص آخر، وقبل أن ألحظ كانت الفتاة قد جلست في المقعد المقابل لي مرة أخرى، ووجنتاها الحمراوتان مدفونتان في وشاحها الأخضر المتلون بلون الربيع، ويدها التي كانت تحمل أغراضها الملفوفة في قماشة تقبض بشدة على تذكرة عربة الدرجة الثالثة.

المؤلف في سطور:

ـ هو الكاتب الياباني: **أكوتاجاوا ريونوسوكي** (Akutagawa Ryunosuke).

ـ الاسم باليابانى: 芥川 龍之介.

ـ وُلد في طوكيو ١ مارس ١٨٩٢م، وكان ثالث الأطفال في الأسرة ومات منتحرًا في الخامسة والثلاثين من عمره عام ١٩٢٧م.

ـ سُمي **ريونوسوكي** أي ابن التنين؛ لأنه ولد في عام التنين.

ـ دَرَسَ الأدب الإنجليزي بالجامعة الإمبراطورية بطوكيو، ومن ثمّ كان مُحبًا للأدب حيث كتب أكثر من مائة وخمسين قصة قصيرة، ومع ذلك لم يكتب روايات طويلة.

ـ تحولت قصته (في غيضة) إلى فيلم شهير أخرجه المخرج الشهير **أكيرا كوروساوا**، وكان موقع الأحداث فقط مستمدًا من قصة (راشومون).

ـ كتب أول أعماله (راشومون) عندما كان لا يزال طالبًا ثم بدأ في كتابة شعر الهايكو تحت اسم مستعار (جاكي) ثم ألف قصته (هانا) عام ١٩١٦م، وتتابعت بعد ذلك أعماله، ومن آخر أعماله قصة (الكابّا) التي ألفها عام ١٩٢٧م.

ـ في نهاية حياته الأدبية تأثرت صحته البدنية والعقلية، وكانت معظم أعماله في تلك الفترة مستوحاة من أحداث حقيقية في حياته الشخصية.

ـ في عام ١٩٣٥م قام صديقه المُقرب إليه **كان كيكوتشي** بتأسيس جائزة أدبية أطلق عليها اسم (جائزة أكوتاجاوا).

تتضمن هذه المجموعة القصصية ست عشرة قصة منها القصير ومنها الطويل من أروع ما كتب أكوتاجاوا ريونوسكى، وقد ترجم معظم هذه القصص إلى عدة لغات خاصة الإنجليزية وفي هذا العمل نقدم هذه القصص للقارئ العربي ليستمتع بأدب ياباني فريد من نوعه يعكس حضارة تلك البلاد وثقافتها بلغة عربية مبسطة لكيلا يجد القارئ كللا أو مللا أثناء قراءتها.

obeikandl.com

المترجمة في سطور:

آية وائل عبد الفتاح محمد

ـ مترجمة مصرية نشأت في أسرة محبة للثقافة.

ـ تخرجت في قسم اللغة اليابانية بكلية الألسن جامعة عين شمس عام ٢٠٠٦م، وعُينت معيدة بالقسم عام ٢٠٠٧م.

ـ هذه هي أول مجموعة قصصية لها مترجمة عن اليابانية بعنوان: " أوجين والخريف وقصص أخرى (مجموعة قصصية لأكوتاجاوا)"، وهي باكورة أعمالها في مجال الترجمة عن اليابانية.

obeikandl.com